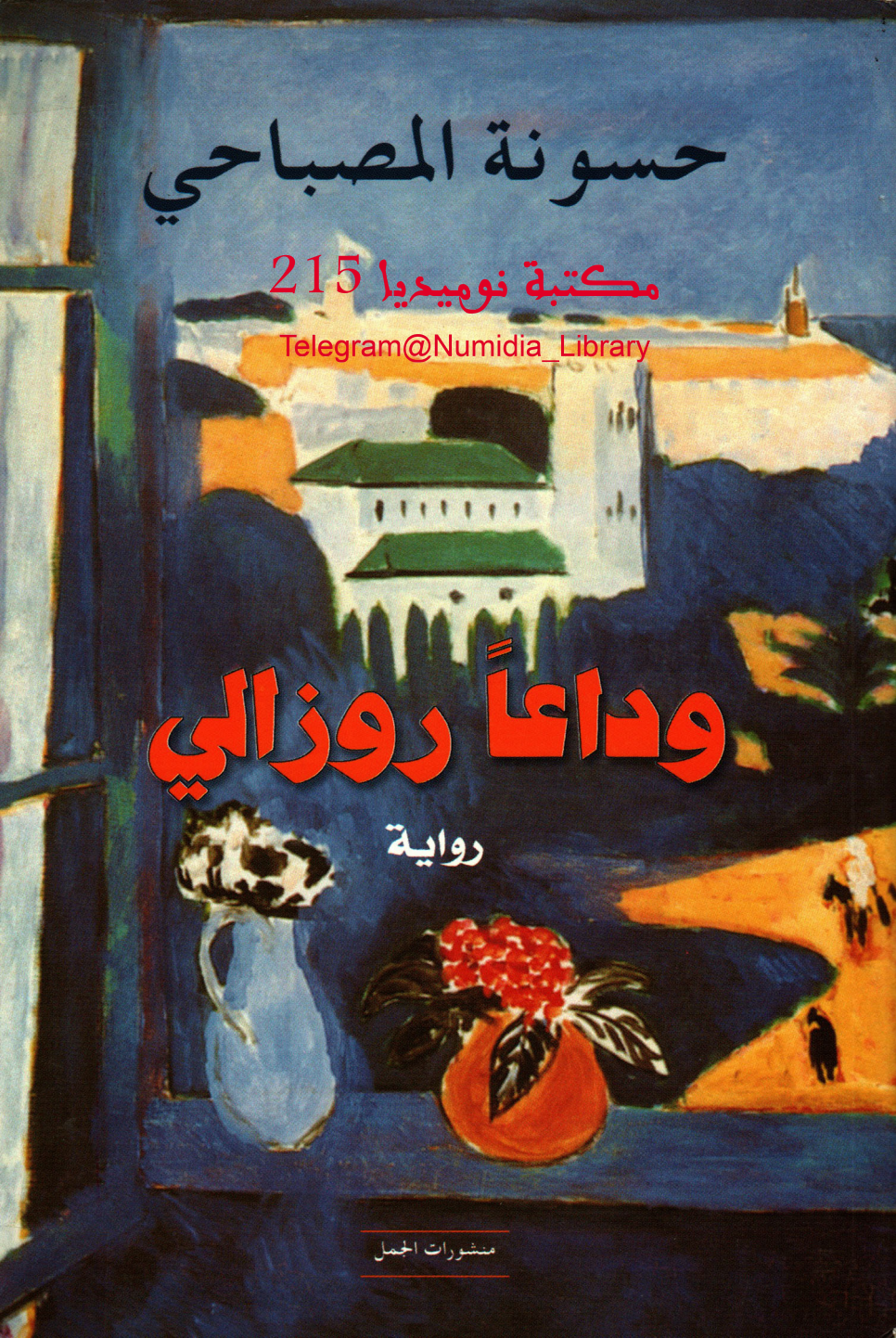

حسونة المصباحي

مكتبة نوميديا 215
Telegram@Numidia_Library

وداعاً روزالي

رواية

منشورات الجمل

حسونة المصباحي: **وداعاً روزالي**، رواية

حسونة المصباحي

وداعاً روزالي

رواية

منشورات الجمل

ولد **حسونة المصباحي** في قرية صغيرة في أحراش منطقة القيروان بتونس عام ١٩٥٠. درس الأدب الفرنسي في تونس وعمل مدرساً لفترة قصيرة، حيث فصل من عمله ومنع من السفر لفترة طويلة. عمل مراسلاً صحافياً لعدة جرائد ومجلات. يقيم منذ عام ١٩٨٦ في مدينة ميونيخ بألمانيا. حصلت مجموعته «**جنون ابنة عمي هنية**» على الجائزة الأولى للقصة القصيرة في تونس عام ١٩٨٦، كما ترجمت بعض أعماله الى الألمانية وفازت روايته «**هلوسات ترشيش**» بـ«**جائزة توكان**» عام ٢٠٠٠ والتي تمنحها مدينة ميونيخ لأفضل كتاب في العام، كما نشر بالاشتراك مع المستشرقة **اردموته هيلر** العديد من الأبحاث والدراسات عن الثقافة العربية منها: **وراء أحجبة الأسلام**، الحب والجنس في الثقافة العربية والاسلامية (ميونيخ ١٩٩٣)، والذي تُرجم الى عدّة لغات. من مؤلفاته: **حكاية جنون ابنة عمي هنية**، قصص (تونس ١٩٨٥)؛ **السلحفاة**، قصص (باريس ١٩٩٥)؛ **ليلة الغرباء**، قصص (تونس ١٩٩٧)؛ **هلوسات ترشيش**، رواية (الدار البيضاء ١٩٩٥)؛ **الآخرون**، رواية (تونس ١٩٩٨)؛ **الياس كانيتي: أصوات مراكش**، ترجمة (الدار البيضاء ١٩٨٧)؛ **كتاب التيه**، رحلات (تونس ١٩٩٧).

حسونة المصباحي: **وداعاً روزالي**، رواية، الطبعة الأولى ٢٠٠١
رسمة الغلاف: هنري ماتيس
كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس
محفوظة لمنشورات الجمل، كولونيا – ألمانيا

© *Al-Kamel Verlag 2001*
Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326765
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

الى عثمان وفاء لطريق ورزازات
والى علي وفاء لتلك الليلة البرلينية.

ح. م.

هنا توقف قائد البلدة كما لو أنه، ماخوذاً بلهب قصته، قد افرط وتجاوز الحد، او كما لو انه من المحتمل أن يكون علي الأقل قد افرط وتجاوز الحد، وقال:

- ولكن ألا تضجرك هذه القصة؟

- لا، قال لك. إنها تسلّيني

وردّ رئيس البلدة على ذالك قائلا:

- أنا لا أرويها لك بهدف تسليتك

- إنها تسليني فقط لأنها تجعلني أستشف البلبلة المضحكة التي يمكن أحيانا أن تقرر مصير إنسان.

فرانز كافكا

(القصر)

القسم الأول

عندما كنت أقطع الجسر تحت وابل من المطر تذكّرتها، وقلت لا بدّ أن أفرّ إليها ثانية، وأنام بين أحضانها، وأداعب جسدها الأسمر الشهيّ، وأروي لها بعضا من تلك الحكايات التي تثير دهشتها وتجعل عينيها أكثر سواداً واتساعاً. وقلت إنه شهر نيسان، أجمل شهور المتوسط وأكيد أن مدينتها البيضاء حيث ملتقى البحرين تستلقي بدلال تحت الشمس الدافئة، هامسةً بأغانيها الأبدية. لابد، قلت. ثم لست أدري ماذا فعلت في تلك اللحظة بالذات. لعلي بصقت في النهر الذي كان له لون الطّمي بشيء من الحنق والتبرّم ذالك أن عجوزا قصيرة، محدودبة الظهر، استدارت إليّ بوجهها الغضوب المحروث بالتجاعيد، ثم رمتني بنظرة قاسية قد تكون أقسى النظرات التي رموني بها الناس في حياتي كلها حتى أنني ارتبكت وحثثت خطاي مبتعدا.

في بار "جوزيفين" طلبت قهوة و"كراوسون" وبدأت أقلب في الجرائد. لا جديد سوى مزيد من الحروب والفواجع والمجاعات. الخبر الوحيد الذي قرأته بمتعة وحتى النهاية يروي قصة شاب زنجي في الثامنة عشر من عمره، قتل عشرين عجوزا وحيدات وطاعنات في السنّ "لأنهن بشعات" حسب تعبيره. وذكر كاتب الخبر أن الشاب الزنجي روى تفاصيل جرائمه بهدوء أذهل رجال الشرطة. دفعت الجرائد بعيدا عني، ثم رحت أحدق في الزبائن. هم أنفسهم الذين أراهم يوميا تقريبا. هم أنفسهم المقصيّون المبعدون المنفيون كرها أوعن طواعية. هم أمثالي. كعادتهم هم صامتون، كئيبون، يتفحصون بعضهم بعضا بشيء من الإرتياب، أو يتطلعون إلى الشارع حيث المطر والإزدحام... روبين الكندي الذي تقاعد بعد أن أمضى ثلاثين سنة مدرسا في كلية الفنون الجميلة. يأتي دائما إلى بار "جوزفين" مرفوقا بكلبه الأسود الضخم، وأحيانا بزوجته، المرأة الشاحبة النحيفة التي تعشق روايات باتريسيا هايشميت. ولا مرّة غيّر ملبسه أو مظهره: القبعة السوداء العريضة. جاكيت وبنطلون الدجينز الباليان. اللحية الزرقاء المتدلية على صدره. بعض الأوقات، ينتحي ركنا قصيا، مبدياً نفوراً واضحاً من كل شيء. أوقاتا أخرى، يحيط نفسه بشبان وشابات، جلهم من طلبته القدماء. وساعات طويلة يظل

يحدثهم عن بعض من أطوار حياته راملياً في جوفه بالبيرة تلو الأخرى... وصلت إلى باريس قادما إليها من لندن عام ١٩٥٨... كان يصحبني هنري، صديق طفولتي الذي قضى قبل أربع سنوات في حادث سيارة في أستراليا. والغريب أني حلمتُ قبل ذهابه إلى هناك أنه سيلقى المصير ذاتَهُ. وقد اتصلت به على الفور لأبلغه ذلك، وأُحَذِّرَهُ من السفر، لكنه ضحك عالياً وقال لي: "لابد أنك سكرتَ أكثر من اللزوم، كالمعتاد ونمتَ في وضع غير مريح، وإلا ما كنتَ حلمتَ هذا الحلم السخيف!" بعد ذلك بأسبوع، سافر إلى أستراليا عازماً على أن يمضي عاماً كاملاً هناك، غير أن الموتَ كان له بالمرصاد تماماً مثلما هو الحال في حلمي... آه... لقد كان أعزَّ صديق بالنسبة لي. لكن، ما العمل؟! تلك هي الحياةُ، والموتُ هو مصيرنا في نهاية المطاف... قلتُ إنني وصديقي هنري جئنا إلى باريس ونحن في عزّ الشباب. لم تعجبنا لندن. وجدناها مُحافظةً أكثر من اللزوم وتبين بعد شهر واحد من إقامتنا بها أنها غير قادرة على تحمّل فتيان مجانين مثلنا. وهكذا انطلقنا إلى باريس. وصلناها سكرانين. كان الوقت ربيعا والطقس دافئا. أمضينا الليلة الأولى نتسكع في بارات "الحي اللاتيني." بعدها نمنا في حديقة "اللكسمبورغ."وعندما استيقظنا أول الظهر، دخلنا أول بار اعترضنا في جادة "سان ميشيل" فالتقينا هناك. سيدة أربعينية كانت قد أمضت فترة عن شبابها في كندا. فرحت بنا كثيرا ودعتنا إلى كأس. ثم أخبرتنا أنها تملك بنسيونا صغيرا في شارع "سان جاك" وأنه بإمكاننا أن نقيم عندها. وكان الأمر كذلك. كانت باريس في تلك الفترة تعيش أعزّ وأحلى أوقاتها وكانت الأفكار الوجودية والماركسية منتشرة في أوساط الشباب بشكل مذهل حتى أن المحافظين والبورجوازيين كانوا يبولون في سراويلهم من شدة الخوف. وهنري وأنا كنا قد تأثرنا كثيرا قبل أن نغادر كندا بـ"البيتنيكس"، وأصبحت قصائدهم ورواياتهم بمثابة التوراة بالنسبة ليهودي واقف عند حائط المبكى. وكانت تلك الجملة الواردة في مطلع "على الطريق" لجاك كروواك والتي فيها يقول: "في مكان ما على الطريق سوف يعدّون لي الجوهرة النادرة" هي من جملة العوامل التي حرضتنا على الهروب من قفص العائلات البغيض إلى الفضاء الرحب حالمين أن نعثر نحن أيضا على الجوهرة السوداء على طريق التيه الطويل. ولكي نؤمن قوتنا وأجرة البنسيون، كنا نغني كل يوم في الشوارع والساحات ومحطات الميترو الأغاني الشائعة في ذلك الوقت. فقد كان لهنري صوت عذب. أما أنا فكنت

ولازلت عازفا جيدا على الجيتار. في الليل، ننام في أحضان أجمل الباريسيات... آه... لقد كانت فترة ذهبية في حياتي ما عرفت لها مثيلا بعد ذلك قط! يصمت قليلا. ينظر إلى من حوله بعينيه المتورمتين من كثرة الشراب والتدخين ويقول: "لست أدري كيف استطاعت هيلين (زوجته) أن تروضني بعد ذلك. ولست أدري أيضا لم بقيت كل هذا الوقت في هذه المدينة... ربما بسبب "البيرة البيضاء" التي لا أعرف بيرة ألذ منها مذاقا في الدنيا بأسرها...! بعدها يقهقه عاليا ويقهقه معه كل المحيطين به...

وحيداً في الركن القريب من المدخل موابو الكونجولي معتمراً قبعة بلون بشرته، ناظرا إلى مَنْ حوله بعينين محمرتين. بعُثنونه الذي تخترقه بعض الشعرات البيضاء، وبالخواتم الأفريقية التي تزيّن أصابع يديه، والسّوار العاجي في معصمه الأيسر، والتعويذة البرتقالية اللون المتدلية على صدره، هو يبدو شبيها بساحر أفريقي لم يغادر الدغل مطلقا. وموابو فخور بالخصوص بالتعويذة التي يقول أنه لم ينتزعها من مكانها منذ أن كان في الخامسة عشر من عمره: "هي هدية من جدي قبل وفاته ببضعة أسابيع. أذكر أنه ناداني وقال لي: "خذ هذه التعويذة يا ولدي... فلعلها تقيك شرور الطريق. ".. وكان جدي على صواب وحكمة. فأنا سرت بعد ذلك في طريق محفوف بالمخاطر. إذ حالما أكملت دراستي في بروكسيل عدت إلى بلادي وكلي عزم وأمل في أن أساهم في بنائه وازدهاره. غير أن رياح بلادي تجري بما لا تشتهي السفن. فقد أستولى جنرال على السلطة وأحكم قبضته على البلاد وراح يتصرف كما لو أنها وأهلها ملك من أملاكه الخاصة. وحين تيقنت أنه ليس بإمكاني أن أفعل شيئا آخر غير أن أساق إلى السجن مثل آلاف الآخرين، قررت الرحيل إلى غير رجعة. .وأعترف أني كنت جدّ ساذج في ذلك الوقت وإلاّ ما كانت حدثت لي كل تلك المصائب التي كَادَت تؤدي بي إلى التهلكة. فقد كنت أتصور أن جنرال بلادي هو الوحش الوحيد في القارة السمراء، وأن بقية الحكام ملائكة. وهكذا دفعت الثمن غاليا. ففي جميع البلدان التي طرقت أبوابها طالبا اللجوء، كنت أطرد في الحين، أو أهان، أو يلقى بي في السجن. ولا بلدا واحدا عاملني ولو بقدر ضئيل من التفهم والإنسانية. هل تتصوّرون أن شرطة الكامرون رمت بي حال وصولي إلى الحدود في زنزانة ضيقة لم أكن قادرا أنا القصير القامة أن أمد فيها رجلي بما فيه الكفاية. ولما فتحوا الباب عقب مرور ثلاثة أيام بلياليها على ذلك، كنت

على قاب قوسين أو أدنى من الجنون. أما في أفريقيا الوسطى فقد هدّد رئيس مركز الحدود بإلقائي إلى التماسيح إن لم أعد على أعقابي. ولم يكن تهديد كهذا بالأمر الغريب في بلد اكتشف الناس فيما بعد أن حاكمه كان يشتهي أكل الصبيان بعد طبخهم جيّدا في مرجل كبير. وفي مالي كادوا أن يسلموني إلى سفارة بلادي لولا هذه التعويذة (يقبلها بحرارة) التي ما أشك مطلقا أنها منقذتي من كل تلك المخاطر التي اعترضت سبيلي. "...

غير بعيد عن موابو الكونجولي ينتصب جيمس الأيرلندي الذي له ملامح قرصان عرف كلّ أهوال البحر ثم استقر أخيراً على اليابسة ليقضي ما تبقى له من العمر متنقلا بين البارات، متحاشيا ذكر الماضي وما عرف خلاله من مغامرات ومن أفراح وأتراح. أشقر. نحيف. فارع القامة. بوجه شرس طويل، وعينين باردتين بالكاد نتبين حين نتمعن فيهما أنهما كانتا زرقاوين في يوم من الأيام، وعنق يفصح من أول نظرة تلقى عليه أن صاحبه مدمن على الشراب بشكل يدعو للقلق، ومعطف زيتوني اللون يكاد يلامس كاحليه، وحذاء عسكري ثقيل، وحقيبة سوداء لا تفارقه أبدا. لا أحد يعلم لم حط جيمس رحاله في هذه المدينة ولا لم هو متشبّث بالبقاء فيها رغم أنه بلا عمل وبلا مأوى ولا حب. حين يتجرأ البعض ويسألونه عن ذلك، ينفعل ويجيبهم بحدة واضحة: "اسمحوا أن أقول لكم أنه ليس باستطاعتي أن أجيب على أسئلتكم السخيفة هذه"! ثم يوليهم ظهره، ويمضي إلى ركن آخر من البار ليواصل الشراب بأكثر نهم من قبل. والبعض من المقربين إليه، يقولون أنه كان يعيش حياة هادئة مع زوجته الإنكليزية وطفله الصغير في بيت جميل على البحر غير أنه سرعان ما ضاق بتلك الحياة ضيقا شديدا فوضع ذات يوم أدباشَهُ وكُتُبَهُ في الحقيبة السوداء وانسلّ هاربا من البيت الزوجي دون أن يترك أثرا. وقد ظلت زوجته تبحث عنه طويلا إلى أن أرشدها أحدهم إلى مكانه ففاجأته مرفوقة بالصبي في بار "جوزيفين" قبل عيد الميلاد بقليل وأخذت تبكي وتصيح بشكل هستيري: "أنت رجل حقير ووغد وجبان ومحتال وإلاّ كيف تهرب وتتركني مع هذا الصبي الذي هو ابنك!" ويقول من حضر الواقعة أن جيمس ظل هادئا، صامتا، يشرب بيرته بتأن وكأن الأمر لا يعنيه. وحين تعبت المرأة من البكاء والصراخ، اقتربت منه بهدوء. وضعت يدها على كتفه وقالت له بصوت تخنقُه الدّموع: "جيمس العزيز... عد إلى البيت.. ما الذي فعلت حتى تعذبني وتعذب هذا

الصَّبيَّ، ثمرة حبّنا، كل هذا العذاب... تعال يا جيمس الحبيب..سوف نقضي عيد ميلاد رائعا هناك في بيتنا وسوف يسعد فرانك (ابنهما) بذلك كثيرا. .سوف أفعل أي شيء تطلبه مني من أجل إسعادك وإرضائك... آه يا جيمس العزيز... أنت تعلم جيّدا أني أحبك وأنك الرجل الوحيد الذي أحببت والذي سوف أظل وفيّة له حتى النهاية!" وبدا جيمس وكأنه لان قليلا. فقد احتضنها واحتضن الصبي بتأثر بالغ ثم خرج صحبة عائلته الصغيرة. وظن الجميع أن جيمس لن يشاهد مرة أخرى في بار "جوزيفين" غير أنه باغتهم بعد ثلاثة أيام بالضبط، وكان ذلك ظهر عيد الميلاد، ليستقر في أحد الأركان كالمعتاد ويطلب بيرة وفودكا ثم يصيح في النادلة: "بيرة على حسابي لكل الواقفين على الكونتوار.. فأنا اليوم سعيد وغني!" وجيمس يكتب الشعر منذ أن كان شابا غير أنه لم ينشر ولو قصيدة واحدة من جملة مئات القصائد التي كتبها. وحين يسأل عن ذلك يقول: "وما فائدة الشعر في عالم حقير كهذا؟!"

"لم يكتب إذن؟

– أكتب – يجيب جميس – مثلما يتسلّى الناس بالإستمناء أو بلعب الورق أو بالتفرج على التلفزيون!" لكن حين يتعتعه السكر، وهذا يحدث دائما، يخرج جيمس دفتره الباهت اللون من الحقيبة السوداء، وبصوت خافت، متعب، يقرأ لندمائه بعضا من قصائده. بعدها يعيد الدفتر إلى مكانه ويقول: "أعتقد أن كأس بيرة أفضل ألف مرة من هذا الهراء... أليس كذلك أيها الأصدقاء الأعزاء؟!"

وعندما يقول له أحدهم: "ولكن يا جيمس. .ما قرأته يدل دلالة قاطعة على أنك شاعر حقيقي" يقهقه جيمس عاليا ضاربا الأرض بقدميه، ثم يرد قائلا: "هاه هاه هاه هاه... الأفضل أن تقول أنني خراء حقيقي!"

وذاك الذي يحملق بنهم في كفل الجرسونة الشابة هو إدوارد التّيرولي. وهو رسام موهوب لكنه كسول. حين يرى امرأة جميلة، ينسى كل شيء ويركض وراءها. أزوره في "الأتيلية" بين الحين والحين. نشرب كأسا أو أكثر من ذلك ونظل ساعة أو ساعتين نضحك على العالم. أعتقد أنه يحبني كثيرا. بل لعله الوحيد الذي يحبني في هذه المدينة. ولا مرة سألني عن أصلي ولا من أين أتيت. وهذا يكفي لكي يكون الشخص الأقرب إلى نفسي، ذلك أن أهل هذه المدينة فضوليون مثل مخبري ذلك الوطن الذي هجرته غير آسف منذ زمن بعيد. وقد قَدِمَ إدوارد التّيرولي إلى هذه

المدينة بعد الحرب العالمية الثانية بخمس سنوات فقط: "كانت المدينة مهدمة... وكانت آثار الحرب لا تزال ماثلة للعيان كما لو أن القصف لا يزال متواصلا غير أنني أحببت المدينة من أول نظرة وقلت في نفسي هذا هو بالضبط المكان الذي أبحث عنه... كنت آنذاك في سن العشرين... أذكر أن وصولي إلى هنا توافق مع اليوم الأول من عيد البيرة... وعلى مدى أسبوعين لم أهتم بشيء إلا بالشراب وملاحقة النساء... آوه يا إلهي..ليس هناك سعادة أجمل وأقوى من تلك السعادة التي يشعر بها الإنسان بعد أن يكون قد بات متيقنا بأن الكارثة التي كانت تهدد حياته قد ولت وبدون رجعة... وهكذا كان حال هذه المدينة... فقد كانت الأنقاض والخرائب تحيط بهم من كل جانب غير أنهم كانوا يرقصون ويغنون وكأن شيئا لم يكن."... وكم يصبح إدوارد البترولي جذابا حين يسترسل في استعراض غرامياته: "كريستينا هي الأولى التي وقعت في غرامها عقب وصولي إلى هذه المدينة ببضعة أشهر... كانت صهباء. ومثل كل النساء الصهباوات كانت دوما نهمة لذلك الشيء حتى أنه كان يصادف أحيانا أن ينفذ صبرها قبل أن نصل إلى البيت فنفعله في حديقة أو خربة واقفَيْن أو على الأرض إن كان الطقس يسمح بذلك. ولا امرأة قبل كريستينا نجحت في أن تخفف من غلواء الجوع الجنسي الذي استبد بي مبكرا، وبسببه سماني أهلي "العربي." مع كريستينا سافرت إلى إيطاليا. في كل مدينة ندخلها، كان الإيطاليون يشرعون في إلتهامها بنظراتهم حتى أنني أحيانا أخرج عن طوري. أما هي فكانت تزداد شبقا ودلالا، مبتسمة لهذا، غامزة لذاك، غير مكترثة بي أنا الذي كنت أتقلى على جمر الغيرة مثل عطيل. حين تهيج، تدفعني إلى غرفة الفندق وتصيح بي وهي تتلوى مثل أفعى على الرمل الساخن: "إن لم تشبعني بما فيه الكفاية، فسوف أخونك مع أول إيطالي يعترضني في زاوية الشارع... آه كم كانت عنيفة وشرسة كريستينا!" مرة قالت لي: "لا تلمسني هذه الليلة إلاّ إذا وقفت عاريا تحت الثلج عشر دقائق!" وقد فعلت ذلك بينما كانت هي تتلوى من الضحك داخل الغرفة الدافئة. كان يعجبها أن تعذّبني. وكنت أنا أطيعها مثلما يطيع العبد سيّده. مع ذلك فشلت في الإحتفاظ بها. فبعد علاقة استمرت ثلاث سنوات، دخلت علي ذات صباح وأنا بين النوم واليقظة لتقول لي بنفس النبرة التي بها تطلب مني أن أعد لها قهوة: "إدوارد العزيز... أعتقد أني وقعت في غرام رجل آخر... لذا من الأفضل أن أتركك بأقصى السرعة!" قالت ذلك ثم اختفت. من

يومها لم أرها أبدا. الثانية كانت نيكول. لها ملامحُ متوسطية. شعر أسود فاحم. عينان خضراوان. جسد متناسق الأعضاء. عقب مرور شهر واحد على تعارفنا، قالت لي: "اسمع يا إدوارد الجميل... أنا لا أحب العلاقات الحرة المفتوحة لذا من الأفضل أن نتزوج!" تزوجتها بدون تردد. أنجبنا بنتا سميناها ليندا. سكنا مع أمها بيتا كبيرا في حي فاخر. أمها كانت عجوزا بشعة دائمة العبوس. أخذت تنغّص حياتنا وأخذ سلوك نيكول يسوء بشكل لا يطاق خصوصا تجاهي. وغالبا ما كانت تصاب بنوبات عصبية فتأخذ في الصياح والعويل مكسرة الصحون والكؤوس وكل ما كان قريبا من يديها. ازدادت السحب في سماء حياتنا تلبّداً وأخذت العاصفة تنذر بتقويض كل شيئ. عقب تفكير طويل، قررت أن أفعل ما فعلته كريستينا معي. ذات صباح خريف جميل، انسللت من البيت مثل لص وليس معي غير متاع قليل تاركاً رسالة مقتضبة لنيكول أقول لها فيها: "عزيزتي... لقد أحببتك كثيراً... كوني على يقين من ذلك. غير أنني أعتقد أن الإنفصال هو أفضل حلّ لكلينا!" ويبدو أن نيكول تقبلت الأمر بصدر رحب إذ أنها اتصلت بي بعد ذلك لتطلب مني فقط أن نتمّم إجراءات الطلاق بأقصى السرعة. وهذا ما حدث بالفعل. بعدها لم تلاحقني مطلقاً ولم تسع للإتصال بي... والآن مضى ما يزيد على الثلاثين عاما على طلاقنا... وأبدا لم أرها ولم أرى إبنتي! وقد قال لي أحد الأصدقاء بأنهما تعيشان في أمريكا... بعد نيكول مارتين.. وبعد مارتين أنتيا.. وبعد أنتيا... نساء... نساء... نساء... أصدقائي يقولون لي أنني خيّرت النساء على الفن وأنا أقول لهم... اسمعوا أيها الأصدقاء الأعزاء... يكفيني أنني صنعت من حياتي لوحة فنية جميلة... أجمل من كل اللوحات التي أبدعها البعض منكم ذلك أن الفن الحقيقي بالنسبة لي هو أن أعيش حياتي بالطول والعرض... نعم هذا كل ما ابتغي... ما تبقى هراء في هراء!

صاحب المعطف الأزرق المهترئ الواقف على يسار ادوارد التّيرولي، هو ميشيل الفرنسي. لا أحد من بين جميع غرباء بار "جوزيفين" يضاهيه في نفوره عن الوطن الأصلي الذي غادره في سن المراهقة ليعيش متنقلا بين بلدان عدة. وبرغم تيهه الطويل بين البلدان واللغات، فإن ميشيل لم يتعلم أية لغة أخرى، وظل متمسّكا بلغته الأم تمسكا عجيبا كما لو أنه يَبْتَغي أن تكون تعويضا للوطن الذي فقده اختياريا، والذي منه يفرّ هاربا كلما وطأته قدماه. والمُتَمَكّنُ من لغة مولييير، يُصَابُ

بالدهشة حين يسمعه يتكلم ذلك أن للغته سحرا خاصاً. لغة لها طعم النبيذ المعتق في براميل "البروفانس" فيها نلمس مغامرات صاحبها وأسفاره وعذاباته، وتشرده على أرصفة المدن، ونومه في المقابر وفي الحدائق العامة ومحطات القطار، وصولاته في الحانات ومحلات البغاء، ووحدته المطلقة، ولياليه البيضاء، وعشقه اللامتناهي للحياة القاسية التي اختار أن تكون كذلك. وقد قتل والد ميشيل في جبال "الأوراس" اثناء الحرب الجزائرية وهو في العاشرة من عمره. ولأن أمه كانت لا تزال شابة وجميلة فوق ذلك، فإنها أهملته وانصرفت لإشباع ملذّاتها... كانت تأتي كل ليلة مخمورة حدّ التّلف ودائما مصحوبة بعشيق جديد... وبسبب صرخات اللذة التي كانت تطلقها، لم يكن باستطاعتي أن أنام إلا بعد أن تشبع هي وتستسلم للنوم. وكانت تضربني بقسوة لا مثيل لها. وغالبا ما يكون ذلك بدون أي مبرّر. ودائما كانت تقول لي: "لو كنت أعلم أن موريس – اسم والدي – سوف يقتل في تلك الحرب القذرة في بلاد المسلمين، لما تركتك تنمو في بطني!" تحملت هذا العذاب حتى سن الخامسة عشر. بعدها غادرت البيت العائلي إلى غير رجعة. وقبل عامين، أصيبت أمي بشلل نصفي. ومنذ ذلك الحين، وهي رهينة الفراش. وقد بلغني أنها تفتح البوم الصور كل يوم. وحالما ترى صوري وأنا صغير، تنخرط في بكاء لا يكاد ينتهي. وكل الذين زاروها من اقربائي طلبت منهم أن يفعلوا المستحيل لإقناعي بزيارتها لأنها ترغب أن تراني ولو لدقيقة واحدة قبل موتها. نعم لدقيقة واحدة فقط! غير أنني لن أذهب و لا رغبة لي أن أراها حيّة كانت أم ميّتة!

وميشيل جدّ نبيل مع النساء، الجميلات منهن بالخصوص. وهو عادة ما يهدي وردة لهذه، أو يساعد تلك على ارتداء معطفها أو على حمل شيء ثقيل، أو يقبل يد واحدة تحسن الكلام بلغته الأم، وتبتهج لطرائفه الكثيرة. ويحلو لميشيل أن يروي للمخلصين من ندمائه، قصة حبه العذري... كان ذلك في طهران قبل سقوط الشاه بقليل، غير أن ميشيل لا يذكر أبدا سبب وجوده هناك. فقط يقول أنه كان بصحبة إيراني تعرف عليه في كولونيا. وهذا الإيراني استضافه في بيته في طهران. ومنذ اليوم الأول، وقع ميشيل في حب الأخت الصغرى لمضيّفه والتي تبلغ من العمر ثمانية عشر عاما"... مازلت أتذكرها كما لو أنني رأيتها قبل ساعة واحدة فقط من الآن... أتذكر شعرها الأسود المُنْسَدِل على كتفيها، وعينيها الواسعتين المتألقتين ببراءة العذارى الشرقيات ووجهها المستدير الذي يفيض

منه نور كأنه ألَقُ الصبح في شيراز. أبدا لم نتبادل ولو كلمة واحدة. فقط اكتفينا بتبادل النظرات. ويوم غادرت، رأيت الدموع في عينيها. أعتقد أنها الفتاة الوحيدة التي أحببتها في حياتي. وأغلب الظن أنها الأخيرة!

الغارق في قراءة الجريدة، مصطفى المغربي، الذي قادني في ظلام اللغة لما قدمت إلى هذه المدينة منذ... منذ متى؟... لقد نسيت. وعلى أية حال ليس هذا مهما على الإطلاق فالزمن لم يعد يعنيني منذ وقت طويل. وفي البداية كان مصطفى المغربي يهرع إليّ باشا حالما يراني. أما الآن فقد أصبح كل واحد يتحاشى النظر والتحدث إلى الآخر. ويبدو أن مصطفى المغربي جاء إلى هذه المدينة لدراسة الأدب الألماني. قبل ذلك، أمضى ما يقارب الستة أعوام في باريس حيث يعيش والده المهاجر الذي طلق أمه ليتزوج من فتاة من أحياء القصدير بالدار البيضاء تصغره بحوالي ثلاثين عاما. ومنذ أن غادرها، وكان آنَئذ في السادسة عشر من عمره، لم يعد مصطفى المغربي إلى بلاده البتة، وليست له أية رغبة في ذلك، ظاهريا على الأقل. هو الآن في الخامسة والأربعين. متزوج وله ابنة في العشرين. نحيف. سريع الحركة. سريع الغضب أيضا. حذر مثل أرنب أخطأته رصاصات الصيادين أكثر من مرة. أول لقاء لي به كان في بار "كارتون" الملاصق لبار "جوزيفين" عقب أربعة أسابيع من قدومي إلى هذه المدينة. كان سكران يهذي بلغات عديدة، مطلقا كلمات بذيئة بلهجة بلاده، متحرشا بالنساء. وكان صاحب البار يراقبه بانتباه، متحيّنا الفرصة لطرده. وكنت أتأهب للإنطلاق حين اقترب مني وأخذ يتحدث إلي بلغتي الأم وكأنه يعرفني منذ عهد مديد. وهكذا نشأت بيننا علاقة استمرّت سنوات طويلة. ثم راحت هذه العلاقة تَضْمُرُ شيئا فشيئا إلى أن أصبحت عاجزة كليا عن إثبات وجودها. من الذي تسبب في ذلك؟ هو أم أنا؟ لست أدري. كل ما أعلم هو أني ربما كنت الأول الذي ابتغيت إقامة مسافة بيني وبينه خصوصا لما دأب على إيقاظي آخر الليل مرتين، وأكثر في الأسبوع الواحد ليطلب مني إكمال الشراب في شقتي. بل ومرة دخل عليّ ومعه امرأة في منتصف العمر، بالكاد قادرة على النطق من فرط السكر، وراح يجامعها من الخلف هكذا أمامي ومن دون أدنى حياء. هل قلت حياء؟ نعم قلت ذلك بلا ريب. هل أصبحت أخلاقيا إلى هذا الحد أنا الذي كنت أعتقد أنني حطمت جميع مقدسات الشرق البائد منذ أن دخلت أحد المراحيض في المعهد الذي كنت أرتاده ودخنت أول سيجارة في أول يوم من رمضان وأنا في

السابعة عشرة من عمري؟! آنذاك كنت أقرأ كامو. ومن روايته "الغريب" حفظت فصولا كاملة عن ظهر قلب وتحت تأثير ذلك، كنت أرى نفسي أحيانا وأنا في أتم حالات اليقظة أني أجهز في ساحة المعهد ذاتها على ذلك الوغد جمعة بعشر رصاصات في رأسه الكبير الفارغ لأنه كان يسخر منّي طول الوقت ويسمّيني "الأوزة" لأنني في رأيه أمْشي مثلها. وأحيانا كان يَعْتدي عليّ بالضرب خصوصا لما أنال إعجاب أستاذ الرياضيات. نعم كنت قويا جدّا في الرياضيات في ذلك الوقت المبكر من حياتي حتى أن البعض سمّوني "اينشتاين" ليس تعبيرا عن محبة أو عن تقدير لي وإنما لكي أستمر في تسريب الحلول لهم خفية. أما الآن فأنا لا أفهم في الرياضيات لا من كوعي ولا من بوعي. غريب كل هذه التحولات المرعبة التي تطرأ على حياتي وعلى شخصيتي. هل يفسد الإنسان إلى هذا الحد عندما يتقدم به العمر؟! أوف... لكن يبدو أنه من الأفضل أن أعود إلى مصطفى المغربي حتى لا يزداد نهاري تكدّرا. بعد تلك الفعلة الشنيعة، أردت أن ألومه عليها لوما خفيفا فَهَاج وماج حتى أيقظ أغلب سكان العمارة في الساعة الثانية صباحا. في اليوم التالي جاءتني البوابة العجوز، وأعلمتني بلهجة خشنة ومن دون أن تلقي عليّ بتحية الصباح أنني سأطرد من الشقة إن تجدّد الأمر. ولا أعتقد أن شخصا من بين جميع الذين أعرفهم يمكن أن يصبح خطيرا وشرساً مثل مصطفى المغربي حين يسكر. يكفي أن يشرب بيرتين بيضاوين فقط حتى يأخذ في الهذيان مثل معتوه"... فلتذهب زوجتي إلى الجحيم فأنا لم أعد أطيقها... لقد كبرت وترهّلت ولم يعد لها أي طعم. عظم مرمي في الخلاء. أما أنا فلا زلت بقوة فتى في العشرين... أمس فقط جامعت واحدة في العشرين من عمرها.. لم تصدق أبدا حين أعلمتها أني تجاوزت الأربعين... يا إلهي..لقد كدت أجن حين لحست عضوي وقالت لي آه كم هو كبير ولذيذ... وزوجتي يبست ولم يعد فيها ما يمكن أن يستنهض همتي حتى لمجرد تقبيلها وديّا. ومنذ ان تزوجنا وهي دائمة الحرص على أن تتناول طعام العشاء في الثامنة ليلا. ولم الثامنة ليلا؟ لست أدري. هكذا هم أهل هذه البلاد. يفسدون حياتك بصرامتهم وبتمسكهم المقيت بالوقت وبالمواعيد. اللعنة. بل ألف لعنة! لم أعد أطيق هذا. وما كان عليّ أن آتي إلى هنا. لقد وقعت في الفخ مثل أرنب حمقاء... أنا الذي كنت أعتقد أنني... هه. .أنني ماذا؟ لو كنت شيئا مهما لما كنت أتيت إلى هذه المدينة المعتمة الباردة الخشنة الطباع والرديئة الطقس على مدار العام. ولولا

هذا البار الجميل، بار "جوزيفين" لشنقت نفسي بنفسي للخلاص من هذه الحياة المملة القاتلة. وزوجتي التي باتت صارمة مثل حارسة في سجن مخصص للمحكومين بالمؤبد، تنبهني كلما هممت بالخروج إلى أن أكون في البيت في الثامنة ليلا بالضبط لألتهم على عجل ذلك العشاء الرديء الذي تعده... وحين أتأخر عن الموعد المحدد بدقيقة واحدة، تأخذ في التشكي والتبكي. أما أنا فأنصرف لمشاهدة التلفزيون تجنبا للنظر إليها أو الحديث معها... لا شيء يدل على أنني وزوجتي نعيش تحت سقف واحد. وهي لا تريد أن تفهم أنها شاخت ولم تعد صالحة إلا للمستشفيات. وحين تنخرط في البكاء تزداد هرماً وبشاعة وتولد في أنا الرغبة في أن أزهق روحها لأريحها وأريح نفسي. ولكي أتفادى ارتكاب جريمة حمقاء، أعجل بالخروج من البيت لأهيم على وجهي في البارات حتى طلوع الفجر. "هنا يتوقف مصطفى المغربي عن الكلام المباح. يحملق في من حوله، مكتئب الملامح مُتَغَضّن الوجه، ثم يقول: "مع ذلك أعترف أنني عاجز عن الإنفصال عنها... فلقد احبّتني وأحببتها أنا أيضا ومعا عشنا في البداية حياة سعيدة هانئة لا ينغصها شيء. آه يا لقسوة الزمن! إنه لا يترك شيئا قائم الذات. وإلا كيف تتحول زوجتي، تلك التي كانت حين تعرفت عليها، واحدة من أجمل نساء هذه المدينة إلى امرأة شمطاء يابسة؟! أوف... أنا أيضا سوف أشيخ. وسوف أفقد شعري وأسناني وقوتي، وأصبح بشعا مخيفا تتحاشى النساء الجميلات النظر أو التحدث إلي حتى ولَوْ شفقة. والعام الماضي حين زرت والدي، أصبت بالرعب ذلك أنني رأيت صورتي فيه لما أتجاوز السبعين مثله. آوه... لا أريد ذلك. أفضل أن أموت حينا وبأي طريقة حتى لا أكون على تلك الصورة المنفرة. والسؤال الغريب الذي يحيرني الآن هو كيف تجاوزت الأربعين بمثل هذه السرعة. بالأمس فقط كنت صبيا هزيل الجسد، ألعب مع أندادي في حي "بن مسيك" بالدار البيضاء. لقد أمضيت طفولة بائسة وسط الطين والمزابل والمجاري النتنة وأكواخ الطوب والقصدير غير أن كل ذلك يبدو لي الآن فاتنا إلى أبعد حدود الفتنة ومغريا إلى أبعد حدود الإغراء. وأنا لا أتصور أن هناك سعادة يمكن أن تضاهي تلك السعادة التي سوف تغمرني لو أن الزمان يعود إلى الوراء لأعيش ساعة واحدة فقط من طفولتي الشقية في ذلك الحي الأكثر بؤسا في الدار البيضاء."...

ثُمّ دخلت تلك السحاقية الشمطاء جانين، وكانت لها رائحة الكلاب المبللة. وفي

الحين راحت تتذمر. .الرجال خنازير. .ولا بد من خصيهم بأقصى السرعة لكي يصبح العالم مُحتَمَلاً... جارتها امرأة لا تحتمل.. تتزين طول الوقت لعشيق لا يأتيها إلاّ مرة في الشهر... صديقتها أستريد اختفت منذ أشهر ولا أثر لها في المدينة حتى هذه الساعة... ترى أين ذهبت؟ طول الليل وهي تتقلب وتدخن.. والطبيب قال لها بأنها في صحة جيدة. فقط مهمومة وقلقة... صحيح أنها كذلك. .ولكن ماذا تفعل؟ عليها أن تعثر على أستريد... آه أستريد!! ثم ألقت برأسها على الطاولة وأخذت تبكي بصوت عال. استدارت الرؤوس الصلعاء، وحملقت فيها وفيّ العيون المحمرة المتعبة. أكيد أنهم يفكرون جميعا أني وراء هذه المصيبة، بل لعلهم يعتقدون أنني سبب كل هذه الكآبة التي تخنق المدينة وأهلها وكل هذه الأمطار السوداء التي تنزل مدراراً منذ أيام عدة. فليكن. ما عاد يَعْنِيني من أمرهم شيئا. طلبت كونياكاً. شربته في جرعة واحدة... آه روزالي مسترخية على الشرفة... والمدينة تحت القمر الكبير سكرانة بروائح الفل والياسمين. وهناك بعيداً تتلامع أضواء البواخر في الفضاء البنفسجي اللامتناهي. ومن راديو الجيران يرتفع صوت مغنية تتأوه بين كل كلمة وكلمة. ويظل صوتها يترنح متعبا حتى تحزن روزالي وتدمع عيناها. ثم أحببت أنا أيضا ذلك الصوت الأبح المبلل بدموع روزالي، وأصبحت أشتهي سماعه في الليل... تحت القمر الناعس على كتف البَحْرين...

– هل عندك سيجارة؟ قالت جانين.

– لا.. قلت.

– هل تدعوني إلى بيرة؟

طلبت لها ولي بيرة وأغمضت عيني محاولا استحضار لحظات حبي لروزالي، غير أن جانين بدأت تثرثر من جديد... هي أيضا تريد الرحيل للتو إلى بلد فيه البحر والشمس، وترغب في أن تنام عارية تماما على الرمل... وأستريد ربما تكون قد فرت إلى واحدة من تلك البلدان الدافئة التي تعشقها... أكيد أنها فعلت ذلك... وإلاّ ما سرّ اختفائها كل هذه المدة الطويلة... آه... الدفء والبحر وأستريد... ولكن الرجال هناك قذرون وأجلاف... واندريا روت أنهم كانوا يعاكسونها طول الوقت، ويتحلقون حولها مثل الذباب كلّما نزلت إلى الشاطئ... نعم... مثل الذباب... الأجلاف... لا لن تذهب... لا بد من خصي كل الرجال... ولكن أستريد...

لا بد أن روزالي تنشر الآن الغسيل على السطح، ملقية بين الحين والحين نظرة

على شارع "الميناء" المزدحم بعربات- الخضارين - وبالشحّانين والقوادين ومروّجي الحشيش والنساء ذوات الجلابيات الطويلة الزاهية الألوان. وحين تنتهي من ذلك، تذهب إلى الناحية الغربية من سطح البنسيون وتتحدث طويلا إلى زمردة صاحبة الصدر الكبير والصوت الرجالي. وكم كانت تثيرني روزالي حين ترمي بضحكاتها مثل اللآلي على سطوح المدينة كلها. وحين تنزل من السطح ادفعها إلى غرفتي وأشرع في رفع فستانها الحريري الأحمر، غير أنها كانت تصدني عنها بهدوء، ثم تهمس لي: "في الليل." وأظل أنا على لهب شهوتي حتى الليل. اه كم كانت تلهبني كلمة "الليل" حين تنساب حريرية من بين شفتي روزالي المكتنزتين. وتلك زمردة بالوشم الأخضر الغريب في جبهتها العريضة، وبالحناء التي كانت تصبغ قدميها ويديها طول الوقت، وبخلخالها الفضي ذي الرنة الآسرة، وبلون بشرتها الضارب للسواد، كانت تثيرني هي أيضا، غير أن صوتها لم يكن يروق لي كثيرا. مع ذلك كانت تعجبني قصصها اللذيذة عن البربر وعن امرأة جميلة منهم تعرف بزينب النفزاوية "... **وكان شيوخ البربر وامرائهم يخطبون زينب النفزاوية فتمتنع لهم وتقول: "لا يتزوجني إلاّ من يحكم المغرب كله"، فكانوا يرمونها بالحمق، وكانت لها اخبار مستطرفة غريبة كمثل اخبار الكهنة. فالبعض يقول إنّ الجن يكلمها، والبعض يقول إنها ساحرة والبعض الآخر يقول إنها كاهنة. فلما علم بجمالها امير له مهابة كبيرة في بلاد البربر كله، خطبها وتزوجها فوعدته بمال كثير تخرجه له، ثم ادخلته في دار تحت الأرض، معصب العينين، وازالت العصابة ففتح عينيه فرأى بيوتا فيها ذهب كثير وفضة وجواهر وياقوت، فعجب من ذلك كل العجب، وعندئذ قالت له زينب: "هذا كل مالك ومتاعك اعطاك الله إياه على يدي فصرفته الآن عليك." وكانت رؤيته لذلك بضوء الشمع، ثم اخرجته معصب العينين من ذلك الموضع كما ادخلته فيه فلا علم له من اين دخل، ولا من اين خرج. وكانت زينب النفزاوية موسومة بالجمال والمال. وكان لها محاسن وخصال محمودة وروية مستطرفة فقيل، والله اعلم، إن الجن كانت تخدمها وقيلت عنها اخبار عجيبة اخرى كثيرة.** "... وذات ظهيرة، وأنا أغادر البنسيون وجدتُ زمردة أمامي وكأنها كانت تنتظرني. ابتسمت لي، ثم أخرجت تفاحة من صدرها وأعطتها لي. التهب جسدي وتسارعت دقات قلبي لمّا لامست يدي يدها.

بعدئذ قالت لي روزالي بأن زمردة تشتهيني هي أيضا...

– يبدو أنك مهموم مثلي... أليس كذلك؟ قالت جانين.

تفحّصتها جيّدا. كانت لها بشاعة تلك الكائنات التي يتمنى المرء ألاّ يراها لا في صباحه و لا في مسائه. لا في عرسه ولا في جنازته. عينان مثل عيني عظاية. أنف ضخم يابس يبدو شبيها بقطعة من اللفت المتعفنة. شفتان مشققتان. وجه له لون أوراق التواليت. لا هو بالأبيض و لا هو بالرمادي. وإنما هو بين بين. ذلك اللون الذي يوحي بالغثيان والغياب...

– لا... أبدا... لست مهموما على الإطلاق. قلت بهدوء الواثق من نفسه.

– إذن أنت سعيد... قالت وهي تدني رأسها مني.

– نعم... أنا سعيد... سعيد جدّا... قلت.

سحبت رأسها إلى الوراء بحركة سريعة متشنجة وكأنها تتفادى صفعة منّي. وبأصابعها التي صفرها الإدمان على التدخين، فركت عينيها، ثم راحت تتأملني بدهشة. بعد ذلك أخذت تخبط بيديها الإثنتين على الطاولة، وهي تضحك عاليا:

– انظروا إلى هذا الرجل... يقول أنه سعيد... هه... هه... هه. .يا إلهي انظروا إليه جيّدا... هل ترون في وجهه أثر للسعادة... هه... هه... هه... استداروا جميعهم وحملقوا فيّ. أخرج مصطفى المغربي رأسه من بين صفحات الجريدة وبدا وكأنه مستعدّ للإنقضاض عليّ. أمّا جوزيفين فقد ملأت كأس ذلك الوغد توماس الذي يبول دائما في الشارع آخر الليل، وهمست له بشيء ما. وذلك الماكر توماس الذي حاول الإنتحار مرتين بسبب حبه الخائب لها يحاول أن يحافظ على تلك اللامبالاة المقيتة التي تضاعف من حقدي عليه، وتجعلني راغبا في أن أفرغ عشر رصاصات أو أكثر في رأسه الأصلع تماما مثلما كنت أتمنى أن أفعل ذلك مع الوغد جمعة... الحقير... الخنزير... أنا أعرف أنه يهتمّ جدّا بكل ما يتعلق بي منذ أن لكمته تلك اللكمة الشهيرة التي أسقطته على الرصيف في ليلة ثلج، وأعرف أيضا أنه يستعذب اللحظات التي أكون فيها في حالة شديدة من الحرج والضيق. إنه عدوي اللدود دونما شك. وتلك الوقحة اللعوب صاحبة المؤخرة الضخمة جوزيفين لا بد أنها تسلّيه من حين لآخر بحكايات عنيّ تنسيه مرارة حبه الفاشل لها. ويبدو لي الآن أنّه من الأفضل لي أن أستعرض شريطا من الذكريات القديمة. ليس مهما أن تكون هذه الذكريات جميلة أم سيئة. المهم هو أن أبتعد عن هذا الحاضر المليء

بالعيون الحاقدة، والوجوه الساخره... كيف جئت إلى هذه المدينة؟ بالصدفة. نعم بالصدفة. أذكر أني كنت جالسا في مطعم صغير تفوح منه رائحة السمك والنبيذ في حي "البيازين" بغرناطة، بينما كان الليل الربيعي يهبط دافئا بنفسجيا. وشيئا فشيئا امتلأت ساحة "فاطمة" بالناس. ومن المقاهي والمطاعم المحيطة بها، ارتفع صخب الموسيقى وضجيج الزبائن. وفي الهواء فاحت رائحة تلك الأندلس المرحة والحزينة في آن والتي طالما تغنّى بها لوركا قبل أن يقتلوه في الفجر تحت شجرة الزيتون. وكان الفجر بلون قمصان القتلة. ولا بد أن الشاعر وهو يهوي على الأرض الباردة مضرجا بدمائه تذكر كل ذلك الضوء الذي يفيض من قصائده، ومن الأندلس التي أحبها كما لم يحبها أحد. آه لوركا! كنت في الثامنة عشر من عمري عندما عثرت على مجموعة من أشعاره في مكتبة قديمة في مدينة "قاف" حيث ولدت. وأنا أقرأها، شعرت أن العالم يزداد رحابة وجمالا من حولي. ثم راحت تتولّد في داخلي مشاعر وأحاسيس لم أألفها من قبل، وبدأت أكتشف عوالم وأشياء وروائح وأصواتا ووجوها لم أكن قد انتبهت لوجودها حتى ذلك الحين: الفجر العسلي على الهضاب الجرداء. المسارب البيضاء الصغيرة الضائعة في البراري التي تحيط بمدينة "قاف." أزهار الدفلى في الأودية الجافة الموحشة. الآبار المهجورة. رحيل الغرانيق البطيء في باتجاه الجنوب. روائح الحقول في نيسان. الأبواب القديمة الباهتة الألوان. أضواء اليعاسيب في ليالي أغسطس الحارة. ليالي ديسمبر الزرقاء. ارتعاشات النجوم قبل الإنطفاء. أغاني الرعاة تحت أمطار الخريف. خطوط الوشم الخضراء على وجوه البدويات. النباتات الصغيرة بين الصخور أو في شقوق الحيطان الطينية. همهمات العوانس والثكالى وهن يطفن حول ضريح أبي زمعة البلوي... كنت جالسا إذن في ذلك المطعم الأندلسي الصغير حين قررت أن أرحل في ذات الليلة إلى مكان آخر. ليس لأني لم أطق غرناطة، وإنما لأنه في ذلك الوقت كان التيه بين المدن يستهويني. فبعد سنوات طويلة أمضيتُها محروماً من العمل ومن الجوار، انتابتني حمى السفر. وهكذا رحت أتنقل بين مدن الشمال بدون تخطيط. نمْتُ في المحطات والحدائق العامة. عرفتُ الجوع والخصاصة. مشيتُ بلا معطَف تحت الثلوج المتهاطلة بغزارة. دخلتُ مدناً في الليل وليس في جيبي إلاّ ما يسدّ الرمق. مع ذلك كنتُ سعيداً. وكانت سعادتي هذه تزدادُ اتساعاً وتألقاً حيث أنتبه إلى أني أصبحتُ أنعم بالحرية التي طالما حرمت

منها في ذلك الوطن الذي هجرته غير آسف. وطن لو كان بوسع حاكمه العجوز أن يحرم الناس من الهواء لفعل ذلك بأقصى سرعة، لأن أمنيته الوحيدة هي أن يحكم بلداً خالياً إلاّ منه ومن مقابر ضحاياه. وكان في نيّتي أن أذهبَ إلى فيينا، غير أني عدلت عن ذلك في اللحظة الأخيرة، وتحديداً عندما وقفتُ أمام شباك التذاكر، وجئتُ إلى هذه المدينة، ربما لأني كنتُ أريد أن أكتب تحقيقاً لتلك المجلة المهاجرة التي بدأت أتعامل معها، عن ملك بافاري غريب الأطوار حَكَمَهَا في القرن الماضي. وبينما كان القطارُ يجتاز نهر "الراين" تذكرت حكايات عمار، أطرف رجل في حيّنا عن الحرب والألمان. وقد أمضى عمار أربع سنوات أسيراً في برّ الألمان لم يتمكن خلالها من أن يرسل ولو رسالة واحدة إلى أهله، حتى ظنوا أنه ماتَ ونسوه. وكانت هنية الجميلة التي خطبَها قبل تجنيده ببضعة أشهر، تستعد للزواج من فتى آخر من الحي المجاور لحيّنا، لما ظهر ذات عشية فاترة من عشايا خريف بلا مطر. وأخوه المولدي الذي كان أول من رآه فرّ هارباً لأنه اعتقد أنه بعث من القبر. ولم يكن عمار يمل من ترديد الحكايات عن سنوات أسره الطويلة المرة. ولم يكن أهل حيّنا يملّون من سماعها. كان يتربّع. يضع سيجارة بين شفتيه، واخرى خلف أذُنه، ثم يشرعُ في الحديث وعيناه نصف مغمضتان، كما لو أنه يغني أغنية حزينةً أو يردد صلاةً في السرّ.." دامت المعركة في بلاد البلجيك وسط غابة مظلمة يومين كاملين... بعدها استسلمت كتيبتُنا بالكامل. ساقنا الألمان مثل النعاج إلى بلادهم تحت الثلج. كثيرون منا ماتوا في الطريق بسبب الجوع والبرد والتعب، أما أنا فقد نجوتُ لأنني لم أكن أنقطع عن ترديد آية الكرسي... بعد أسبوع من السير وضعنا في معسكر تحيط به الأسلاكُ الشائكة. من حولنا لم نكن نرى غير الغابات والجبال المكسوة بالثلوج. كنّا ننامُ هكذا على الأرض رغم البرد القاتل. وطول النهار كنا نكلف بالقيام بأعمال مختلفة. فأنا مثلاً كنتُ مكلفاً بتقشير البطاطا من الساعة السابعة صباحاً إلى الساعة السادسة مساءً مع استراحة واحدة، ولمدة نصف ساعة فقط. وكان معي أسيرٌ زنجيّ أظنه من السينغال. مرة جاع المسكينُ جوعاً شديداً فأخذ يلتهم البطاطا هكذا نيئةً. وعندما انتبه إليه الجنود الألمان ضربوه ضرباً مبرّحاً"... يصمت عمار قليلاً ثم يتابعُ: "أحداث أخرى غريبة ومرعبة جدّت في تلك الأيام العصيبة... مرة عثر أربعة من الأسرى الفرنسيين على خنّوص في أطراف الغابة المجاورة للمعسكر. وكانوا قد ذهبوا إلى هناك للقيام بعمل ما. ومن

فرط الجوع، أكل هؤلاء الخنّوص نيئاً في غفلة من الحراس الألمان... نعم أكلوا الخنزير الذي حرمه الله نيئاً أمامي أنا المسلمُ الذي لم يغفل عن دينه ولو لحظة واحدة!" يتنهد عمار ثمّ يضيفُ: "إيه يا رجال... أحيانا كنتُ أفكر أن الموت أهونُ عليّ من تلك الحياة. غير أني حين أتذكر هنية، ألعنُ الشيطان الرجيم وأعود إلى تقشير البطاطا غير عابئ بالبرد والعذاب وببنادق الألمان المصوبّة إلى رأسي "... ظلت حكايات عمار تتوارد في ذهني إلى أن غرقتُ في النوم. أثناء ذلك، رأيتُني أسير باتجاه غابة مظلمة تحت سماء ملبدة بالغيوم. وحيداً كنتُ أسيرُ في درب صغير مثل تلك الدروب التي تشق البراري المحيطة بمدينة "قاف." لم أكن خائفاً ولا مطمئنّ البال. والغابة أمامي كانت تزدادُ وحشةً وظلمة كلما ازددتُ اقتراباً منها. والسماء كانت كأنها من قطران. بين الحين والحين دويّ رعود وزئير أسود غاضبة. وأنا لم أكن خائفاً ولا مطمئنّ البال. كل شيء من حولي يشير إلى أني في مكان غريب لم تطأه قدمايَ قبل ذلك أبداً. وقد فكرتُ أكثر من مرة أن أعود على عقبي، غير أنّ قوة مغناطيسية كانت تجذبني نحو الغابة بإصرار. وها أنا الآن عند مدخل الغابة. فجأة انقشعت السحبُ ولم يتبقّ منها غير قطع بيضاء، متفرقة هنا وهناك. وإذا الغابة تبدو وكأنها في عز الخريف. الأخضر الباهت يختلط بالأصهب وبالأمغر وبالأصفر الشاحب وبالبني الغامق وبالأحمر الداكن. ألوان البهجة الأخيرة قبل الأفول. وثمة نورٌ كأنه نور ساعة الأصيل، يداعبُ هامات الأشجار. من داخل الغابة تأتي موسيقى هادئةٌ ناعمة، كأنها خفق أجنحة طيور الخطاف محلقة على وجه الأرض. والآن، أنا مرتاح البال، هانئ النفس والموسيقى القادمة من داخل الغابة تلهب رغبتي في السعي إلى الأمام.

ولجت الغابة. مشيت فيها بخطى وئيدة. كانت الأرض مغطاة بالأوراق الميتة، والهواء معطراً برائحة الخريف النفاذة. عقب كل خطوة أخطوها، كانت الموسيقى تزداد سحراً وجاذبيةً. سرتُ وقتا لا أستطيع تحديده، ذلك أن جمال الغابة الأخّاذ، وسحر الموسيقى أغرقاني في تلك البهجة التي تصيب الإنسان أمام الأشياء الفاتنة حتى أنه ينسى نفسه والزمن. وكنتُ لا زلتُ على تلك الحالة من الغبطة والذهول، لما انتصب أمامي قصر فخمٌ، شرقيّ الطراز، شديد الشبه بقصر الحمراء في غرناطة. منه كانت تنبعث تلك الموسيقى الآسرة. حول القصر، حديقة فسيحة، فيحاء كأنها صورة طبق الأصل من حديقة "جنة العريف." توقفت

عن السير. ظللتُ أنصت إلى الموسيقى وبي إحساس أنني أتبخر في الهواء من فرط الوجد والطرب. ثم أخذت الموسيقى تخفت شيئا فشيئا إلى أن خمدت تماما. عندئذ سمعت حولي وشوشات وضحكات خافتة. التفت فإذا بي أمام صف من صبايا كأنهن من نور يرتدين فساتين بيضاء تكشف مفاتنهن. باسمة تقدمت مني الواقفة وسط الصف. وبعد أن انحنت أمامي تقديرا وإجلالا، علقت على صدري وردة ثم خاطبتني بصوت عذب وبلغتي الأم: "يسرّني باسم صاحباتي أن أبلغك أنك الليلة ضيف على أميرنا المبجل. ونحن كلفنا باستقبالك وبمرافقتك إلى مجلسه الأسبوعي في القاعة الفارسية. تعال معنا وكن على يقين أن أميرنا المبجّل سوف يكون جد سعيد بلقائك!" متأملا وجود الصبايا المشرقة بالحب والسعادة، وأجسادهن الرشيقة المثيرة، تساءلت وأنا في حيرة من أمري: "هل أنا في المنام أم في اليقظة؟!"

- "بل أنت في اليقظة!" أجابتني الفتاة.

استغربت أن تكون تلك الفتاة قادرة أن تعرف ما يدور في ذهني بمثل تلك السرعة الفائقة، فضاعف هذا الأمر من حيرتي وارتباكي وتوجّسي غير أن الفتاة لم تمهلني وسارعت بأن أمسكت بيدي لتقودني برفق محفوفة بصاحباتها نحو القصر، مثل أم تقود صبيها إلى المدرسة في اليوم الأول لدخوله إليها. عند المدخل أدّى جنود يرتدون أزياء زاهية الألوان التحية العسكرية. بعدها سارت بي الصبايا عبر ممرّ طويل، علقت على جانبيه مرايا من الطراز الرفيع ولوحات فنية بديعة (مشاهد صيد. نساء في مخادعهن نصف عاريات. غروب الشمس على بحيرة وسط الجبال. ذئاب تلتهم فريسة. ملك شاب محاط بحاشيته...) ثم توقفت الصبايا عن السير. بلطف شديد، دفعت بي تلك الفتاة التي كانت ماسكة بيدي إلى الأمام قائلة: "ها أنت الآن في حضرة أميرنا المبجل!" وفي الحين انحنت وانحنت معها صاحباتها. نظرت أنا فإذا بي وسط قاعة فسيحة فرشت بالزرابي الفارسية، وزينت جدرانها بلوحات تجسد مشاهد من بلاد الشرق (قوافل إبل تعبر الصحراء. طلوع الشمس عند الأهرامات. واحات نخيل. نساء محجبات.)... في الأركان قناديل وشموع هائلة الحجم. أمامي كان يجلس متربعا شاب في حوالي العشرين من عمره غاية في الجمال. وكان يضع على رأسه عمامة، ويرتدي لباسا كمثل ذلك الذي كان يرتديه أمراء الشرق في الزمن الغابر. على يمينه وشماله شبان

في مثل سنه تقريبا ومثله كانوا بالعمامة وباللباس الشرقي." هل أنا في المنام أم في اليقظة؟! تساءلت أنا مرة أخرى. ومرة أخرى همست لي الفتاة: "أنت في اليقظة. تأكد من ذلك وكفّ عن السؤال وإلاّ أغضبت أميرنا المبجل!" ثم بصوت عال اردفت: "أميرنا المبجل لا يتكلم لغتكم غير أنه يعشق شعراء الصحراء القدامى. وهو اليوم يرغب وضيوفه الكرام أيضا في سماع بعض من قصائد هؤلاء.!" ارتحت إذْ أنّ طلب الأمير لم يكن عسيرا. وقلت وأنا جدّ مسرور بسماع صوتي عقب صمت استمر طويلا: "يسعدني أن ألبّي طلب الأمير المبجل وأشكره جزيل الشكر على هذا التكريم الذي خصّني به وخصّ به شعراءنا القدامى." ترجمت الفتاة ما قلته فبدا البشر على وجه الأمير وعلى وجوه المحيطين به. وبعد أن فكرت قليلا، ارتأيت أن أفضل قصيدة يمكن أن أقرأها في ذلك المجلس هي قصيدة امرؤ القيس التي يقول في مطلعها... آ... ماذا يقول... ماذا يقول ليس مهما قلت. وقد تكون قصيدة طرفة بن العبد أفضل منها. ولكن هاهي أيضا تتبخر من ذهني. يا إلهي! ما العمل؟! آ... لم لا أقرأ عليهم تلك القصيدة التي تصور عالم الصحراء أروع تصوير والتي فيها يقول صاحبها... ماذا يقول؟ ماذا يقول؟ يا للمصيبة! ما الذي حدث يا ترى؟! هل فقدت الذاكرة؟! استبد بي الخجل والإرتباك حتى لم أعد أعرف ما أصنع. التفت إلى الفتاة طالبا النجدة غير أن الفتاة حدجتني بنظرة قاسية وهمست وهي محتدة الملامح: "هيا انطلق وإلاّ فإن العاقبة سوف تكون وخيمة!" ولكن كيف لي أن أنطلق وقد نسيت في كل تلك اللحظات كل ما كنت قد حفظته من شعر القدماء منذ سن المراهقة؟ ليس ذلك فقط وإنما بدا لي أيضا أنني أصبحت أبكم وأصم أيضا إذ أني أرى شفاه الأمير وكل الناس في القاعة تتحرك، لكني لا أسمع شيئا. ثم أظلمت الدنيا من حولي فلم أعد أرى غير كتل سوداء تعلو وتنخفض مثل أمواج البحر ساعة العاصفة. من وسط تلك الكتل ارتفعت ضحكات ساخرة، وظلت ترتفع وترتفع إلى أن لم أعد أسمع غيرها. بعد حين انقشعت الظلمة، وإذا بالقاعة الفارسية وجميع من فيها قد اختفوا. وها أنا الآن أقف في العراء البارد. غير بعيد عني، وقف جمع من الناس كانوا يضحكون ساخرين مشيرين إلى أسفلي الذي تبيّن لي أنه كان عاريا. تمعنت فيهم فإذا جميعهم من أهل حيّنا في مدينة "قاف": الجندي عمار وخليفة الخباز وعزوز تاجر "الروبافيكيا" والعم محمود الحلاق الذي ختنني عندما كنت في سن الخامسة

ومباركة الخزافة وجارتنا خدوجه وبناتها الخمس البائرات وزوجها عثمان الأدرد الفم وسليمان النادل الذي حُكِمَ عليه بالمؤبد بعد أن قتل زوجته صفيّة الجميلة غيرة وآخرون... غلبني القهر والإحباط فانخرطت في البكاء بينما ظل أهل الحي يضحكون ساخرين غير عائبين بي...

– تقول أنك سعيد... هيه... هيه... هاه هوه... يا إلهي. .أكيد أنك خرجت دون أن تنظر إلى نفسك في المرآة... هيه..هاه هاه. .يا إلهي أكيد أنه لم ينظر إلى وجهه في المرآة قبل أن يخرج... هاه هاه هاه...

الفاجرة! عليها أن تكف حينا وإلاّ رميتها بهذا الكرسي. وقد يكون من الحكمة أن أترك هذا المكان حينا حتى لا أرتكب جريمة أو خطأ أظلّ نادما عليه حتى آخر حياتي. ولكنهم سيفرحون جدّا إذا ما أنا فعلت ذلك وسيمضون ما تبقى من هذا النهار الأغبش الكئيب وهم يشرّحون جثتي الغائبة بسكاكينهم المشحونة جيّدا. لا. لن أفعل ذلك. أبدا لن أفعله. سوف أتحداهم بصمتي حتى يداهمهم من جديد ذلك الغمّ الذي كان يطفح من سحناتهم الخبيثة قبل حين. لن أخرج إذن. لكن ها ذلك الكلب الأجرب كلاوس ذو الذقن المتدلّي مثل ضرع ماعز عجوز قد شرع يقهقه عاليا هو أيضا، وبدا فمه واسعا وقذرا حتى أنه أثار شهيتي في أن أفرغ فيه سبع رصاصات. نعم سبع رصاصات بعدد أيام الأسبوع حتى يخرس نهائيا ويُريحَ المدينة وأهلها من ضجيجه وشره. هو أيضا يتسلى كثيرا عندما أكون في وضع سيىء كهذا. أعلم ذلك علْمَ اليقين. وقد بلغني أنه يروّج حولي أكاذيب كثيرة غير أنني لم أتمكن إلى حدّ هذا الوقت من الحصول على أيّة حجة تدينه بصورة قاطعة. ويوم أعثر على هذه الحجة الدامغة، سوف ألقّنه درسا لن ينساه أبد الدهر. سوف أحطم ما تبقى من أسنانه المتآكلة حتى يكفّ نهائيا عن تلك القهقهة التي غالبا ما تسببّ لي ضيقا في التنفس. وقد تجهز عليّ ذات يوم. ويبدو أن العدوى تسربت بسرعة إلى البقية فإذا بهم جميعا في حالة هستيرية من الفرح والبهجة..هه... هه..هيه..هيه... هوه هوه هاه هاه هاه... ومصطفى المغربي هناك في الركن يتلذّذ بهذه المذبحة التي تتمّ في واضحة النهار وعلى مرأى ومسمع منه. ابن القحبة! نسي فضائلي في آخر الليل. لكن من الأحسن أن أنساه وأن أنساهم وأعود إلى ذكرياتي لأحتمي بها من كل هذا الهراء ومن كل هذا الشرّ...

بذلك الحلم الغريب دخلت إلى هذه المدينة الرابضة تحت أقدام جبال الألب.

وكان في نيتي أن أمكث فيها أسبوعا أو أسبوعين على أقصى تقدير ثم أواصل تيهي بين المدن. غير أن حياة ذلك الملك البافاري الشاب الغريب الأطوار شدتني فإذا بي أجد نفسي منشغلا بها كما لم أنشغل بأي موضوع آخر قبلها. وهكذا رحت أتنقل بين قصوره المنتشرة في الغابات الداكنة، وأقلب في الكتب بحثا عن مزيد من التفاصيل والأسرار. والملاحظات التي دونتها بخصوص ذلك تعدّت المائة صفحة حتى أنني أخذت أفكر جدّيا في تأليف كتاب عن الملك البكر. "الملك القمر." هكذا كانوا يسمّونه. يكفي هذا لكي يسرح الخيال بعيدا. وقد مات هذا الملك وهو في عز الشباب ميتة غريبة لم تنكشف أسبابها حتى هذه الساعة.وكان أجمل ملك في أوروبا في النصف الثاني من القرن الماضي. من عاداته المفضلة أنه كان يتناول وجباته تحت خيمة من الحرير الأزرق مزيّنة بالزهور، أو هو يمضي الليل بطوله متجوّلا في بحيرة اصطناعية، بين طيور التمّ والنيلوفر. في الماء يلمع قوس قزح، أو ينعكس ضوء القمر. ومن بعيد تأتي موسيقى سماوية. وكانت قصوره مليئة بالمرايا الهائلة الحجم، وبالذهب وبطيور ونباتات كان يأتي بها من البلدان الحارة. والشيء الذي ضاعف من اهتمامي به هو أنني وجدته شبيها بملك شرقي قديم كان ولا يزال الوحيد الذي يحظى بإعجابي وتقديري بين ملوك الشرق جميعا. الأحياء منهم والأموات. وقد كان هذا الملك الذي كان شاعرا ايضا، يعشق الفن مثل الملك البافاري الشاب عشقا لا مثيل ولا حدود له. وفي كل ليلة، كان يحيط نفسه بالمغنين والمغنيات، ويظل يشرب على أنغام أصواتهم حتى طلوع الفجر. وكان يقول إن الغناء أحبّ إليه من كل لذة، وأشهى إليه من الماء البارد إلى ذي الغلّة. ومن فرط إعجابه به سمّى أحد المغنين "جامع لذتي." وكان هذا حال الملك البافاري الشاب مع أشهر موسيقي في عصره. وكلا الملكين تحديا الأخلاق والدين. فقد مزق الملك الشرقي المصحف. ولأنه كان سكران، فإنه ألبس جارية ثيابه وأرسلها لتخطب مكانه في صلاة الجمعة. وعاش الملك البافاري الشاب حياة خليعة فاسقة قد تكون سبب ميتته الغامضة. وثمه أمر آخر يلتقي عنده الملكان وهو أن كل واحد منهما كان يمقت السلطة، ولا يكاد يعبأ بها إلاّ حين تكون منسجمة تماما مع رغباته وملذاته. وقد عاش الملك الشرقي بين أصحابه وندمائه يشرب ويقول الشعر ولا يسأل عن أمر الرعية إلاّ فيما ندر، حتى إذا حاصروه ليفتكوا المُلك منه، أغلق باب مجلسه وراح يشرب مُرَدِّداً:

دعوا لي سليمى والصلاة وقَيْنَـــةً
وكأسا ألا حَسْبِي بذلك مَالاً
خذوا ملككم لا ثبت الله ملككم
ثباتا يساوي ما حييت عقالا

ثم دعا جامع لذته، وطلب منه أن يغني له، فظل هذا يغني له وهو يشرب إلى أن دخلوا عليه واجتزوا رأسه. وكان هذا حال الملك البافاري الشاب. فعندما كان ملوك أوروبا يمدّون السكك الحديدية، ويرسلون جيوشهم لاحتلال بلدان بعيدة، كان هو المفتون بالفن حدّ الجنون، غارقا في الملذات، مستسلما لرغباته وأحلامه التي لا بداية لها ولا نهاية، مديرا ظهره لجاه السلطة ونفوذها...

بقيت أبحث في حياة ذلك الملك البافاري الشاب، وأحلم على ضفاف البحيرات، إلى أن جاء عيد البيرة فأجلت سفري حتى أستمتع بهذا العيد الوثني في عصر انتفت منه الوثنية، أو تكاد. بعدها أحببت كارلا الهولاندية التي عذّبتني حتى أشرفت على السقوط في هاوية الجنون...

وقف أمامي موابو. في وجهه كل آلام أفريقيا السوداء المعذبة والمقهورة والمنفية. مدّ لي مجلّة فرنسية:

– "ثمة شيء هنا أعتقد بل أنا متأكد من أنه يهمّك ويسلّيك في نفس الوقت" قال ثم عاد إلى مكانه، منحني الظهر قليلا كأنما ليحتمي من ضربات سوط تأتيه من الخلف. موابو مشدود إلى بلاده، بل إلى جميع بلدان قارته بشكل يومي تقريبا، ودائما يتابع ما يجدّ هناك من أحداث كبيرة كانت أم صغيرة. عكسي أنا تماما. أغلب وقته يمضيه في تصفح المجلات والجرائد وفي مشاهدة التليفزيون، وفي الإستماع إلى الإذاعات البعيدة بحثا عن معلومات وعن أخبار جديدة. بإمكانه أن يحدثك بالتفصيل عن أشكال أنظمة الحكم في جميع أنحاء القارة من الدار البيضاء حتى كاب تاون، ومن نواق الشط حتى ما جاديشو، وأن يسرد عليك أسماء المساجين السياسيين وعناوين الكتب التي تمّ منعها، وأن ينقل إليك بدقة الكاميرا أطوار مظاهرة شنها طلبة جامعة باماكو أو ليبروفيل أو لوزاكا أو مدينة أخرى لم تكن قد سمعت بها قط حتى ذلك الحين. أعظم سعادة بالنسبة له هو أن تطلب منه أن يحدثك عن قارته. حين توجّه له سؤالا واحداً، سؤالاً واحداً فقط حول هذا الموضوع، يشرق وجهه إشراقة وجوه الحكماء عند عثورهم على الحقيقة،

وينخرط في الحديث، مثبّتا عليك عينيه مثلما يفعل الصياد مع الفريسة لحظة رميها بالرصاص. وطبعا هو يستمر على هذا الوضع ساعات طويلة. فإن أنت تثاءبت أوتنحنحت أو أتيت بأيّ حركة أخرى تدلّ على ملل ما، سارع هو بوضع يده على كتفك قائلا لك بنبرة لوم واضحة:

- "يا أخي... الناس هناك يجوعون ويضربون ويهانون ويموتون يوميًا بالآلاف وأنت لا تقدر أن تنصت إليّ ولو دقيقة؟!" وتُحرج أنت بطبيعة الحال. وتحاول أن تصلح الأمر قائلا: "يا صديقي.. كل ما تحكيه مهمّ وممتع للغاية... لكن."... ويقاطعك هو في الحين قائلا: "دعني أكمل أوّلا... بعدها بإمكانك أن تقول ما تريد."... ثم ينخرط في الحديث من جديد غير عابئ بشيء. الجميع هنا أوقعهم في فَخّه، بما في ذلك أنا. أنا الذي في كلامي معه، لا أكاد أضيف شيئا على كلمتَيْ صباح الخير ومساء الخير. مع ذلك هو لا يزال يتوسّم فيّ الخير، ويعطيني المجلات والصحف طمعاً في أن يوقعني في الفخ من جديد. لكن أنا لا أعتقد أنه سيفلح في ذلك إذ أنني اتخذت جميع الإجراءات اللازمة لكي لا يتمكن من العثور على أيّ منفذ يمكن أن يساعده على بلوغ هدفه. مسكين موابو! هو من نفس جيلي، ومن نفس القارة التي أنتمي إليها، غير أننا على طرفي نقيض. فأنا منذ زمن بعيد، كنت قد طلّقت الأماني والأحلام والطموحات، وأصبحت مكتفيا بواقعي الرمادي المرّ المفتوح على أفق خال إلاّ من حبّي لروزالي، أمّا هو فلا يزال يعتقد أن تأسيس الجمهورية الفاضلة على الأرض، وتحديدا على أرض أفريقيا، أمر ممكن! هنيئاً له بهذه اليوطوبيا!

بعد أن تصفحت المجلة الفرنسية، تبيّن لي أن المقال الذي من المؤكد أن موابو يرغب في أن أقرأه، يتعلق بمصير أبناء حاكم أفريقي، كان أونباشيا في الجيش، ثم استولى على السلطة ونصّب نفسه امبراطورا، وصادر جميع مناجم الذهب في بلاده، لتصبح من ضمن أملاكه الخاصة. بعد خلعه اكتشف الناس أنه كان يأمر خدمه بطبخ الأطفال الصغار في مراجل كبيرة، ثم يلتهمهم في حضرة حاشيته. ويقول كاتب المقال إن أبناء وبنات الإمبراطور الخمسة والخمسين يعيشون أوضاعاً مزريةً. فالإبن البكر، طُرد من الشقة المتواضعة التي يسكنها في باريس لعجزه عن تسديد الكراء. والثاني مُدْمنٌ على المخدرات، عثرت عليه الشرطة نائماً على الإسفلت في إحدى محطات الميترو، والثالث حُكِمَ عليه بخمسة عشر سجناً

لمشاركته في سرقة محل للمجوهرات في جينيف. والرابع انتحر يأساً وقنوطا. وصغرى البنات تعمل في محل للبغاء في إحدى العواصم الأفريقية. والتي تكبرها بعامين مصابة بالإيدز. والإبن الأوسط ذهبَ إلى قبر أبيه بعد وفاته بأسبوع واحد فقط وبال عليه لأنه لم يترك له أيّ إرث... هذا أفضل انتقام، قلت، ثم طويتُ المجلة.

من جديد وقفَ أمامي موابو:

– "ما رأيك؟!" سألني وعُثْنُونه يختلج...

– "عظيم!" قلت.

– "ما هو العظيم؟!" سأل موابو.

– "عظيم أن يبول الإبن على قبر والد فاسد وشرّير هكذا "!قلت .

– "هذا صحيح... غير أنه ليس كافياً في نظَري" قال.

– "ليس كافياً؟!" قلت.

– "نعم ليس كافياً... ذلك أن أفضل شيء بالنسبة لي هو أن يذهبَ جميعُ أبناء البلد الذي يحكمه ويبولون على قبره" قال موابو.

كتمتُ أنا ضحكةً، ذلك أني تمثلتُ في الحين الطوفان الهائل الذي سيحدثهُ ملايين الناس حين يبولون على قبر إمبراطورهم الفاسد المخلوع. ثمَّ سارعت بالقول:

– "سيكون هذا حدثاً رائعاً لو تمَّ!"

– "حقاً سيكون حدثا رائعاً، وأنا على يقين بأنه سيحدث ذات يوم"... ثمّ بنبرة زهو جليّة، أردفَ قائلاً": إنّ قارتنا يا عزيزي بدأت تستيقظ. ويوماً ما ستجرفُ كل هؤلاء المستبدين الذين يحكمونها أو تلقي بهم في مزبلة التاريخ... نعم ستفعل ذلك!"

– "أتمنى هذا من كل قلبي!" قلت.

– "لاتتمناهُ... بل عليكَ أن تعمل لكي يتمّ!" ردّ موابو غاضباً

أوف... إن أنا تفوهتُ بكلمة واحدة أخرى، فسوف يلتف الحبل حول رقبتي. لذا من الأفضل أن أضمّ فمي.

– "ماذا تقول؟" صاح موابو.

– "هه... ؟!" (هممت بذلك متصنّعاً عدم سماع ما قال)

– "قلتُ إنه لا يكفي أن تتمناهُ، بل عليكَ أن تعمل لكي يتمّ!"

- .....

- "هل أنتَ موافق على ما قلتُ؟"

حركتُ رأسي موافقاً.

- "طيب أنا سعيدٌ أنكَ قرأتَ المقال، لأنه دليلٌ آخر على أنّ نهاية الطغاة في قارتنا الجميلة أصبح وشيكاً... أليس كذلك؟"

حركتُ رأسي موافقاً. ابتسم موابو:

- "إلى المرة القادمة يا صديقي" قال موابو. ثمّ عاد إلى مكانه وقد خفّف قليلاً من انحناءة ظهره، ربما لأنه تحسّس أكثر من أي وقت مضى إيمانه بالإنتصار الوشيك على أولئك الذين أذاقوه الأمرين عندما كان يحلمُ أن يكون جيفارا القارة السوداء. تنفّستُ الصعداء. ومرة أخرى سرحتُ في سجل ذكرياتي مثلما يسرحُ المرء في حقل من الأشواك...

في ذلك اليوم الديسمبري، قبل عيد الميلاد بقليل، كان الثلج يتهاطلُ بغزارة. ولأني أحبّ التجوال في طقس كهذا، فقد أمضيت ساعتين كاملتين في الحديقة العامة. أثناء العودة دخلت بارا صغيرا في شارع بعمارات قديمة ذات ملامح فلورنسية. ولعل ذلك هو الذي أغراني بالدّخول إلى ذلك البار. حالما وقفت على الكونتوار، وحتى قبل أن أطلب كأسا رأيتها...

هه هه هه هاه هاه هاه هوه هوه هووه... الأوغاد يريدون حرماني حتى من استعراض ذكرياتي المرة. بل الأشدّ مرارة، أكيد أن الشريرة جانين هي التي تحرّضهم على ذلك. وإنْ تواصل الأمر على هذه الصورة، فسوف أختنق وأموت هكذا أمامهم كمداً وغيظا. ماذا عليّ أن أفعل يا ترى؟! هل أطرد جانين من طاولتي؟ اوه.. لا.. لا أبدا. سيكون ذلك خطأ فادحا من جانبي. فعندئذ سيكبر صفّ الأعداء وأصبح أنا وحيداً مثل آخر عين لرجل يمشي باتجاه العميان كما قال ذلك الشاعر الذي انتحر برصاصة في الرأس يأسا من الثورة و من الحب. هل أنا حقا فصيح إلى هذا الحد هذا النهار؟! لكن عليّ أن أنسى الفصاحة والفصحاء والشعر والشعراء، وأن أركز كل اهتمامي وكل حواسي على وضعي المترجرج. هفوة صغيرة واحدة وتتكسر رقبتي، وأروح في داهية. لذا عليّ أن أحتاط وأن أقيس كل خطوة، وأن أزن كل كلمة. ماذاعليّ أن أفعل؟! إدوارد التّيرولي الذي يهبّ إلى نجدتي كلما تعفّن الوضع، غادر قبل نحو نصف ساعة تقريبا. حيّاني بحركة من رأسه

وخرج. هذه هي المرة الأولى التي يحيّيني فيها بهذه الطريقة الباردة. وقد يكون فعل ذلك لأنه مشغول بمعرضه القادم. وعلى أية حال أنا أعرف أنه صعب المراس، ولا يمكن لأحد من كل هؤلاء الأوغاد أن يؤثر عليه، أو أن ينجح في تبديل موقفه مني. لا. أبدا. هذا أمر مستحيل الوقوع. ولكنه خرج قبل نصف ساعة وعليّ الآن أن أتدبر أمري قبل أن أغرق في الزفت. أو الخراء. سواسية. ماذا يتحتّم عليّ أن افعل إذن؟! آ... وجدتها. وجدتها. سأدعو جانين إلى بيرة أخرى. هذه هي الطريقة الوحيدة، بل المثلى لكي أقلم مخالبها ولو قليلا. بل ربما ستصبح وديعة معي إن أنا فعلت ذلك. وديعة؟! لا. هذه من المعجزات السبع. يمكن أن تلد البغلة، ويطير الماعز، ويبعث المسيح حيّا، لكن أن تصبح جانين وديعة معي، فهذا ما لا على امرىء عاقل مثلي أن يضعه في الحسبان وإلاّ دفع الثمن غاليا. مع ذلك سأعزمها على بيرة أخرى فقد أكسب على الأقل حياءها...

– هل تريدين بيرة أخرى؟

حملقت في مدهوشة:

– "يبدو أنك لست سعيدا فقط هذا اليوم وإنما غنيّ وكريم أيضا!" قالت.

صفقت طالبا لها بيرة فجاءت بها الجرسونة على عجل. ابتسمت لها غير أنها ظلت مكشرة. الفاجرة. إنها لا تقرّ بأفعال الخير. فليكن...

كانت جالسة لوحدها في الركن ترتشف قهوتها بتأن مديرة عينيها الخضراوين الواسعتين حولها، مُلقية بين وقت وآخر نظرة على الشارع الفلورنسي المغطى بالثلوج. من أول نظرة، شعرت اني مشدودٌ إليها. والحقيقة أني قبل ذلك لم أهتم بالنساء إلاّ في ما ندر. كنت منصرفاً إلى البحث عن تفاصيل حياة ذلك الملك البافاري الشاب. ومثلما سبق أن قلت، كنت أحبّ أن أتمشى في الحدائق، وعلى ضفاف البحيرات، وأن أسجّل في دفتري الأزرق يوميّات وملاحظات. بل وكتبت بعض القصائد مزقتها في ما بعد لمّا تبين لي خواؤها. مرة واحدة فقط جامعت بافارية ثقيلة الأرداف عثرت عليها آخر الليل في بار "جيني." وقد ندمت على ذلك أشد الندم ذلك أن تلك المرأة لمّا استيقظت في الصباح، تقيأت على السرير وفي الحمام. وبالرغم من أن النوافذ ظلت مفتوحة طول النهار، وشطراً لابأس به من الليل، فإن رائحة قيئها ظلت في الشقة سميكة مثل كتلة من المعدن. وكان عليّ في اليوم التالي أن أغسل الشقة من السقف حتى الأرضية لكي تزول.

واظن أن فعلتي الشنيعة تلك هي التي جعلتني اعرض عن النساء مكتفياً حين تحتدّ رغباتي. بيدي، مثلما كان حالي أيام المراهقة في مدينة "قاف." والحقيقة أنني صبيحة يوم الثلج ذاك، وأنا أستيقظ من نوم طويل تخلّلته أحلام كثيرة، شعرت أن شيئا جديدا سوف يطرأ على حياتي. ولعل سبب ذلك حلم رَسَخَ في الذاكرة من بين جميع تلك الأحلام التي تلاحقت طول الليل أحيانا بسرعة مذهلة، وأحيانا أخرى بهدوء وبطء شديد. في ذلك الحلم رأيت نفسي جالساً بين خمسة من الرجال الأنيقين بأعمار مختلفة وامرأة خمسينية سمينة وأنيقة هي أيضا. وكنا نشرب الشمبانيا، ونتحدث عن أجمل الجزر في العالم. فجأة انفتح باب الصالون الفخم الذي كنا نجلس فيه، ودخلت امرأة في حوالي الثلاثين من عمرها لها ملامح اورنيلا موتي في فلم: "حكايات الجنون العادي" يتبعها خادم زنجي غليظ الملامح، بخدوش في وجهه. وكان يمسك بحقيبة من الجلد الأسود. وفي الحين راحت المرأة الثلاثينية تصيح وتتوعّد وهي في حالة من التوتر الشديد. وبعد أن شربت كأس شمبانيا، أخذت الحقيبة من الخادم الزنجي. فتحتها، وأخرجت منها رشاشة صغيرة صوبتها باتجاه المرأة الخمسينية السمينة. انحشر الجميع في الأركان خائفين ومذهولين. ظلت المرأة تصيح وتتوعّد والرشاشة الصغيرة مصوّبة نحو المرأة الخمسينية التي كانت ترجف وتبكي في صمت. استمرّ الوضع على ذلك الحال وقتا لا يمكن تحديده. بعدها قهقهت المرأة الثلاثينية عاليا، ثم قالت بصوت ناعم نعومة الحرير":لقد أردت أن أمزح قليلا... وليس في رشاشتي سوى الماء. "اوربما لكي تثبت صحّة ما تقول، ضغطت على الزناد، فرشّ الماء وجوه الجميع بما في ذلك وجهي ووجه الخادم الزنجي الذي ظل عابساً مقطّب الجبين كما لو أنه في مأتم. عاد المرح، فقرعنا كؤوسنا استبشارا بزوال الكابوس اللعين. لكن فجأة، أخرجت المرأة الثلاثينية من الحقيبة رشاشة أخرى ثم صاحت عاليا":هذه المرة انا لا أمزح بل سأسيل دماء كثيرة حيناً. "!وَجَمَ الجميع غير أن العجوز المهددة بالقتل لم تكترث بالأمر مثلما كان الحال بالنسبة للمرة الأولى، بل خيّل إليّ أنها ابتسمت ابتسامة ساخرة ملمّحة أن تهديد المرأة لها لا يجب أن يؤخذ مأخذ الجد. اقتربت المراة منّي وقالت بنفس الصّوت الناعم الذي أعقب التهديد الأول: "لا يجب أن ترى ما سوف يحدث!" ثم وضعت فوق رأسي غطاء. بعد ذلك بثوان، دوّت طلقة نارية هزّت ارجاء البيت. ازحت الغطاء فإذا بي أرى وردة هائلة الحجم، منتصبة

في قلب الصالون. وكان الآخرون بما في ذلك المرأة الثلاثينية والخادم الزنجي، يتأملونها صامتين مبهورين. ثم من جديد، عاد المرح إلى النفوس، وبدأنا نعبّ الشمبانيا، قارعين كؤوسنا وكأنّ شيئا لم يكن! لست خبيرا في تفسير الأحلام، غير أن ذلك الحلم الغريب بدا لي وكأنه يلمّح إلى مغامرة مثيرة تنتظرني في منعرج من منعرجات حياتي. وحين رأيتها جالسة لوحدها في الركن ترتشف قهوتها بتأن، مديرة عينيها الخضراوين الواسعتين حولها، ملقية نظرة بين وقت وآخر على الشارع الفلورنسي المغطى بالثلوج، تذكرت الحلم والوردة الهائلة الحجم، المنتصبة في قلب الصالون الفاخر، وأحسست بالربيع يولد في كياني البارد الكئيب. ظلت هي تدير عينيها الخضراوين الواسعتين حولها إلى أن انتبهت لوجودي. وعندئذ أثبتتها عليّ فإذا النهار الأبيض القاتم يتحول إلى واحة شاسعة مضمخة بالعطر، مفعمة بالنور. مرّت دقائق وأنا غارق في واحتها الخضراء، ثم رأيتها تبتسم. نعم تبتسم! لم أصدق. هل هي تبتسم لي أنا حقّا؟! نعم هي تبتسم لي أنا. هذا أمر لا ريب فيه ذلك انه لا أحد غيري على الكونتوار. هل يعقل هذا؟! اضطربت وتسارعت دقات قلبي. وفي لحظة ما، فكرت في الهروب خوفاً من مرارة الخيبة التي سوف أمنى بها حتما حين اكتشف أن تلك الإبتسامة كانت مجرد وهم. غير أني عدلت عن ذلك، وأدرت عيني إلى الشارع الفلورنسي موحياً أنني لست مهتما بالأمر. بعد ثوان قليلة، لم أتمكن من المقاومة، وعدت أنظر إليها وهي جالسة لوحدها هناك في الركن ترتشف قهوتها بتأن، مبتسمة لي. نعم مبتسمة لي. ولكن لم تبتسم لي أنا الغريب المثقل بالأحزان، المكسور الجناحين، الذابل الروح، المنسي وسط الثلوج؟! ها قد بدأت أعقّد الأمـــور بالأسئلة الفارغة؟! أليس من الأفضل أن أتقدم منها بخطوات وقورة، خطوات الأمراء العاشقين، وأدعوها إلى فنجان قهوة آخر، ثم أجرها إلى حوار طويل؟ حول ماذا؟ آ... هذا ليس أمراً عسيرا فالمواضيع كثيرة، وأنا سأصبح فصيحا حالما أتأكد أنني قادر أن أفوز بحبها. هل افعل ذلك؟! قبل أن أحسم الأمر، نادت على الجرسونة. دفعت ثم نهضت. ارتدت معطفها الأسود الرفيع، وبالأشارب ذي الألوان الخريفية لفّت رقبتها، ثم توجّهت نحو الباب بهدوء وهيبة الأميرات. وبعد أن خطت الخطوة الأولى في الشارع الفلورنسي، التفتت وأغرقتني في واحتها الخضراء لحين من الزمن، ثم ابتسمت ابتسامة بدت لي وكأنها دعوة للألتحاق بها. لبثت جامدا في مكاني، محتاراً في ما

يتوجّب عليّ القيام به. ولبثت هي واقفة تنظر إليّ باسمة، ثم غابت في البياض. ومرة اخرى، تأكد لي أنني رجل الفرص الضائعة بامتياز. وعلى مدى أيام عدة، رحت انْزُفُ ندماً، وانتُف شعر رأسي لاعناً جُبْني وترددي، مقتنعاً أكثر من أي وقت مضى بأن تلك القولة الشهيرة: "الذي لا يفلح مع الأولى لا يمكن أن يفلح مع الأخريات." والتي يردّدها أهل مدينة" قاف "تنطبق عليّ أنا أكثر مما تنطبق على إنسان آخر... والأولى كانت جارتنا صفية، زوجة سليمان النادل في مقهى "الخلاق" أشهر مقهى في حيّنا. وكان سليمان رجلا قميئاً، أصلع مُسَوَّسَ الأسنان، يفرط في الشراب والتدخين ولا يعود إلى البيت إلاّ آخر الليل، مصطدماً بالحيطان وبالقطط السائبة، مردّدا بصوته الأخنّ أغاني عبد الوهاب القديمة: "يا وابور قلي رايح على فين."... وكثيرا ما كان أهل الحيّ يستيقظون على صراخ زوجته وهي تلعنه، وتلعن حظها العاثر الذي زوّجها من رجل قبيح وسكّير وفاسد وهاجز فوق ذلك عن القيام بواجباته الزوجية. وأحيانا كانت ترفض دخوله إلى البيت، فيظلّ هو يخبط على الباب إلى أن ييأس تماما. وعندئذ يعود إلى المقهى لينام هناك. وإذا ما كان الطقس دافئا، فإنه يتوسّد ذراعه وينام أمام العتبة مثل المشردين. وحين تفتح نسوة الحيّ نوافذ البيوت في الصباح الباكر، ويفاجئنه وهو على تلك الهيئة، ينخرطن في لغط طويل، تضامُناً مع صفية. وتتأثر صفية بكلامهن، فتجهش بالبكاء، وتقول بصوت تخنقه الدموع: "فليمتني الله في أقرب وقت ممكن حتى أخلص من هذا الشقاء!" وأما سليمان، فينهض من نومه أشعث اغبر ودون أن يتفوّه بكلمة يتوجه إلى المقهى نليلاً، متثاقل الخطى. وكانت صفية "حلوة ودلوعة" كما يقول رجال حيّنا. مربوعة القد، بعينين دعجاوين، وأسنان قوية بيضاء وصوت مثير يزداد إثارة خصوصا حين تغني أغنية شادية: "قولوا لعين الشمس ما تحماشي... لحسن حبيب القلب صابح ماشي."... غنتها أول مرة في عرس هنونة ابنة عمّها، وأنا آنذاك في الخامسة عشر من عمري، أقرأ المنفلوطي، وأحلم بالذهاب إلى جزيرة مدغشقر لأعيش قصة حب عاصفة شبيهة بقصة بول وفيرجيني. وصفية غنت الأغنية وهي تغمز بعينيها الدعجاوين، محركة كَفْلَهَا على انغام الكلمات التي كانت تنساب من فمها عذبة حارة. وأنا أستمع إليها، تخيّلت انني ذاك الحبيب الذي من أجله تتضرّع إلى الشمس أن تخفف من لهبها حتى ينعم هو بسفر مريح. وها أنا أسافر بعيداً بعيداً مثل أبطال الخرافات التي كنت أقرأها

في الكتب، أو أسمعها في أسمار الحيّ، لأعيش مغامرات يشيب لها رأس فتى في العشرين. وعندما أعود أجدها تتقلّى على الجمر في انتظاري. ويومها أحببت صفية كما لم أحب امرأة في الدنيا، وتمنيت لو تأخذني إلى بيتها، وتغلّق الأبواب، وتقول لي: "هيت لك" مثلما قالت امرأة العزيز ليوسف، ثم تغرقني في واحتها الدافئة. بعدها واظبت على الصعود إلى السطح لأراقبها وهي تنشر الغسيل. حين تذهب إلى السوق، ألاحقها من بعيد وعيناي على كفلها وهو يترجرج خلف "السفساري" الحريري الأبيض. ودائما كان سالم النجار يقول حين تمرّ أمام حانوته: "الله يعطي الفول للذي لا أضراس له." وكان الجميع يبتسمون ابتسامة ماكرة تدل على أنهم فهموا مقصده. وأنا أيضا كنت أفهم معنى كلامه، وأظل أتبعها مبهور الأنفاس إلى أن تدخل السوق. وعندئذ أقف في ركن ما، بعيدا عن العيون، وأظل أراقب حركاتها وهي تتنقل بين الحوانيت، وبين أكداس الخضر. وكلما فتحت السفساري لتخرج حافظة النقود من بين نهديها، كنت ألتهبُ من الرأس إلى الساقين، وأشعر أن الأرض تميد تحت قدمي. ثمّ أخذت صفية تبتسم لي، وتكلمني برقة ولطف وكأنها تتكلم إلى حبيب القلب الذي تتضرع إلى الشمس كي تكون رحيمةً به يوم سفره، بل وأحياناً كانت تغمز لي بعينيها الدعجاوين وكأنها تدعوني للدخول فوراً إلى بيتها. واحدٌ آخر مكاني كان يطير في السماء من فرط السعادة. أما أنا فقد استبدّ بي خوف غريب لا أدري له سبباً، فكففت نهائياً عن الصعود إلى السّطح ومن ملاحقتها عندما تذهب إلى السوق. في الليل أطفئ الضوء وأتخيلها تأتيني من النافذة لتندسّ إلى جانبي عاريةً، وتهمس لي بكلام يجعلني أتقلّى على جمر الشهوة. وتظل كذلك إلى أن أتبلّل أنا وتتبلل هي أيضاً. بقيت على تلك الحالة، أستمتع كلّ ليلة بالصور المثيرة التي يولدها خيالي، إلى أن فاجأتني صفية وأنا جالس أمام بيتنا أتصفح جريدة تنشرُ مرّة كل أسبوع نصوصاً للأدباء الناشئين. وفي الحين اعتراني اضطراب رهيبٌ، وشعرتُ برأسي يغلي مثل قدر على نار حامية، وكنت على وشك أن أفرّ هارباً عندما سمعتُ صفية تقول بصوتها العذب الذي به تغني أغنية شادية: "أينك... منذ أيام عدة وأنا أبحث عنك؟" "تبحث عني؟!" لم أستطع أن أتكلم. كان لساني حجراً. ولم يكن بوسعي أن أرفع رأسي لأنظر إليها. كنتُ كمن يعيش حالة دوار عنيف. ومن جديد، سمعتها تقول: "لِمَ أنت صامت... ألا تسمعني؟!" ولستُ أدري كيف تمكنتُ من أن أفتح فمي

لأقول لها بصوت راعش: "نعم... أسمعك جيداً". "تعال معي!" قالت هي. "معك؟!" قلت وأنا أكاد أختنق. "نعم معي... أريد أن تكتبَ لي رسالةً إلى أختي في العاصمة... خذ معكَ قلماً وورقةً وتعالَ معي حيناً!" ركضتُ إلى الغرفة. أتيتُ بورقة وقلم وتبعتها وراسي يغلي مثل قدر على نار حامية، وقلبي يضربُ بشدّة حتى خلتُ أن جميع أهالي مدينة "قاف" يسمعون ضرباته. كان النهار ربيعياً دافئاً، والشارع شبه خال على غير العادة. ومن بيت خالتي محبوبة كانت تفوحُ رائحة الملوخية. دخلنا بيتَهَا. من النظرة الأولى، تبيّن لي أن أطفالَها الثلاثة غير موجودين. ولعلّها ادركت ما دار بذهني، إذ أنها قالتْ وهي تزيل "السفساري" الحريري: "أنا سعيدة جداً، الآن، لأن الأطفال عند أمي اليومَ وغداً وبعد غد أيضاً... آه... لقد أتعبوني اكثر مما أتعبني أبوهُمْ الهامل السكّيرُ. وإذا ما استمّر الوضع على هذه الحالة، فسوف أجنّ أو أشنق نفسي وأستريح!" قالت ذلك ثمّ طلبتْ مني أن أجلس على الأريكة في الصالون. بعدها وضعت أمامي طاولة صغيرةً عليها عصير ليمون وبعض المرطبات، ثم جلستْ قبالتي وقالت: "أهل الحيّ كلهم مَدَحوكَ لي، وقالوا بأنكَ تحسن كتابة الرسائل، بل وتكتبُ الشعر أيضاً. لذا فكرتُ بأنك قد تكون افضل من يكتب لي رسالة إلى أختي التي تعيش في العاصمة والتي لم أرَهَا منذ أزيد من عام. وقد كتبتْ لي العديد من الرسائل غير أني لم أردّ على أي واحدة منها، لأنه لا وقت لي... فالأطفالُ في رقبتي من الفجر حتى ساعة ذهابهم إلى النوم، ومشاغل البيت كثيرةٌ وزوجي لا يهتمّ إلاّ بالكأس ولفّ السجائر وأنا تعبتُ، وحياتي اصبحت جحيماً لا يُطاقُ!" قالت ذلك، وعيناها مغرورقتان بالدموع، فتمنيتُ لو كانت لي القدرة أن أضُمّهَا إلى صدري وأكفكفَ دموعها، ثم امضي إلى سليمان هناك في المقهى لأؤَنّبَهُ أمام رحال الحيّ. ولكن ها ملامح صفية تلينُ من جديد. وها وجهها يستعيد إشراقته وعيناها الدعجاوان تصبحان صافيتين صفاء ليالي الصيف في مدينة "قاف" وها هي تقول لي بصوتها الذي لا مثيل لعذوبته في الحي كله: "أرجوكَ أن تكتب لأختي رسالة جميلة... ستفرح بذلك كثيراً... أعرف أنها تحبني... وأنا أيضاً أحبها كثيراً... ولابد أن تقول لها هذا في الرسالة... قل لها ايضاً إنني أفكر فيها كل يوم، بل كل ساعة، وإنني أتمنى أن أزورها في العاصمة"... صمتت قليلاً، ثم قالت بصوت هامس، وكأنها تتحدث إلى نفسها: "آه... العاصمة... كم أشتهي أن أذهبَ إلى هناكَ... أختي قالت لي إنها أكبر من

مدينتنا بثلاثين مرة..تصور! وأنا دائماً أمني نفسي بالذهاب إلى هناك... وكم سأكون سعيدةً عندما أرى البحر وأتمشى في الأسواق التي قالت أختي إنها بحجم مدينتنا "... ثم غمزت لي بعينيها الدعجاوين وقالت: "وأنت... متى ستذهب إلى العاصمة؟"

– "بعد الباكلوريا... أي بعد عامين فقط" قلتُ لها.

– "آه، بعد عامين فقط... أنتَ محظوظ مثل أختي!" قالت. ثمّ، بصوت حزين:

– "أما أنا فسيئة الحظّ... واللهُ ابتلاني برجل سكير لم يقل لي ولو كلمة حلوة واحدة منذ زواجنا... ولولا الأطفال لكنتُ تركتُ لهُ البيتَ وما فيه وفررتُ إلى مكان بعيد حتى لا أراهُ ولاَ أسمعهُ... ولكن، ماذا أفعل؟! أُمّي تقول لي: اصبري يا ابنتي وسيأتي الفرَجُ... وأنا تعبتُ ولم تَعدْ لي طاقة على الإحتمال... ويوماً ما سأُجَنّ، وسأرمي بنفسي في بئر وأرتاح"... نهضت. جلست بجانبي. وضعتْ يدها الحارة وهمست:

– "لماذا كففتَ عن الصعود إلى السطح وعن متابعتي حين أذهبُ إلى السوق؟"

ودون أن تنتظر مني جواباً، ارتمت عليّ وراخت تقبلني بجنون، بينما كانت يدُها تحاول فتح سروالي. ولستُ أدري ما الذي حدث بعد ذلك. ما أتذكره جيداً هو أنني حين انتبهتُ، وجدتُ نفسي أركضُ في الشارع مثل معتوه، والناس يحملقون فيّ مذهولين. وكان عليّ أن أمضي وقتا طويلاً لكي أتخلص من الإضطرابات الخطيرة التي سببتها لي تلك الواقعة. وكنتُ لا أجرؤُ أن أخطو خطوة واحدةً في الشارع، ذاهباً إلى المعهد أو خارجاً منه إلاّ عندما أكون على يقين أنني لن أصطدم بصفية. وعندما كنت منشغلا بإعداد نفسي لإمتحان الباكالوريا، بدأت حكايات غريبة حول صفية تملأ الدنيا، وتشغل أهل الحيّ بكبيرهم وصغيرهم، وفي جميع أوقات النهار، وجزء كبير من الليل، كنت أرى جموعا من النساء والرجال متحلقين في الأركان، وآذانهم منتصبة مثل آذان الأرانب المذعورة، متبادلين الأخبار بشأنها. ويوما ما سمعت خالتي محبوبة تقول لأمي بأن صفية حوّلت الحيّ إلى مبغى. وأما أبي فقد بصق ذات مرة وقال بحنق بأن صفية تستحق الذبح. بعد ذلك بأسبوع واحد فقط، استيقظ الحيّ لا على آذان الفجر كما هي عادته منذ الأزل، وإنما على جلبة هائلة. هرعت إلى الشارع، فرأيت جموعا غفيرة متراصّة أمام باب بيت صفية وكانت أمي واقفة عند العتبة ووجهها شاحب، وشفتاها تختلجان. وعندما لم

التمكن من أن أتبين شيئا، صعدت إلى السطح. ومن هناك رأيت سليمان واقفا، ملوّحا بسكين ضخم ملطخ بالدم وهو يصيح:

- لقد ذبحتها العاهرة لكي أمسح العار الذي ألحقته بي!

ظل يردد ذلك إلى أن جاء رجال الشرطة وأخذوه... ولكن لم أنا أكثر من الإستطرادات؟! هل لأني لا أجرؤ أن أروي قصة حبي الفاشلة مع الهولندية والتي تركت في نفسي جراحا لم تلتئم بعد؟ يبدو أنني بالفعل أخشى أن أفعل ذلك... هاه هاه هاه هوه هوه هوه هوه هيه هيه... لن يكفّوا عن ضحكهم الشنيع هذا إلاّ بعد أن يزهقوا روحي. غير أنني سأصمد إذ لا خيار لي. ومحاولا أن أنساهم سحبت من جيب المعطف دفتر يومياتي، وغرقت في قراءته...

السبت: منذ أسابيع وأنا أعيش حالة فظيعة من التبلّد والخمول. وأنا لا أكاد افعل شيئا آخر غير النوم والتسكع في البارات حتى الفجر غالب الأحيان. والبارحة لم أعد إلى شقتي إلاّ في الخامسة صباحا وأنا بالكاد أهتدي إلى طريقي. وها أنا الآن مثقل الرأس بالكحول والكوابيس، مرضوض الجسد كما لو أنني ضربت بالسياط طول الليل. الشيء الذي يرعبني أكثر من غيره هو أن أجد نفسي في هذه المدينة التي لا أجد تفسيرا مقنعا لإصراري على البقاء فيها، وقد تحوّلت إلى كائن محطم العزيمة، مسلوب الإرادة، يعيش على حافة الحياة. وعندما أرى نفسي وأنا على هذه الصورة، تعتريني كآبة سوداء، وأطل على هاوية العدم. لا. لن أخرج هذه الليلة. سأحاول أن أقرأ فلعلّ القراءة تعيد لي شهية الكتابة... أعدت شايا. وكان في بيتي أن أتمدد على الفراش، وأشرع في القراءة حين انتبهت إلى أنني لم أقرأ بعد الرسالة التي وصلتني أمس من زهرة، الصديقة الوحيدة التي تبقت لي في ذلك الوطن الذي هجرته غير آسف، والتي تعمل مدرسة في إحدى القرى النائية. فضضت الظرف وقرأت: "عزيزي ميلود... كم كنت سعيدة حين وصلتني رسالتك حتى أنني نسيت جميع همومي ووحشة هذه القرية الجبلية القاسية والحادث الأليم الذي جدّ فيها قبل أيام قليلة من وصول رسالتك والذي سوف أحدثك عنه بعد حين. وأكثر ما أسعدني هو عدم تهيّبك من مخاطر حياة المنفى ومصاعبها والامها. لقد تعذبت هنا بما فيه الكفاية أيها الصديق العزيز، ويحقّ لك الآن أن تتمتع ولو قليلا بملذات الحياة وأن تنجز ما أنت تطمح إلى انجازه من أعمال. ولعله بإمكاني الآن أن أقول أنني كنت أكثر من عرفك - خلال السنوات العسيرة التي

عشتها هنا. أتذكر يوم وجدتك في "باب البحر" تحت المطر مبللا من الرأس إلى الساق لأنه لم يكن في جيبك ما يكفي لدخول مقهى فما بالك بشراء مظلة. أتذكر أيضا تلك الليلة، ليلة رأس السنة الفاصلة بين عام ١٩٧٧ و ١٩٧٨ التي أمضيتها في الشارع لأنك لم تجد صديقا يأويك، ولم يكن عندك ما يكفي لقضاء ليلة في أحقر فندق في المدينة. صبيحة تلك الليلة، التقينا بالصدفة في الشارع. آه.. يا صديقي لقد كدت انفجر باكية عندما رأيتك. فلقد كنت مثل طائر جريح لم يعد يقوى على الطيران. وكانت عيناك منطفئتين، ووجهك رماديا من الجوع والتعب والأرق...

تسألني عن أحوالي وعن أوضاعي؟ لا جديد في حياتي. القراءة هي الشيء الوحيد الذي يمنحني قليلا من السعادة، وينسيني أعباء العمل، ورتابة الحياة في هذه القرية الجبلية التي تبدو منقطعة كليا عن العالم. أحيانا أحاول أن أكتب غير أن الكلمات تأبى الإنصياع إليّ فأرمي بالقلم حينا وأعود إلى القراءة من جديد مواسية نفسي بالقول بأن "شيطان" الشعر سيأتي آجلا أم عاجلا. أحيانا أخرى أقول بأن الكتابة لم تعد فعلا مجدية. ولعل الحياة الفارغة التي أعيشها في هذه القرية القاسية هي التي تجعلني أفكر نهذه الطريقة...

قبل أسبوعين ذهبت إلى العاصمة. الحياة هناك لا تحتمل أيضا. المعارك على أشدها بين المثقفين. والمؤسف بل المخزي أن جُلّ أسباب هذه المعارك تافهة وسخيفة إلى أبعد الحدود. والصراع بين الطامعين في خلافة الديكتاتور العجوز بلغ ذروته حتى لم يعد هناك موضوع آخر يشغل الناس غيره. ورجال الشرطة داهموا الحرم الجامعي لإخماد تظاهرة طلابية. والآن دعني أروي لك تفاصيل الحادث الأليم الذي هزّ القرية والذي كنت قد أشرت إليه في بداية رسالتي: أياما قليلة قبل وصول رسالتك، انتحرت فتاة في الخامس عشرة من عمرها. والسبب أن أباها منعها من الإلتحاق بالمعهد الثانوي في المدينة ذلك أن المدينة تعني له سقوط ابنته في هاوية الفساد والرذيلة. ولم يكتف بذلك بل حبسها في البيت وأخضعها لمراقبة مشددة. وعندما أيقنت المسكينة أن أباها لن يتراجع عن موقفه شنقت نفسها في الليل. وأنا أعرف هذه الفتاة جيّدا ذلك أنها كانت تلميذتي. وهي ذكية ومهذبة وخجولة جدّا. لقد بكيت بحرقة. وبكت القرية كلها حزنا عليها. لكن ما فائدة الدموع بعد أن حدث ما حدث؟! بعد قليل ستغرب الشمس. أحب هذا الوقت ذلك أن عراء القرية عند انحدار الضوء يصبح أخاذاً، والجبال الجرداء التي تحيط

بالقرية والتي تبدو بشعة في ضوء النهار الباهر، هي الآن تترجرج في الفضاء بنفسجية اللون. من بعيد يأتي صوت راع يغني. هو يغني دائما في مثل هذا الوقت. صوته شجي يبعث فيّ الرغبة في البكاء. أتركك الآن آملة ألاّ تبخل عليّ برسائلك... وإلى اللقاء في رسالة قادمة."

الإثنين: رأيت نفسي أركب حمارة سوداء وأقطع حقولا خضراء تحت سماء بلا سحاب. فجأة حرنت الحمارة، فرحت أضربها بشدة لا مثيل لها. ولمّا أمعنت في ضربها، قفزت قفزات متتالية اسقطتني على الأرض. بعد أن ركضت مسافة قصيرة، استدارت نحوي وإذا بها تتحول في الحين إلى امرأة لها ملامح صفية وراحت تبكي بمرارة وتعاتبني عتابا مرّا على ما فعلته بها. لم أستغرب ذلك التحول - الفجيء - بل اقتربت منها ورحت أمسح دموعها وأهمس لها بكلمات حب... ثم أيقظني رنين الهاتف...

الخميس: منذ أزيد من أسبوعين وأنا دائم التردد على ذلك المقهى في الشارع الفلورنسي أملاً أن ألتقي بتلك التي خفق قلبي حبًا لها. واليوم وأنا طالع من إحدى المكتبات رأيتها. وهذه المرة لم أتردد في الإقتراب منها. ولمّا أحسّت بوجودي، ابتسمت لي وقالت:

- آه.. هو أنت.. يا لها من صدفة سعيدة!

دعوتها إلى كأس فقبلت دون أي تردد. ذهبنا إلى المقهى في الشارع الفلورنسي ومكثنا هناك ما يقارب الثلاث ساعات. هي هولندية من أمستردام. اسمها كارلا. مثلت في المسرح وغنت أيضا وسافرت كثيرا عبر العالم. أجمل سفراتها كانت تلك التي قامت بها إلى البرازيل وبوليفيا والإكواتور. قطعت كل هذه البلدان في قطارات قديمة مليئة بالهنود الفقراء وهي تودّ العودة إلى هناك لأنها تحب الهنود وتحب موسيقاهم... وبعد أن سردت عليّ العديد من قصص أسفارها، قالت لي:

- عندما رأيتك هنا قبل أسبوعين ظننت أنك هندي... من بوليفيا...

- "كثيرون يعتقدون ذلك بسبب قبعتي السوداء وشكل أنفي ووجهي." قلت لها.. ثم نسجت حكاية خيالية عن طفولتي وعن منشأي وذكرت لها أن جدي كان فارسا مغوارا تهابه كل القبائل، وأنه كان متزوجا من خمس نساء. وعند بلوغه السبعين، تزوج سادسة في الثلاثين وأنجب منها. وذكرت لها أيضا أنني ولدت تحت خيمة وانني سافرت مع البدو على ظهور الإبل عبر الصحراء... ويبدو أن حكاياتي

سحرتها إذ أنني في لحظة من اللحظات وجدت نفسي بين أحضانها، وكانت تقبلني قبلات محمومة. عدت إلى الشقة وأنا خفيف ومرح مثل طائر يستقبل الربيع... آه... ما أسعدني هذا اليوم!

الثلاثاء: بار جوزيفين شبه فارغ هذا المساء. ليس هذا بالأمر الغريب ففي عيد الميلاد يسافر عدد كبير من الزبائن لزيارة أهلهم. من تبقوا هم أناس بلا عائلات وبلا حب. أناس يعيشون وحدة قاسية. أتأملهم. إنهم كئيبون يشربون بنهم. يطلقون ضحكات هستيرية بين الحين والآخر. وهم يفعلون ذلك لكي يوحوا بأنهم سعداء. أفكر في كارلا التي سافرت أمس إلى أمستردام. قالت لي أنها ستهتف لي ليلة عيد الميلاد. إن سماع صوتها كاف وحده لكي أنسى كل همومي وآلامي...

الأربعاء: المدينة صامتة وميتة تماما. نوافذ الشقق معتمة. ظللت أراقب الشارع لمدة نصف ساعة. لم يمر أحد غير عجوز يحمل زهوراً، ويمشي الهوينى وقبعته السوداء التي تشبه قبعتي تغطي نصف وجهه. في الساعة الواحدة بعد الزوال، أشعلت شموعا ثم تمددت على الفراش، ورحت أستمع إلى باخ، مفكرا في كارلا وفي كلمات الحب الجميلة التي قالتها لي في الهاتف ليلة البارحة.

السبت: هذا الصباح وأنا أستيقظ، فكرت في حدائق "جنة العريف" وفي نبع ماء بارد أطفأ ظمأي بعد أن أكملت طوافي في قصر "الحمراء" ثم نزلت راجلا عبر الغابة إلى غرناطة. فكرت أيضا في أولئك الغجر الطيبين الذين ضربوا كؤوسهم بكأسي في بار بساحة "فاطمة" بحي "البيازين." فكرت في بساتين الزيتون في الأندلس وفي تلك القرى صغيرة البيضاء المنتشرة على ساحل المتوسط. في الربيع سآخذ كارلا إلى هناك لأحبّها أكثر ...

الإثنين: حين استيقظت، كنت أنوي أن أكتب بعض الخواطر التي طافت بذهني أمس وأنا جالس في بار "جوزيفين" غير أنني أعرضت عن ذلك. وبعد أن أعددت شايا، كتبت رسالة إلى زهرة ثم غرقت في قراءة "العهد القديم." ولشد ما اندهشت عندما تبيّن لي أن هناك حالات تتجدد دائما عبر التاريخ. إن داوود الراعي اليهودي الأشقر الذي يحمل مقلاعه وجرابه المليء بالحجر ليقاتل الفلسطيني المدجج بالسلاح والذي لم يستطع أحد من بني قومه الإقتراب منه، يبدو شبيها بهؤلاء الأطفال الفلسطينيين الذين يواجهون الجيش الإسرائيلي المجهز بأشد الأسلحة فتكا ودماراً، بالحجر والمقاليع!

عند الظهر توجهت إلى المحطة راجلا لإستقبال كارلا. البرد شديد غير أن السماء كانت صافية تماما والشمس ساطعة. في الساعة الثالثة وعشر دقائق وصل القطار. وارتمت كارلا في أحضاني. تعانقنا طويلا ثم ركبنا تاكسي ورأسا إلى شقتها. آه... كم كانت لذيذة وكم كانت حارة... أعتقد أن حياتي لن يكون لها معنى بدون كارلا...

الجمعة: يوم بارد لكنه جميل. وحتى أتجنّب الجموع الغفيرة التي كانت تملأ الحديقة، سرت في دروب ضيقة فارغة مفكرا في حياتي الماضية. وكنت على وشك ان أغادر الحديقة عائدا إلى الشقة، حين إلتقيت إدوارد التّيرولي هكذا بالصدفة. تجولنا فوق البحيرة المتجمدة حيث كان هناك أناس يتزحلقون. راحت الشمس تغرب ببطء وتحولت الحديقة من حولنا إلى لوحة فنية رائعة شبيهة بتلك اللوحات التي رسمها كبار الفنانين الرّومانسيين. ظللنا واقفين على الجليد صامتين إلى أن لفّتنا العتمة. بعدها دعاني إدوارد التّيرولي إلى بيته الشّبيه ببيت فلاح جبلي. فتح زجاجة نبيذ فرنسي. وضع قطعة جبن أمامي، ثم قال:

– هذا ما نقدمه للضيف المبجل عندنا هناك في جبال "التّيرول!" بقيت في بيت إدوارد حتى منتصف الليل. ثم عدت وأنا في غاية السعادة إذ أن السهرة التي امضيتها مع ذلك الفنان الذي لا تعرف الكآبة إلى قلبه سبيلا، كانت من أمتع سهراتي في هذه المدينة منذ أن حططت رحالي بها...

الأحد: يوم معتم كئيب. أجمل ما قرأت هذا الصباح قبل أن أغادر الفراش، مقطع من قصيدة لشاعر أمريكي يدعى ستيفان كران مات وهو في التاسعة والعشرين من عمره بعد حياة عاصفة عاشها بين الأشقياء والبغايا، وعرف خلالها التشرد والحروب: "في الصحراء رأيت كائنا عاريا /كائنا متوحشا /مقرفصا على الرمال /ماسكا قلبه بيده ويأكل منه /هل لذيذ ما تأكل؟ سألت أنا /ردّ هو في الحين: إنه مرّ. مرّ جدًا غير أنني أحبه /أحبه لأنه مرّ /ثم لأنه قلبي."

عند الظهر جاءت كارلا. تمددت بجانبي عارية ثم همست: "حين تتعتم الدنيا، وتشتد العواصف، وتحزن الطبيعة، أرسم البحر والشمس، وأستحضر ذكريات السنوات التي قضيتها على شواطىء البرازيل والبرتغال والأندلس." قلت لها: "في الربيع أريد أن أسافر معك إلى الأندلس. سأهبك أزهار "جنة العريف" ورقصات الإشبيليات السمراوات، وقمر قرطبة، وزيتون غرناطة وقصائد لوركا." وفي الحين

بدا لي أن ما قلته ساذج ومفتعل فندمت ندما شديدا وظللت صامتا وقتا طويلا.

الأربعاء: في رسالتها التي وصلتني هذا الصباح، تقول زهرة أن الملتحين انتشروا انتشار الجراد في كامل أنحاء البلاد، وأن اعتداءاتهم بالعنف على المثقفين والنساء تكاثرت في الفترة الأخيرة بصفة مرعبة. وأحدهم كتب مقالا يشتكي فيه من آذان البوق الذي يوقظ إبنه الصغير في الرابعة صباحا، دفع الثمن غاليا. فقد اعترضه خمسة شبان في الليل وهو عائد إلى بيته في الضواحي، وضربوه حتى أغمي عليه. والآن هو في المستشفى يعاني من عدة كسور ورضوض خطيرة.

الجمعة: أوجاع شديدة في الظهر. بعد السادسة جاءت كارلا ودلكتني تحدثت إليّ ببرود لا أدري سببه ثم خرجت دون أن تقبلني كما هي عادتها. والآن أنا على أسوء حال...

الأحد: في العاشرة صباحا جاءتني كارلا. كانت مرحة ولطيفة معي إلى أقصى حد حتى أنني نسيت الحزن الذي سببته لي قبل يومين. تحدثنا عن كافكا. قالت لي كارلا أنها لا تريد أن تقرأه لأنه يخيفها. ولمّا قلت لها أن كافكا لا يخيف بل يسلّي كثيرا، وأن تسليته من ذلك النوع الذي يقول عنه أهل مدينة"قاف": "كثر الهم يضحك." استغربت الأمر وطلبت مني دليلا على ما أقول فذكرت لها حادثة دخول الغرباء إلى شقة جوزيف ك. والتهامهم لفطوره بينما كان هو واقفا لا يدري ما يفعل. وذكرت لها أيضا كيف تحوّل سامسا إلى حشرة كبيرة قبيحة ولم يستطع النهوض للذهاب إلى العمل. رويت لها هاتين الحادثتين بطريقة بديعة حتى أنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الضحك. بعدها قالت لي: "سأقرأ "المحاكمة" وأيضا "المسخ" وربما جميع كتبه!" "افعلي ذلك وسوف تضحكين كثيرا" قلت لها.

الثلاثاء: صورة مرعبة تلك التي نشرتها اليوم إحدى الجرائد العربية على صفحتها الأولى: الجنرال الديكتاتور ووزراؤه ومستشاروه محيطون بفتى هزيل في حوالي السادسة عشر من عمره حكم عليه بمائة جلدة بعد إقرار تطبيق أحكام الشريعة في بلد يموت أكثر من نصف شعبه جوعا! آه... يا لهذا الشرق الذي لم يعد صالحا إلاّ لتفريخ المزيد من الطغاة والظالمين!

السبت: يوم شديد الحرارة. في الحديقة النساء كما الرجال عراة. تجولت في الدروب الفارغة ثم جلست على أحد المقاعد ورحت أقرأ الجريدة. فجأة، سمعت

حركة غريبة في الدغل الذي ورائي. التفت فإذا بي أرى عربيا تجاوز الخمسين، رمادي السحنة، يمسك بكاميرا، موجهاً إيّاها باتجاه النهر الصغير الذي يستلقي على ضفته عدد كبير من العراة، اغلبهم من النساء. وأظنه أدرك أني عرفت ما يفعل إذ أنه اقترب مني وقال: "كل صيف آخذ لهن كثيرا من الصور. والآن عندي صور أجمل النساء في هذه المدينة وهن عاريات. تصور!" سكت قليلا ثم اضاف: "في نظري.. هذه هي الطريقة الوحيدة للإستمتاع بالنساء اللاتي لا يمكننا الحصول عليهن!" – حريم – بالصور. هذا ما تبقّى لرجال الشرق! عائداً من الحديقة، وجدت في ساحة "الأوديون" جمعا من النساء والرجال يستمعون إلى رجل طويل، هزيل، بوجه صغير كوجه الدمية، كان ماسكا بالإنجيل ويتحدث إليهم بانفعال عن الشرور التي انتشرت في جميع أنحاء العالم مهددة البشرية بكارثة عظمى. فجأة اندفع نحوه كلب سيدة كانت واقفة هناك وأخذ ينبح غاضبا. ارتاع الرجل، فانقطع عن الكلام. أما المستمعون إليه فقد انفجروا ضاحكين. جميعهم أغبياء ما عدا الكلب. قلت. ذلك أنه الوحيد الذي اهتدى إلى ما يستحقه المبشرون!

الإثنين: النهار يطلع بهدوء. في السماء الرمادية مرت بعض الطيور. والمرأة التي تسكن في الشقة المقابلة تستحم. أنا لا أرى جسدها جيّدا بسبب سماكة البلور، غير أن شكله يوحي بأنه مثير. بعد أن قرأت صفحات من "العهد القديم"، استمعت إلى موسيقى بربرية أهتدني إياها كارلا. ثم بسبب لا أدريه، وجدتني أنخرط في البكاء. يبدو أنني فشلت في التخلّص من الحنين إلى الماضي... وإلى طفولتي بالخصوص.

الأربعاء: تبعت امرأة لها ملامح صفية. ولما وصلنا إلى شارع يشبه شارعنا في مدينة "قاف" التفتت إليّ وقالت باسمة: "تعال!" دخلت بيتها دون خوف أو تردد. وضعت هي القفة التي كانت ممتلئة بالخضر وقالت: "عليك أن تختفي في هذا الركن. وحين يدخل رجل أصلع عليك أن تطلق عليه النار!" أخذت بندقية الصيد التي جاءتني بها، ثم وقفت في الركن وأنا على استعداد لتنفيذ أمرها. كان هناك صبي في حوالي الرابعة من عمره يملأ الدنيا زعيقا وصراخا. وأما المرأة التي تشبه صفية فقد تعرت تماما، ثم تمددت على الفراش في الغرفة المواجهة لي، وقالت بصوت عذب: "حتى تكمل مهمتك على ما يرام، سأكون لك!" بعد قليل، دخل الرجل الأصلع فأطلقت عليه النار لكنه لم يمت بل تقدم مني بهدوء وافتك مني بندقية

الصيد وبدوره أطلق عليّ النار عير أنني لم أمت. بدأنا نضحك عاليا بينما كانت المرأة التي تشبه صفية تبكي في الغرفة وهي عارية. أمّا الطفل فقد اختفى. ثم قال لي الرجل الأصلع: "تعال!" تبعته وأنا خائف ذلك أنني أحسست أنه سوف يغرر بي ويقتلني غَدْراً. حين وصلنا إلى رأس الشارع، حييته مودّعا وسارعت بالإبتعاد عنه غير أنه صاح فيّ: "هاي... تعال نشرب كأسا ونتصالح!" لبّيت دعوته لكنه فجأة اختفى، ووجدت نفسي أمشي قرب مقبرة تشبه مقبرة "الجناح الأخضر" في مدينة "قاف" وكانت الأعلام منكسة والناس يبكون...

الأربعاء: يوم غائم وكئيب. منذ أن استيقظت والحزن غارس مخالبه في جسدي وكارلا لم تهتف لي منذ أسبوع وأنا لا أجرؤ أن أهتف لها لأنها قالت لي في المرة الأخيرة التي التقينا فيها بأن مشاغلها كثيرة وبأن الهاتف يزعجها ويوتر أعصابها...

الإثنين: أحداث كثيرة وقعت خلال الأشهر الأخيرة، لم أكتب خلالها أي شيء في هذا الدفتر. فقط سقط الجدار، وتراقص الناس في الشوارع، وإعدم ذاك الذي يسمّونه "دراقولا البلقان" مع زوجته فوق الثلج وانهارت الأنظمة الشيوعية في بلدان عديدة. وثمة أمريكي من أصل ياباني يتحدث عن نهاية التاريخ. أما أنا فلست معنيا بكل هذا. وكل يوم تزداد آلامي ضراوة ذلك أني أشعر أن كارلا لم تعد تحبني كما كان الحال من قبل. فيالشقائي!

الجمعة: يوم حار. وحرب جديدة اندلعت في الشرق. والذي أشعلها ظهر على شاشة التلفزيون وهو على ظهر جواد أبيض يدعو المسلمين إلى "الجهاد المقدس..." وكارلا لم تهتف لي منذ أسبوعين وأنا أقاوم الألم بالكحول...

الثلاثاء: رأيت نفسي في قرية أفريقية بائسة ومغبرة، يمشي فيها أطفال كثيرون. وجميعهم كانوا في حالة من الهيجان الشديد. وكانت تقودهم فتاة نصف عارية في حوالي السابعة عشر من عمرها. وحتى نهاية الحلم لم يقع نظري على أي كائن يتعدى عمره عمر تلك الفتاة القائدة. ظللت أتمشى في شوارع القرية الأفريقية وسط الغبار وأكداس الأوساخ مراقبا ما يجري. وواصل الأطفال هتافاتهم وصياحهم الغاضب ملوّحين بقبضاتهم دون أن يلتفتوا إليّ أو يهتمّوا بي. وعندما بدأت أهيىء نفسي لإستفسار الفتاة – القائدة عن معنى ما يحدث، برز في الناحية الشمالية من القرية، جنود شقر مسلحون بالرشاشات. وعندئذ ازداد

هيجان الأطفال، وراحوا يرمون الجنود الشقر بالحجارة غير أن الجنود الشقر لم يردّوا الفعل، ولم يطلقوا النار، بل ظلوا يتقدمون في هدوء وصمت. بعدها اشتد الهرج والصياح والعويل، ولم أعد أرى شيئا غير الغبار. بغتة هدأت الدنيا من حولي، وانقشع الغبار، فإذا القرية الأفريقية فارغة تماما إلاّ من طفلة في حوالي العاشرة من عمرها كانت تبكي بحرقة أمام جثة امرأة مبقورة البطن، وكان الذباب يطّن طنينا مزعجا وجدران البيوت ملطخة بالدم...

الخميس: أزحت الستائر. الخريف. رؤوس الأشجار صفراء، أو نحاسية اللون. على الرصيف أوراق ذابلة. في السماء سحب خفيفة. سأتمشى في الحديقة علّني أخفف من وطأة هذا الحزن الذي يثقل قلبي.

ذات يوم: عقب جولة طويلة في الحديقة السابحة في ضوء الخريف الأخاذ، ذهبت إلى بيت إدوارد التّيرولي، فاستقبلني كعادته بحرارة، وقدم لي نبيذا جيّدا، ثم رحنا نتحدث في أمور شتى. ولمّا رويت له متاعبي الكثيرة مع كارلا، قال لي: "اسمع يا صديقي.. إذا ما أحسست أن المرأة التي تحبها بدأت تبتعد عنك، فابتعد عنها أنت أيضا وبأقصى السرعة وإلاّ فإنك ستدفع الثمن غاليا!" ما قاله إدوارد التّيرولي صحيح، ولكني أعرف أنني عاجز عن القيام بذلك...

في الساعة الرابعة ظهرا، تغير الطقس فجأة، وتهاطلت الأمطار بغزارة. ظللنا نرقب العاصفة الجميلة، وكان إدوارد التّيرولي يرفع صوته بالغناء بيت الحين والحين استبشارا بغضب الطبيعة الفجيء. خفّ حزني قليلا غير أنه عاد لينقض عليّ بشراسة حالما خطوت الخطوات الأولى عائدا إلى شقتي...

الإثنين: ثلوج وعواصف ورسالة من زهرة لا أريد أن أفتحها حتى لا يزداد وضعي سوءا...

الأحد: كنت وكارلا على قمة جبل. وكانت تحتنا هاوية تكفي حركة خاطئة من جانب واحد منا لكي نقع فيها. بعد تردد طويل، قلت لكارلا: "امسكي بي جيّداً. "ففعلت. رحت أزحف بحذر باتجاه أسفل الجبل، وكارلا فوق ظهري. ولمّا بلغنا السفح، امتدت أمامنا غابة كثيفة الأشجار، تشقها جداول صغيرة، وتملأها أصوات غريبة قد تكون أصوات نمور وأسود وذئاب. أخذنا نجري بأقصى السرعة إلى أن بلغنا أطراف الغابة. عندئذ برز لنا من الوهد شبان بملامح شريرة، تدلّ على أنهم من أولئك اللصوص العتاة الذين يفرون إلى الغابات الكبيرة إثر كل

جريمة يقترفونها. سَألتُهُم: "هل هناك قرية أو مدينة قريبة من هنا؟" فلم يجيبوا وظلوا ينظرون إليّ وعيونهم تقدح شرراً. ندمت على أني سألتهم، ثم أمسكت بيد كارلا بقوة مقررا الفرار منهم غير أنهم هجموا عليّ وافتكوا مني كارلا التي لم تظهر أي مقاومة... بل بدا لي أنها كانت راضية بذلك. بعدها ركضوا جميعا وكارلا معهم باتجاه الغابة. ركضت أنا وراءهم وأنا أصيح مختنقا بدموعي: "كارلا.. كارلا.. كارلا "... ظللت أركض وأركض إلى أن وجدت نفسي على مشارف مدينة "قاف." وكانت العجول سارحة في الحقول والنساء يجمعن الحشيش والدنيا ربيع...

الأربعاء: حادث طريف جدّ أمس في هذه المدينة: في الأشهر الأولى من وصولي إلى هنا، تعرفتُ على رجل كان صديقاً لمصطفى المغربي أيام الدراسة. وكان دائماً يتحدثُ إليّ عن مشاريع أفلام يحلم بإنجازها. والعام الماضي أُصيبَ بالجنون لسبب لا يدريه أحد، وأدخل إلى المصحة أكثر من مرة. مرة، وكان ذلك قبل بضعة أشهر، تعرّى في بار "جوزيفين" قائلا بأن الجو شديد الحرارة في حين أن الجليد كان يغطي المدينة. وكانت جوزيفين تنوي إبلاغ الشرطة، غير أن مصطفى المغربي تدخل وراح يتحدث إلى صديقه القديم بلطف شديد إلى أن أذعن وارتدى ثيابه. قبل يومين أشْهَر هذا الرجل مسدساً وراح يهدد به سكان العمارة التي يقيم فيها فخاف هؤلاء وأبلغوا الشرطة. ولأنّ يوغسلافيا كان قد قتل شرطيا وجرح شرطية قبل أسبوع، فإن رجال الشرطة أخذوا الأمر مأخذ الجد. عند وصولهم إلى العمارة، اختفى الرجل المجنون في ركن ما، وراح يتوعّدهم بإطلاق النار إن هم حاولوا الإقتراب منه. استمر الوضع على هذا الحال ساعتين كاملتين. ثم فجأة، خرج الرجل المجنون من مخبأه واندفع بسرعة الريح باتجاه رجال الشرطة شاهرا مسدسه. أصيب رجال الشرطة بالذعر، فأطلقوا عليه النار وأردوه قتيلا. بعدها تبيّن لهم أن المسدس الذي كان بحوزته، كان من صنف تلك المسدسات البلاستيكية التي يتلهّى بها الأطفال... في بار "جوزيفين" كان مصطفى المغربي حزينا جدّا بسبب ما حدث لصديقه القديم. أما أنا فقد أمضيت شطرا كبيرا من النهار وأنا أضحك في السرّ والعلن لأن هذا الموت العبثي من صنف الأحداث التي تسليني كثيرا...

السبت: مشرقي يأتي هو أيضا إلى بار "جوزيفين" بين الحين والآخر، أمضى

شهرا في بلاده وعاد مصعوقاً بسبب التحوّلات الرهيبة التي حدثت في مجتمعه. قال لي أن الدولار أصبح سيّد كل شيء وأنه لم تعد هناك أية قيمة للأخلاق والمبادىء وأن الوزراء والمسؤولين ينهبون البلاد في وضح النهار وأن أبناءهم يتحايلون على القانون، ويسلكون سلوك سفلة اللصوص. وقال لي أيضا بأن المثقفين بجميع اتجاهاتهم باعوا أنفسهم للبيترو- دولار وأن المواطن العادي يدين الإرهاب الأصولي بشدة، لكنه في الوقت نفسه يقول لك بأن الأصوليين ربما يكونون على حق لأن رجال الحكومة حرامية. الظاهرة الأخرى التي لفتت انتباه هذا المشرقي هي انتشار الحجاب... فالممثلات اللاتي كن يقمن بتمثيل الأدوار الخليعة قبل عشر سنوات، وطالبات الجامعة والتلميذات الصغيرات وبنات العائلات الميسورة والفقيرة أيضا، أصبحن مقبلات على ارتداء الحجاب إقبالا منقطع النظير. "إنه السقوط التام" قال الرجل المشرقي. وحتى يثبت سيطرة الملتحين على المجتمع، روى لي الحادثة التالية: كان يقطع الجسر عائدا إلى بيته. وكان الوقت مساء. سيارات كثيرة تمر في الإتجاهين. وسط الجسر، كان هناك ضابط شرطة وشرطيان وراءهم شبان بلحي شعثاء يرفعون لافتات كتب عليها بالخط الغليظ: "ارتداء الحجاب عفة!"، "الموت لأعداء الإسلام."، "تطبيق الشريعة هو الديموقراطية الحقة!" استغرَب الأمر، فتقدم من ضابط الشرطة وسأله: "ألَم تَر الشعارات التي يرفعها هؤلاء الشبان؟!"، "نعم رأيتها!" ردّ الضابط. ولما أشار إليه بأن تلك الشعارات منافية للقانون المعمول به في البلاد، قال الضابط: "لا... أبدا... بل هي كلام مزبوط..!" أخيرا قال لي المشرقي وقد - أربدت - ملامحه: "ما رأيك في ما سمعت؟"

- "لا رأي لي ذلك أن الشرق لم يعد يعني شيئا بالنسبة لي." قلت واضعا حدّا للحديث.

الأحد: في بار "جيني" أمضيت ساعة لطيفة مع بابلو الإسباني، تاجر التحف القديمة في شارع أماليان. رجل طيب المعشر، وعاشق كبير للنبيذ الأحمر ولسجائر الجولواز. حدثني عن والدته التي تجاوزت الخامسة والثمانين من عمرها هذا العام، والتي فقدت ذاكرتها منذ أعوام وقال لي بأنها تسأل كل من يزورها: "أين زوجي..أين زوجي؟" ثم تأخذ في النحيب. آخر مرة زارها، سألها: "هل عرفت من أنا؟" حدّقت فيه مليا ثم قالت: "أنت يهوذا بلا شك!" وبعد أن ضحك

كثيرا، إكتاب بابلو قليلا، ثم قال: "يجدر بالإنسان إذا ما ابتغى احترام نفسه أن يرحل قبل بلوغ هذه المرحلة من العمر!"

الثلاثاء: هامداً في الفراش ونفسي مرة. صورة كارلا لا تفارق ذاكرتي. وهي لم تهتف لي منذ أربعة أسابيع. وقد كتبت لها رسالة غير أنها لم ترد.. ماذا عليّ أن أفعل؟! ذلك هو السؤال الذي يعذبني الآن.

الخميس: أغيديوس الفنان الجميل، والإنسان النبيل والذي تعرّفت عليه في بيت إدوارد التّيرولي قبل أعوام، مات أمس بالذبحة القلبية وهو يرسم مستمعا إلى سترافينسكي... آه... يا لقسوة هذه الحياة! لم أعرف في هذه المدينة من يضاهي إدوارد التّيرولي في حبه للحياة غير أغيديوس. والآن تبدو المدينة حزينة وفارغة لأني لن أسمع أبدا ضحكته الجميلة المجلجلة ولن أرى قامته المديدة وهو يذرع الشوارع، متنقلا بين المكتبات بحثا عن كتب الطبخ والفن، متوقفا في هذا البار أو ذاك لشرب "جرابا" شرابه المفضل. مرات كثيرة زرته في "الأتيليه" والذي هو محل سكناه أيضا. لساعات طويلة، نظل نشرب مستمعين إلى السمفونيات الكلاسيكية، متجادلين حول الفن وحول النساء. مرة زارني في شقتي آخر الليل. أسمعته موسيقى بدوية فأعجب بها كثيرا وقال لي: "إنها موسيقى تشبه حركة الثعابين على الرمل الساخن!" وكانت أمنيته الكبيرة أن يسافر إلى صحراء سيناء وإلى اليمن. وهاهو يرحل دون أن يحقق أمنيته...

الجمعة: في البلد المجاور لبلدي يذبح الشعراء والنساء والأطفال يوميا. سراييفو محاصرة، والناس يموتون بالآلاف أمام عالم صامت ولا مبال. متطرف يهودي قتل مصلين في الخليل. الحرب على أشدها في القوقاز. وهذا اليوم قرأت تحقيقا مرعبا عن هذه الحرب، أقتطف منه الفقرة التالية: "في إحدى نقاط الإغاثة بقلب المدينة، جراح يقوم بمهمته دون الأدوات الخاصة بذلك. أصابعه ملطخة بالدم. وحين أكمل غسل يديه بالشاي. جندي يشد رأس جريح بقوة إلى صدره حتى لا يصرخ. ممرضة تجهز دواء مستخلصا من بعض الأعشاب. بعيدا على الجادّة، أجساد مشوهة. وجوه بدون أجسام. تعابير الرعب على سحنات الفتيان الواقفين يتفرجون. على مسافة خمس أمتار، ساق معلقة على حبل كهربائي. الحذاء لا يزال في الساق التي تحركها الريح بقوة!" يبدو أن الفرحة بسقوط الجدار لم تدم إلاّ قليلا، والآن تنتصب هنا وهناك جدران أخرى ممهّدة لمزيد من الفواجع

والدمار والخراب!

الأحد: في يومياته (١٠ أكتوبر ١٨٤٠) كتب هنري فريدريك أميال يقول: "كل يوم نترك جزءا منّا في الطريق. كل شيء يتلاشى من حولنا. وجوه، أقارب، أناس من وطننا. كل شيىء يتهاوى ويرحل والعالم يفلت منا. الأوهام تنقشع، ونحن نحضر ضياع كل شيء. وكل هذا ليس كافيا. نحن نفقد أنفسنا أيضا. نحن غرباء على نواتنا التي عاشت قديما حتى تبدو لنا وكأنها لم تكن أبدا. ما أنا كنته قبل بضع سنوات، ملذاتي، عواطفي، أفكاري، لم أعد أعرفها. جسدي مرّ. روحي مرّة أيضا. والوقت إلتهم كل شيء. إنني أحضر مسخي."

أسجل هذه الفقرة في دفتري لأنها تعبر بدقة متناهية عن حالتي منذ أن وصلتني من كارلا تلك الرسالة المقتضبة والتي فيها أعلمتني أن علاقتنا يجب أن تتوقف...

يكفي.. لم تعد لي طاقة لمواصلة قراءة هذه اليوميات.. هاه هاه هاه هوه هوه هووه... جميعهم منخرطون في هذا الضحك الهستيري ما عدا واحد فقط يجلس قبالتي وينظر إليّ بشيء من الشفقة. واحد غريب لم أره من قبله أبدا. هو يرتدي معطفا رماديا قديما. ويلفّ رقبته بإشارب أخضر باهت اللون ويعتمر قبعة سوداء تغطي أذنيه. أما عيناه الجاحظتان فتحيط بهما زرقة كامدة كتلك التي تحيط عادة بعيون المشردين والغرباء والمدمنين على الكحول... كان عليهم أن يسخروا من هذا الغريب قلت... غير أني سرعان ما تداركت الأمر وقلت: عيب... الرجل غريب. مثلي. وإن هم سخروا منه فسوف أشعل حريقا في هذا البار ذلك أنني لا أتحمل أن يُهان الغرباء أمامي. لا... أبدا.. أبدا.. لن أسمح لهم. الكلاب... الأوباش... السفلة. هاه هاه هوه هو هيه هيه. ثم أن ملامح الرجل الغريب تؤكد أنه مسالم ومغلوب على أمره. وربما هو لا يعرف هذه المدينة ولا يتكلم لغة أهلها ولم يكن قد سمع عنها شيئا من قبل.فقط قادته الصدفة إلى هذا البار ليجلس بين أنذال كهؤلاء. ولا بد أنه يفكر أين سيقضي ليلته في هذه المدينة الغريبة. نظراته الحزينة القلقة تشي بأنه لا يملك إلاّ قليلا من المال يكفي لشرب بعض الكؤوس وأكل حساء ساخن في يوم بارد وممطر كهذا. ولكن لِمَ كنت عدوانيا معه في البداية؟ يا إلهي. هل مسخت إلى هذه الدرجة وأصبحت مثل ذلك الوغد توماس الذي يبول أمام العمارات حين يتعتعه السكر، ومثل ذلك النتن كلاوس الذي ينهق مثل حمار جائع كلما أراد التعبير عن فرحته. لكن عليّ أن أنساهم جميعا وأهتم بالرجل الغريب.

إنه غريب حقا. وإلاّ ما ظل واجما هكذا بينما هم في أقصى درجات الهرج. عليّ أن أبدي له حينا أنني أقاسمه آلامه، ومخاوفه، ووحدته أيضا. نعم. عليّ أن أفعل ذلك بسرعة. طبعا أنا متأكد أنهم سوف يحزنون إلى حدّ البكاء حين يرون كلّ واحد منّا يضرب كأسه بكأس الآخر ويضحك عاليا. أحب أن أراهم بعد كل هذه البهجة الكاذبة مكروبين مثل ثيران مخصية في اصطبلات الشتاء. أحب. آه كم أحب! فلتغفر لي أيها الغريب الضائع خطأي، وتعال بقربي. تعال نتقاسم غربتنا فأنا أيضا غريب رغم أنني عشت سنوات مديدة في هذه المدينة الحزينة القاسية. ودائما كنت أخطّط لمغادرتها نهائيا، خصوصا بعد قصة حبي الفاشلة مع كارلا الهولندية. وبعد أن أكون قد قطعت أشواطا في التفكير والإعداد لذلك، ينهار كل شيء في رمشة عين، وغالبا ما يتم ذلك ببساطة غريبة: أخرج في الصباح من الشقة وأنا مصمّم على السفر في أول فرصة. لكني أقول وأنا أقطع الجسر بأنه لا بأس من شرب الكأس الأخيرة في بار "جوزيفين" حتى أغيظ أعدائي، وأثبت لهم بأنني رجل القرارات الصعبة. ثم أدخل إلى هذا البار الحقير، بار "جوزيفين" الذي إلتهم سنوات كثيرة من حياتي، وأشرب الكأس الأولى، ثم الثالثة، ثم السابعة، ثم العاشرة... حتى حلول الظلام. بعدها أقول أن الكأس الأخيرة في بار "جيني" له مذاق خاص وأذهب إلى بار "جيني." وهناك ألتقي غرباء زنوجا وعربا وآسيويين فأقول لا بأس من مواصلة الشراب معهم... وعند الفجر، أجر نفسي إلى الشقة جرّا ثم أقول وأنا أتهالك على الفراش بحذائي وبكامل ثيابي بأنه ليس صحيّا أن يسافر المرء وهو متعب ومثقل بالكحول. وأظل أؤجل سفري بهذه الطريقة حتى أنساه تماما وأعود إلى حياتي الفارغة في الضباب وتحت المطر. مرة واحدة تمكنت من الإفلات من هذه القيود. كان ذلك في الصيف. وكان الحرّ خانقا في الشطر الأول من النهار. أمّا في الظهيرة فكانت الأمطار تتهاطل بغزارة. لعدة أسابيع ظلت فكرة السفر تلحّ عليّ إلحاحا شديدا. وذات صباح، توجهت كعادتي إلى بار "جوزيفين" وإذا على بابه إعلان صغير يقول إنه مغلق لمدة شهر. هذه فرصتي قلت. وفي الحين اقتطعت تذكرة وطرت فورا إلى تلك المدينة البيضاء على المتوسط. مدينة روزالي الجميلة التي أنستني حبي الفاشل لكارلا الهولاندية. هه... هه هاه.. هوه..هيه... لقد حولتني الفاجرة جانين إلى قرد في السيرك يسلّي كائنات بشعة ومحطمة في يوم قاتم ممطر. اللعنة عليها وعلى أجدادها الأولين. كان عليّ ألاّ أدعوها إلى بيرة

حتى لا تصير مرحة إلى هذا الحد. لكن، لا يهم. لا يهم. عليّ أن أنساها وأنساهم... قلت: وصلت إلى تلك المدينة البيضاء على المتوسط، مدينة روزالي قبل الغروب بقليل. حال وصولي انتشى جسدي الذي يبّسَه البرد وسنوات الغربة الطويلة بتلك الروائح الحادة التي تتميز بها المدن المتوسطية. مشيت في الشوارع الضيقة المتداخلة مأخوذا، منبهرا حتى باب بنسيون روزالي الأزرق. نعم. أتذكر ذلك جيّدا. كان الباب أزرق. والنوافذ المحدبة الشبيهة بأقفاص الطيور كانت زرقاء أيضا. على الشرفة أحواض زهور الجيرانيوم. في الباحة المبلطة بقطع من المرمر تزينها نجوم زرقاء صغيرة، شجرة ليمون كانت لها فتنة خاصة في الليل، تحت القمر. وكل شيء كان نظيفا، مرتبا غاية الترتيب حتى أنني لعنت نفسي التي أجبرتها على العيش سنوات طويلة داخل شقة قذرة، مليئة بالأوراق والقناني الفارغة، وفي مدينة اكره أمطارها، وأمقت أهلها. وقد تسألني أيها الغريب لم أنا اخترت بنسيون روزالي دون غيرها. وأجيبك بأنني وأنا أسيرٌ في تلك الشوارع الضيقة المتداخلة يوم وصولي، رأيت بنسيونات وفنادق عديدة، غير أني لم أرتح لأي واحد منها، وواصلت سيري، هادئا، نشطا، مطمئن البال حتى باب بنسيون روزالي، كما لو انني أجذب إليه بخط سحري، نعم بخيط سحري وإلاّ كيف يمكن لغريب مثلي أن يصل دون أيّ دليل إلى ذلك البنسيون الواقع في شارع قرطبة. حالما فتحت روزالي الباب وقعت في حبها تماما مثلما كان الحال مع كارلا الهولندية يوم رأيتها جالسة لوحدها في ذلك المقهى الواقع في الشارع الفلورنسي. تلك هي الحقيقة ولا مجال عندي للمبالغة أو الخداع. صحيح أني قبل ذلك، وبسبب الآلام التي تجرّعتها عقب فشل حبي لكارلا، كنت قد عاهدت نفسي أن أبتعد عن النساء ابتعادي عن النار، وبدأت أحتقر أولئك الذين يشحبون وينهارون بسبب الحب، غير أن كل هذا تلاشى من الذهن حالما انفتح الباب الأخضر وظهرت روزالي أمامي بفستانها الصيفي الأزرق وقالت لي "تفضل يا مسيو... تفضل."... وتبعتها أنا مرتبكا، ناشف الريق. أعطيتها جواز سفري، ثم صعدت المدراج وراءها. فتحت الغرفة رقم ٦ في الطابق الأول وقالت بنفس الرقّة: "تفضل يا مسيو... تفضل... هذه افضل غرفة عندي."... وبعد أن فتحت النافذة، أضافت: "بإمكانك أن ترى البحر والبواخر الرائحة إلى الأندلس أو العائدة منها "... آ... قلت. ليس أكثر من ذلك. فقط آ. لأني لست أدري لماذا تذكرت في تلك اللحظة بالذات أميرات قصور غرناطة

وهن يسبحن في حمّامات من العطور، أو يغنين في الجنان، وأرجلهن الصغيرة العارية في مياه السواقي الباردة. ويومها ياصديقي الغريب وقعت في الغرام مرة أخرى... من الصعب عليّ أيها الغريب أن أذكر لك جميع تفاصيل حبي لروزالي. إنها لي. لي وحدي. فقط أريدك أن تتخيّل على أيّة صورة يكون الحب حين يتبلّل بروائح البهارات والجيرانيوم والبواخر الرائحة إلى الأندلس أو العائدة منها، ويحمّل بشبق وحشي لفلاحات بجلابيات طويلة، زاهية الألوان، ينزلن كل صباح إلى أسواق المدينة مكحلات العيون وعلى رؤوسهن سلال العنب والتين والنعناع، وبتأوهات مغنية يترنح صوتها الأبح على السطوح، تحت قمر يتوسّد البحرين. آه... كأسك أيها الغريب! قلت ذلك ورفعت كأسي. وكم كنت سعيدا لمّا رأيت الغريب يرفع كأسه أيضا، ويجيب على ابتسامتي المحتشمة بابتسامة مثلها..هه... هه هاه هاه هوه هوه هوه... طبعا لقد عثر الأوغاد على من يسلّيهم مجانا في يوم ممطر كهذا. غير أن هذه النّعمة لن تدوم طويلا. بعد حين سينقلب الزمن ضدهم، فيعبسون من جديد. يوم عليّ. ويوم عليك. تلك هي القاعدة منذ عهد القبائل في الربع الخالي. كأسك ثانية أيها الغريب. استجاب الغريب. يبدو أنه أدرك مدى الإحترام الذي أكنه له. إنن، خطوة واحدة فقط ويحصل الوئام بيني وبينه. هل اذهب إلى طاولته وأدعوه إلى كأس؟ لا... لا... من الأفضل أن أدعوه إلى طاولتي. ولكن لم هو يقوم بنفس الحركات التي أقوم بها أنا؟ أم هل أنا واهم؟ على أي حال، من السهل التثبت في الأمر. وضعت ساقا على ساق فوضع هو أيضا ساقا على ساق. لمست أنفي بيدي فلمس هو أيضا أنفه بيده. أخرجت لساني فأخرج هو أيضا لسانه. قطبت جبيني، فقطب هو أيضا جبينه. الحقير! لقد طلع وغدا مثلهم. سوف أحطم... لكن مهلا... مهلا. يبدو أن هناك أشياء أخرى تجمع بيننا. له مثلا قبعة سوداء مثل قبعتي تماما. له معطف رمادي قديم ليس هناك فرق واحد بينه وبين معطفي. له إشارب أخضر باهت اللون. ولي أيضا إشارب أخضر باهت اللون. له وجه عريض، وجه هندي من جبال" الأنديز"، ولي نفس الوجه. الوجه الذي أحبته كارلا. أووووه... هاه هاه... إنني حقا بدأت أشيخ، ذلك أن الغريب الجالس أمامي ليس سوى أنا في المرآة. نعم أنا في المرآة. أهاه أهاه أهاه... هووووه... آه يا للزمن الذي مسخني... وجموا جميعا وحملقوا فيّ بينما أنا أضحك عاليا خابطا

بيدي على الطاولة...

- "ماذا حدث لك؟!" قالت جانين باستياء شديد.

- أنا أضحك... أضحك مثلكم على نفسي... فهل هذا عيب؟!

- ولكن...

- لكن ماذا؟ هاه هاه هاه... هوه هوه هوه...

- "يبدو أنك سعيد حقا."... قالت جينين وهي مكسوفة البال.

- نعم أنا سعيد... سعيد جداً... هاه هاه هيه هيه هيه هووه. راقبتهم بطرف عيني. بدوا فعلا مكروبين مثل دواب تساق إلى الذبح. الأوغاد. كم هم أذلاء حين ينهزمون. أهاه أهاه أهاه أهاه... نهض مصطفى المغربي وهو أزرق من الغضب. نادى على الجرسونة. دفع ثم خرج وهو يصيح بأعلى صوته:

- هذا شيء لا يحتمل! نعم... هذا شيء لا يحتمل !

من وراء الكونتوار، صاحت جوزيفين بنبرة وعيد واضحة: "لا أريد مجانين سكارى في هذا المحل!" العاهرة! أعرف أنها تكرهني ولا تتحمل أن تراني سعيدا خوفا من ذلك الحقير توماس الذي كسّر ذات مرة عدة كؤوس احتجاجا على ضحكة عالية أطلقتها وأنا أقرأ حكاية مسلّية في جريدة... نعم. لقد فعل ذلك. والغريب أن تلك المنافقة جوزيفين لم تنفعل ضده. بل ضدي أنا. هل تتصورون ذلك؟! وفي الحال طلبت مني أن أغادر البار، وإلاّ فإنها ستضطر لإبلاغ الشرطة. وفي ذلك اليوم، وكان يوما ممطراً قاتما كهذا اليوم، أقسمت ألاّ أضع ساقي في بار جوزيفين أبدا. لكن ما حيلتي. لقد انهارت عزيمتي بسرعة. وذات صباح، عقب ليلة بيضاء طويلة، وجدت نفسي في هذا المكان اللعين أقدّم إعتذاراتي لجوزيفين وهي زامة شفتيها مثل حارسات السجون السيبيرية. نعم. هكذا أنا. لا أستطيع... لا أستطيع أن أقاوم رغباتي. عليّ أن أهدأ الآن حتّى لا أفرط في الإنتصار الهائل الذي أحرزته عليهم. ثم أن تلك الخبيثة جوزيفين تتحيّن دائما الفرصة لإهانتي وإلقائي خارج البار. وإذا ما فعلت ذلك اليوم، فسوف ينتفض المحتال توماس مزهوا ويدعو الجميع إلى كأس. بل أنه سيخرج للبحث عن مصطفى المغربي حتى يكتمل النصاب، ويسلخ الخروف الغائب سلخاً يشبع كل نوازعهم الشريرة. لا. لا... لن أفرط في انتصاري، وعلّي أن أهدأ هدوء المسيح يوم الصلب...

هدأت. نظرت إلى الخارج. كان الشارع تحت الأمطار مزدحماً بالناس

والسيارات. عليّ أن أمكث هنا، قلت، حتى تخف الحركة، ويعود أولئك الموظفون البشعون إلى جحورهم. بعدها أقرر. ومن المحتمل أن أعود باكراً إلى البيت حتى أتمكن من السفر غدا. نعم غدا. لم أعد أطيق العيش بعيدا عن روزالي. آه... روزالي! متى أكون بين أحضانها هناك على السطح، والمدينة البيضاء من حولنا مفعمة بروائح الفل والياسمين، وبأصوات البواخر القادمة من الأندلس أو الذاهبة إليها. وتلك الأغنية المبللة بدموع العشاق تتهادى في الفضاء البنفسجي. وروزالي تسقيني نبيذا أندلسيا من فمها وتهمس لي":هل تحبني؟. "وأنا لا أستطيع أن أجيبها لأن حبّي لها أقوى من الكلمات.

– "إذا ما كنت سعيدا حقا فادعني إلى بيرة أخرى. "... قالت جانين.

– "إشربي ما تشائين." قلت لها بحماس، ثم صفقت مطالبا لها بواحدة أخرى. ملأت كأسها حتى فاض، ثم ضربته بكأسي وصاحت مزهوة:

– "على صحتك أيها الملعون."...

– "على صحتك يا جانين العزيزة!" قلت.

جانين العزيزة؟! هل أنا قلت هذا حقاً؟! يا إلهي... يبدو أنني بدأت أهذي وأن الكونياك أخذ يفعل مفعوله، وإلاّ كيف أتفوه بمثل هذا الكلام... أنا الذي أقسمت ألاّ تسمع امرأة مني كلمات رقيقة غير روزالي. روزالي التي وعدتها ساعة الوداع أنني سأظل وفيا لها حتى آخر لحظة من حياتي. لكن لا يهم. لا يهم. أنا راحل، وأبدا لن أعود إلى هذه المرابض الموحشة ثم أن كلام الليل يجرفه النهار كما تقول خالتي محبوبة. وفوق ذلك، ربما يكون من الأفضل أن أُظهر أحيانا بعض الود لكائنات معذبة ووحيدة مثل جانين. ولكي لا أضيع في متاهات لا طائل من ورائها – عليّ منذ هذه اللحظة أن أركز على شيء واحد: التحالف مع جانين. نعم، التحالف مع جانين حتى أكسب معركة الليلة الأخيرة. ولقد علمتني التجارب السابقة أن جانين تقدس مواثيق الشرف، ولا تخون حلفاءها أو أصدقاءها في ساعات الشدة مثلما يفعل الكثيرون هذه الأيام. وإذا ما أنا نجحت في ذلك، فسوف أقي نفسي شرّ هؤلاء الأوغاد الذين سيزدادون شراسة كلما تقدم الليل، وأمعنوا في السكر والعربدة. ومُحْتَمَلٌ أن يحاولوا الإعتداء عليّ بالضرب أو إلقائي خارج البار. وعندئذ سوف تتصدى لهم جانين مثل لبؤة. أنا واثق من ذلك. وكعادتها عندما تحتدم المعارك، سوف تخدش وتلطم وتعضّ وتمرّغ الرؤوس الصلعاء في منافض

السجائر. لذا هم يهابونها ويتجنبون التصادم معها. حتى تلك الداهية جوزيفين التي قيل لي أن جدّها مات وهو يقبل الصليب المعقوف، لا تجرؤ على رفع صوتها متوعدة حين تغضب جانين وتأخذ في الضرب على الطاولة بكلتا يديها. انتظروا ايها السفلة الفجرة حتى تسكر جانين جيّدا، وتحمر عيناها، ويتورم وجهها، ويغلظ صوتها، وعندئذ سوف ترون العجب العجاب...

– كأسك يا جانين العزيزة...

– على صحتك أيها الملعون الطيب القلب... هاه هاه هاه هووووه... آ... ها قد بدأت تتجاوب مع مخططاتي، وتفتح لي قلبها. بعد حين سوف أشرع في استفزازهم، نعم سأفعل ذلك ولن أخشى أحدا. وما دمت قد عقدت تحالفاً مقدّساً مع جانين، فإن كل شيء سيكون على أحسن ما يرام. تعالوا ايها الأوغاد. يا أبناء الشيطان. لقد آن أوان المبارزة. وأنا قادر أن أفنيكم الواحد بعد الآخر، أو كلكم في رمشة عين حتى يستعيد الكون بهاءه، والحياة معناها. ثم أرحل نهائيا إلى مدينة روزالي النائمة بين البحرين... **وإذْ قال موسى لفتاه لا أبرحُ حتى أبلغ مَجْمَعَ البحرين أو امضي حُقُبا. فلمّا بلغا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نسيا حوتَهُما فاتخذ سبيله في البحر سَرَبًا. فلما جاوزا قال لفتاه ءَاتِنَا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نَصَبا. قال أرأيتَ إذ آوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوتَ وما انسانيه إلاّ الشيطان أن أذكره واتّخذَ سبيلَهُ في البحر عَجَبا. قال ذلك ما كُنّا نبغِ فارتدّا ءاثارِهِمَا قَصَصاً** .أوف... ها أنا أنخرط في الهذيان مجدّدا. ولكن على أية حال، ليس هذا بالأمر السيىء، بل دليل قاطع على أن الذاكرة لا زالت تشتغل، وقادرة على استحضار الماضي البعيد، البعيد، أيام كنت أتردد على "ضريح أبي زمعة البلوي" في أطراف مدينة "قاف" وأنا في السابعة من عمري، لأستمع إلى شيوخ بعمائم بيضاء يرتلون القرآن وينشدون "البردة" على ضوء الشموع بينما أبي ورجال آخرون يبكون من فرط التأثر. ورغم أنني لم أكن أفقه شيئا مما كنت أسمع، فإنني حفظت عن ظهر قلب ذلك الكلام العجيب الذي كان يردده الشيوخ. ولما اكتشف أهلي ذلك أصيبوا بالذهول. وبنصيحة من خالتي محبوبة، علّقت أمي تميمة في رقبتي وطافت بي سبع مرات حول ضريح أبي زمعة البلوي وهي تحمدل وتبسمل اتقاء شر العيون وحسد الحساد. وأمّا أبي فقد طاف في الحي مفاخراً بي قائلا لكل من يعترضه: "سيكون لأبني شأن عظيم... نعم سيكون له شأن عظيم

لأنه حفظ كلام الله عن ظهر قلب بالسماع!" وفي النهاية، خيّبت ظنه، ومات وهو يتجرع مرارة هزائمي وفشلي. غير أن هذه قصة أخرى، أفضل عدم الخوض فيها الآن..

- كأسك يا جانين العزيزة!

أكيد أنهم مرتعبون الآن بدليل أنهم أدخلوا رؤوسهم الصلعاء بين أكتافهم. من المؤكد أنهم يرجفون الآن. بل لعلّ البعض منهم بالوا في سراويلهم خوفا من بطشي وبطش جانين. كم هم بشعون عندما يقهرون ويذلّون. لا. لكن هم بشعون في جميع الأحوال. وأنا الليلة عازم على تصفية حساباتي معهم نهائيا بعدها أفر إلى روزالي. روزالي التي أنستني كارلا الهولندية وحبي الفاشل لها وأيام العذاب الأخيرة معها. أذكر أنها هتفت لي عقب أربعة أسابيع من الصمت التام لتقول لي بصوت بارد: "لا بدّ أن نلتقي اليوم في الساعة السادسة مساء."

- "أين؟" سألتها، "في نفس المقهى الذي التقينا فيه أول مرة" قالت. وبرغم الجفاء الواضح الذي به كلمتني، فإني ركضت إلى المقهى، ونفسي ترقص جذلى. وجدتها جالسة في نفس المكان الذي كانت جالسة فيه لمّا رأيتها أول مرة. انحنيت لأقبلها، فأبعدت وجهها عني. مادت الأرض تحت قدمي وأحسست بدوار كاد يفقدني توازني. علقت معطفي الرمادي في المشجب، وجلست. نظرت إليّ طويلا، ثم قالت:

- اسمع... أنا الآن فهمت لم كنت أحزن كثيرا بعد أن أنام معك. أتدري لماذا؟

- لا...، قلت.

- لأنك أنت الأمير العربي الذي نبحني في صقلية أيام حكم فريدريك الثاني ثم فرّ إلى تونس..

كنت أعلم منذ بداية علاقتي بها أن كارلا تؤمن بتناسخ الأرواح غير أنني لم أكترث بذلك إذ أن حبّي الجنوني لها أعمى بصيرتي عن كل مساوئها، وصرف ذهني عن كل ما يمكن أن يجعلني أفكر أنها ربما ليست الملاك الذي أضاء عتمة غربتي. وأذكر أنها قالت لي عقب أسبوع من تعارفنا، أنها كانت ذات مرة أميرة جرمانية، عاشت في صقلية زمن الإمبراطور فريدريد الثاني، وأنها عشقت أميراً عربيا وتزوجته غير أنه نبحها من الوريد إلى الوريد بسبب الغيرة ثم فرّ إلى تونس. وأضافت بأنها كانت أيضا فان كوخ وفريدا كاهلو ومارلين مونرو وبلقيس ملكة

اليمن. وظلت تردد هذا الكلام غير أنه كان يدخل من الأذن اليمنى ويخرج من الأذن اليسرى أو العكس بالعكس. ولا بد أن أقول بأنني لم أستغربه كثيرا، ولم أجد فيه ما يمكن أن يولّد الشك أو الإرتياب ذلك أن خيال كارلا كما اتضح لي منذ البداية كان من الثراء والسّعة. بحيث يمكن أن يبتكر خوارق وعجائب لا مثيل لها. ثم اني قلت وأنا أنصت إلى كارلا وهي تروي حيواتها الماضية. بأن الإنسان في هذا العصر الذي لم يعد يقدّم شيئا للناس يمكن أن يساعدهم على الخلاص من شقائهم ومحنهم، بحاجة إلى ملجأ ما، حتى ولو كان هذا الملجأ من نسج الخيال والأوهام. ولعلّ كارلا اهتدت إلى تناسخ الأرواح لكي تنسى أمّها التي تكرهها كثيرا كما لم تكره كائنا آخر في الدنيا، والتي ترفض رفضا قاطعا أن تسميها "امي" بل "زوجة أبي." وأنا كنت أعتقد في البداية أن أمها ماتت أو انفصلت عن ابيها، غير أنها فاجأتني ذات يوم بالقول بأن المقصود بزوجة أبيها هي زوجة أبيها التي أنجبتها. "يعني هي أمك الحقيقية هذه التي أنت تسمينها زوجة أبي؟" سألتها. وردّت هي غاضبة: "هي زوجة أبي التي أنجبتني قلت لك... أليس هذا كافيا؟!" حسنا "قلت أنا وصمتُ. ومرّة أخرى استوضحتها عن سبب كرهها لزوجة أبيها التي هي أنجبتها، صاحت بنبرة حازمة:

– "هذا أمر يخصّني وحدي ولا يمكنني أن أتحدّث به لأحد!"

ظلت الأمور على هذه الصورة، هي تروي لي وقائع حيواتها الماضية بكل ما فيها من تفاصيل، وأنا أنصت إليها دون أيّ تعليق، إلى أن قالت لي ذات ليلة:

– "يبدو أنك لا تصدق ما أقول."...

– "بلى!" قلت لها ثم صمتُ. وفي تلك اللحظة بالذات، أحسست بأن زهرة حبّنا بدأت تذبل وتموت. بعدها أخذت لقاءاتنا تتباعد. وعقب كل مرة أجامعها فيها، كانت كارلا تنخرط في بكاء لا يكاد ينتهي. وعندما أحاول مواساتها أو استفسارها عن سبب ذلك، كانت تدفعني عنها بعنف، ثم تخرج من الشقة مثل عاصفة.

– "هل فهمت الآن سبب بكائي؟" سألتني كارلا...

– "لم أفهم"... أجبت.

– "هذا أمر يخصّك" قالت. ثم نهضت. دفعت ثم أضافت: "عمّا قريب ستصلك مني رسالة... لا أريد أن تهتف لي فأنا جد مشغولة هذه الأيام!"

بعد يومين وصلتني منها رسالة تقول لي فيها بأن علاقتنا يجب أن تنتهي...

وتهت أنا في بارات المدينة أداوي فشلي وخيبتي بالكحول والسهر الطويل...

- "كأسك يا جانين العزيزة...!" هاه هوه هاه هوه هاه هووه أيها الأوغاد. الليلة سأصفّي حسابي معكم نهائيا. بعدئذ لن تروا خلقتي. وأنت أيها الجبان توماس... لماذا تتصنّع اللامبالاة، وتنظر إلى الشارع؟! أنظر إليّ أنا، وفي عيني تحديدا إذا ما كنت رجلا حقيقيا. غير أنني أعرف أنك لن تجرؤ على ذلك. إن جانين سوف تلقي بخصيتيك لقطط الليل إن أنت انفعلت وكسّرت كأسا واحدة احتجاجا على ضحكاتي... هاه هاه هاه هووه هيه هيه هيه... وأنت أيها العجوز الماكر ألفريد... لماذا تتململ قلقا؟! ألا يروق لك هذا الوئام الذي بيني وبين جانين؟! فلتذهب إلى الجحيم. فأنت على أية حال لست مهما بالنسبة لي. بنفخة واحدة أستطيع أن أرمي بك في المهاوي... هه هوه هاه هاه هيه هيه هيه...

- كأسك يا جانين العزيزة... !

- أنت حقا رائع هذه الليلة... هيه.. هيه..هيه..هيه..هيه..هاه...

لكن يبدو أنه من الأفضل أن أهدأ. الليل طويل. وعليّ ألاّ أستفزهم مبكرا. إنهم ماكرون، وربما في غفلة مني، ينجحون في حبك مؤامرة ضدّي، تحطم رقبتي، وتُطَوِّحُ بجسدي المنهدّ في الظلمات الغارقة في المطر. لا. لا. لا بد من الإحتياط. إنهم ذئاب حقا. وأنا انشغلت بأمور أخرى في مدينة "قاف" ولم أتعلّم جيّدا فن التكتيك والإستراتيجيا. والليل طويل خصوصا في هذه المدينة التي إلتَهمت عشر سنوات من عمري. وعليّ أن أحتاط وأن أزن كل كلمة أنطق بها حتى لا أجبر في النهاية على تجرّع سمّ الهزيمة مرة أخرى... وفيها اشتد الغلاء، فاكل الناس المَيْتَة، والكلاب والسّنانير، فقلّت الكلاب والسّنانير بعد أن كانت كثيرة. ومن العجب أن السلّق والجزر والشلحم بيع كل خمسة أرطال بدرهم، وهذا ما لم يُسمع بمثله. فإن الدنيا ما زالت قديما وحديثا، إذا غلت الأسعار، حتى جاء المطر رخصت، إلاّ هذه السنة فإن المطر ما زالت متتابعة من اول الشتاء إلى آخر الربيع، وكلّما جاء المطر غلت الأسعار. ومن عجيب ما يحكى أن السكر النادر الأسمر كان كل رطل بدرهم وربع، وكان السكر الأبلوج المصري النّقي كل رطل بدرهمين، فصار السكر الأسمر كل رطل بثلاثة دراهم ونصف، والسكر الأبلوج كل رطل بثلاثة دراهم وربع، وسببه أن الأمراض كثرت واشتدّ الوباء، وقالت النساء: "هذه الأمراض باردة والسكر الأسمر حار

فينفع منها، والأبلوج بارد يقويها. وتبعهن الأطباء، استمالة لقلوبهن، ولجهلهن، فغلا الأسمر بهذا السبب. وهذا من الجهل المفرط.. ومن الجهل المفرط أيضا أن أنا لم أتّعظ بما جاء في تلك المدوّنات القديمة التي كنت بها شغوفا في مدينة "قاف" وأن أرتكب حماقات تؤدي بي إلى التهلكة أو إلى العار. وقد يكون التحالف مع آخرين ضروريا حتى أضمن لنفسي انتصار الليلة الأخيرة. جانين وحدها ليست كافية لشن معركة حاسمة ضد أكثر من عشرة سفلة على استعداد دائم لمحوي من الوجود. بمن أستعين يا ترى؟! بمن؟! بمن؟! جيورجيو؟! هو هناك في الركن رأسه بين يديه، والسيجارة تلو السيجارة، والكأس الثالثة فرغت وواضح أنه لا يجرؤ على طلب الرابعة. أكيد أنه مفلس كعادته، وأن ما أعطته له تلك العجوز الشمطاء سابينا لقاء إرضاء تصابيها مرة كل أسبوع، قد نَفَدَ. يكفي أن ادفع له ثمن الكأس الثالثة حتى يكون إلى جانبي وتنهار قلاع روما الحصينة. صحيح أنه مراوغ وشرير. لكن ما شأني أنا بكل هذا ما دمت بحاجة ماسّة إلى من يعينني على ترويعهم وكسر شوكاتهم هذه الليلة. ثم أن جيورجيو خبير بمعارك الليل. وكم من مرة جاء إلى بار "جوزيفين" بخدوش في وجهه، وبكدمات زرقاء حول عينيه. وقد بلغني أنه ماهر في استعمال السكين.. آه.. سكين في صدر ذلك الماكر توماس. وجيورجيو إبن الجزيرة التي أنجبت أجمل القتلة، يمدّها لي ملطخة بدمه، فاغرسها ثانية في صدره حتى أكون على يقين أنه لن يدبّ على وجه البسيطة مرة اخرى أبدا. أبداً. أفعل ذلك حينا يا عزيزي جيورجيو حتى يبرد قلبي، وترتاح نفسي، فأنت الأقرب إليّ من جميع هؤلاء بحكم الجغرافيا. أنسيت أن جزيرتك ذات الملامح الأفريقية والتي أنجبت أجمل القتلة في هذا العصر، لا تبعد سوى بضعة أميال عن الذراع الذي يمدّه بلدي داخل البحر؟! ليس بحكم الجغرافيا، بل بحكم التاريخ أيضا.. حنبعل وجيوشه التي قطعت جبال الألب والبريني. قرطاج أعتى امبراطورية في زمنها. والمعلم القصير المدور المفلطح الوجه يشير بالمسطرة إلى الجزيرة في الخارطة الكبيرة المعلقة أمامنا ويسألنا بصوته الأجش:

– ما إسم هذه الجزيرة يا أولاد؟

– صقلية سيدي! نجيب نحن بصوت واحد.

– حسنا... قولوا لي ما الذي تعرفونه عن هذه الجزيرة؟

صمت تام. يكفهر وجه الأستاذ المفلطح، ويصيح فينا وبصاقه يتطاير:

– كيف لا تعرفون عنها شيئا؟!

نخمد نحن خُمود القنافذ في الدغل حين تستشعر اقتراب كلاب الصيد. ينظر هو إلينا وقد ازدادت ملامحه اكفهراراً ثم يصيح ثانية:

– أيها الجهلة... كيف لا تعرفون أن العرب حكموا هذه الجزيرة على مدى قرون طويلة... تماما مثلما فعلوا مع الأندلس... ألا تعرفون هذا؟!

– لا سيدي! نقول نحن بصوت واحد.

يتهالك هو على الكرسي وقد تبلل وجهه المفلطح بالعرق. يظل صامتا لحين ثم يقول بصوت مفعم بالمرارة:

– خسارة يا أولاد... النار تخلف الرماد... أجدادكم حكموا العالم... أما أنتم فعاجزون حتى عن تذكر ذلك!

يشعل سيجارة، ثم ينهض من جديد. لدقائق، يظل يروح ويجيء فوق المسطبة الخشبية نافخا دخان سيجارته، بينما نحن صامتون وكأن على رؤوسنا الطير. بعدها يواجهنا وقد لانت ملامحه قليلا ويقول:

– عليكم أن تكونوا فخورين بمدينتكم هذه يا أولاد لأن الذي فتح جزيرة صقلية واحد من أبنائها.. أتعرفون من هو؟

صمت تام مرة أخرى.

– حتى هو لا تعرفونه..يا للمصيبة! يا للجهل! ثم بصوت غاضب:

– ألا تعرفون أسد بن الفرات؟!

عندئذ ينتفض ذلك الوغد جمعة ويصيح مزهوّا وقد احمر وجهه حتى أصبح مثل الفلفل الحار الذي يسميه أهل مدينة قاف: "قلب الديك":

– أنا أعرفه سيدي!

– كيف تعرفه؟! يقول له المعلم بنبرة تدلّ أنه ليس مقتنعا أبدا بما يسمع... وبنفس الزهو، يقول جمعة:

– الشارع الذي فيه بيتنا يحمل هذا الإسم...

نضع نحن أيدينا على أفواهنا محاولين كتم الضحكات المجلجلة التي توشك أن تنفلت منا. ينظر إليه المعلم وكأنه ينظر إلى حشرة بالغة القبح والقذارة ثم يقول له:

– يبدو أن حماقتك تزداد استفحالا يوما بعد يوم يا جمعة! ثم يأمره بالجلوس، فيجلس هو وقد بانت عليه المذلة والمسكنة. وأفرح أنا فرحا شديدا واتضرع للولي

ابي زمعة البلوي ولجميع الرسل والأنبياء أن يرتكب حماقة أخرى حتى يسمعه المعلم وسخ أذنيه. وعندما يحس هو أنني في غاية السعادة بسبب المهانة التي لحقت به، يشير لي في غفلة من المعلم إشارة أفهم منها أنه سوف يمرغ رأسي في التراب، فتُطفئ سعادتي في الحين وتسري في جسدي برودة الخوف. غير أنني سرعان ما أنسى ذلك حالما يشرع المعلم في سرد قصة فتح صقلية...

في سنة اثنتي عشرة ومائتين جهّز زيادة الله جيشا في البحر، وسيّرهم إلى جزيرة صقلية، واستعمل عليهم أسد بن الفرات، قاضي مدينة "قاف." وهو من أصحاب مالك. وضيّق المسلمون على الجزيرة، فوصل أسطول من القسطنطينية فيه جمع كثير، وكان قد حلّ بالمسلمين وباء شديد سنة ثلاث عشرة ومائتين، هلك فيه كثير منهم، وهلك فيه أميرهم أسد بن الفرات. ولما رأى المسلمون شدة الوباء ووصول الروم، تحمّلوا في مراكبهم ليسيروا، فوقف الروم في مراكبهم على باب المرسى فمنعوا المسلمين من الخروج. فلما رأى المسلمون ذلك أحرقوا مراكبهم وعادوا، ورحلوا إلى مدينة ميناو، فحاصروها ثلاثة أيام، وتسلّموا الحصن، فسار منهم إلى حصن جرجنت، فقاتلوا أهله، وملكوه، وسكنوا فيه، واشتدت نفوس المسلمين بهذا الفتح وفرحوا. ووصل جيش كثير من القسطنطينية مَدَداً لمن في الجزيرة، فتصافوا هم والمسلمون، فانهزم الروم، وقتل منهم خلق كثير. ثم أن سريّة من المسلمين سارت بالغنيمة، فخرج عليها طائفة من الروم فاقتتلوا، وانهزم المسلمون، وعادوا في الغد، ومعهم جمع من العسكر، فخرج إليهم الروم، وقد اجتمعوا، وحشدوا وتصافّوا مرة ثانية، فانهزم المسلمون أيضا، وقتل منهم نحو ألف، وعادوا إلى معسكرهم، وخندقوا عليهم، فحصرهم الروم، ودام القتال بينهم، فضاقت الأقوات على المسلمين، فعزموا على بيات الروم، فعلموا بهم، ففارقهم الخيم، وكانوا بالقرب منها، فلما خرج المسلمون لم يروا أحدا. وأقبل عليهم الروم من كل ناحية، فأكثروا القتل فيهم، وانهزم الباقون، فدخلوا ميناو ودام الحصار عليهم حتى أكلوا الدواب والكلاب. ثم أقبل أسطول من الأندلس، خرجوا غزاة، ووصل في ذلك الوقت مراكب كثيرة من أفريقية مددا للمسلمين، فانهزم الروم عن حصار المسلمين، وفرّج الله عنهم. ثم سيّر أبو الأغلب سنة إحدى وعشرين ومائتين سريّة إلى جبل النار

ايضا، فغنموا غنائم عظيمة، حتى بيع الرقيق بابخس الاثمان، وعادوا سالمين. ثم كانت وقعة اخرى بين الروم والمسلمين فانهزم الروم، وغنم المسلمون منهم تسعة مراكب كبار برجالها وقائدها، فلما جاء الشتاء واظلم الليل راى رجل من المسلمين غِرّة من اهل قصر يانة، فقرب منهم، وراى طريقا، فدخل منه، ولم يعلم به احد، ثم انصرف إلى العسكر، فاخبرهم فجاؤوا معه، فدخلوا من ذلك الموضع وكبّروا، وملكوا ربضة، وتحصّن المشركون منهم بحصنه فطلبوا الأمان فامّنوهم، وغنم المسلمون غنائم كثيرة وعادوا إلى بلدهم... ولكن يا عزيزي جيورجيو مالنا وهذا الماضي القديم؟! لننس كل هذه الدماء، وهذه الأحقاد، وهذه الحروب، ولنتصالح هذه الليلة، فأنا منذ زمن بعيد، وتحديداً منذ سن السابعة عشر عندما دخلت المرحاض في المعهد الذي كنت أرتاده ودخّنت سيجارة في أول يوم من رمضان، كنت قد قطعت نهائيا مع هذا الماضي وبكل ما يتصل به من أمجاد أو من هزائم. ولا تصدق أبدا أنني أمير عربي عاش في جزيرتك ذات مرة وسبا النساء، وذبحهن من الوريد إلى الوريد تحت تأثير الغيرة كما تزعم كارلا الهولندية وإنما أنسان وحيد، أعزل، بلا جذور، بلا وطن، بلا هوية. أنا فقط هذا الكائن الذي أنت ترى، بهذا المعطف الرمادي وهذا الإشارب الأخضر الباهت اللون وهذه القبعة السوداء وهذا الدفتر الذي يحتوي على بعض من خواطري وهلوساتي وكوابيسي. نعم أنا فقط هذا الكائن الذي أنت ترى.

– بيرة إلى العزيز جيورجيو! صحت عاليا.

انتصبت أذنا جيورجيو مثل أنني كلب يفاجئه نداء سيّده، وطافت عيناه في أرجاء البار باحثتين عن مصدر الصوت. رفعت يدي وصحت فيه:

– تعال يا جيورجيو... تعال... أنا الذي أدعوك...

هرع إليّ مبصبصاً بذيله...

– أنت دائما تخجلني بكرمك... وعليّ أن أردّ الجميل ذات يوم.. نعم.. نعم.. سأفعل ذلك.. تأكد.. ثم لا بدّ أن أقول لك أنني حزين هذا اليوم أكثر من كل الأيام... فقد وصلتني رسالة من أمي تعلمني فيها أنها مريضة... وربما تموت وأنا بعيد... وقبل أن آتي إلى هنا، طفت في جميع أرجاء المدينة طارقا أبواب الأصدقاء غير أنهم اعتذروا جميعا عن مساعدتي... إلهي... كم أصبح الناس أشراراً

وانانيين... ولكن أنت رجل طيب وكريم النفس. وأنا متأكد من أنك سوف تكون سعيدا ذات يوم...

– ومن قال لك أنني لست سعيداً الآن؟!

– لا... لا... أعرف ذلك وأراه واضحا في عينيك وفي ملامحك... لكن أنا اقصد... أقصد...

– هيّا إشرب كأسك بسرعة ولا تتعب نفسك فلقد فهمت ما تقصد...

– هيه.. هيه.. هيه.. أنت حقا رجل طيب وطريف. قال، ثم أفرغ كأسه في جرعة واحدة...

الوغد! لا يستحي؟! مرة قال لي وعيناه مبللتان بالدموع أن أمه ماتت وهو لا يزال في سن الرضاعة. ومرة أخرى قلت له أنا متحمّسا بأنني أحب الروس، وخاصة راسبوتين، فقال لي أن جده من الأب روسي جاء إلى صقلية بعد ثورة البلاشفة. بعد ذلك بساعات فقط، التقينا فتاة سويدية مفتونة بباريس، فقال لها أن والده من أصل فرنسي. أوه... إنه شخص مقيت حقا. وأنا اتمنى أحيانا أن يشنق في الساحة العامة بسبب كل هذه الأكاذيب التي يختلقها في كل لحظة. لكن لا يهم... لا يهم. أنا بحاجة إليه هذه الليلة وغدا سوف أكون في مدينة روزالي وامحوه نهائيا من ذاكرتي. عليّ أن أتحمّله لبضع ساعات فقط. ثم أن عيوبه واكاذيبه لا تهمني إطلاقا. ما أريده هو أن ينتقم لي من أوغاد هذا البار، بل من جميع أوغاد شارع "الأتراك." آ.. على فكرة لم سمّوه بهذا الإسم؟ عندما جئت إلى هذه المدينة، كنت أعتقد أنني سوف أجده زاخرا بالأتراك المهاجرين، غير أنني لم أرَ فيه على مدى السنوات التي أمضيتها هنا غير تركي واحد قارب السبعين، سقط شعره وأسنانه. وعادة ما أراه يدبّ ببطء السلحفاة، ملتفّا في معطف بال، كالح اللون، معتمراً قبعة متآكلة الحواشي. وقد بلغني أنه كان يعمل طباخا، ثم احيل على المعاش غير أنه لم يرغب في العودة إلى قريته قرب أزمير لأنه يعشق البيرة البيضاء، ويريد أن يموت وهو يعبّ منها. إنه بحق مواطن مثالي في جمهورية اتاتورك اللا ئكية. وكنت أعتقد أيضا عندما جئت إلى هذه المدينة أنني سوف أعثر في شارع "جوتة" على مكتبات ومتاحف وأشياء أخرى من هذا القبيل تُذكّر بصاحب "فاوست" غير أن خيبتي كانت بلا حدود ذلك أنه لم يكن في شارع "جوتة" اي شيء من كل هذا. فقط محلات تركية بشعة، وباعة الكباب الرديء، وأتراك

يثرثرون بأصوات عالية وتركيات قصيرات سمينات، قاسيات الملامح. لكأنني في الأناظول. آه يا لحظ جوته العاثر! لو قُيِّضَ له أن ينهض من قبره، ويأتي إلى هذا الشارع الذي يحمل إسمه، لأنكر ذلك الشرق الذي طالما تغنى به، الشبيه عنده ببستان فسيح ليس فيه غير الورد والشعر والجمال... لكن مالي ومال جوته الآن. عليَّ فقط أن أركز على جيورجيو حتى يشفي غليلي هذه الليلة ويطرح جميع أعدائي أرضا. وليكذب ما شاء له أن يكذب، فأنا لست معنيا بكل هذا. ما يعنيني هو أن يركل ويلكم وربّما يشهر في وجوههم الحاقدة البغيضة ذلك السكين الذي أكد لي البعض أنه يخفيه دائما في حزامه. لكن.. لا.. لا. لا أريد سكاكين فأنا لا أطيق أن أرى دماء وجثثا مشوهة ورؤوسا مقطوعة. لا أطيق أن أرى ذلك إلاّ في أفلام قصص رجال المافيا. ويبدو لي أنني شاهدت فيلم "العراب" أزيد من عشر مرات. وفي كل مرة أجد نفسي مشدوداً إليه من البداية إلى النهاية. وعلى أيّة حال، لست العاشق الوحيد لأفلام قصص المافيا. ٩٩٪ من سكان الكون هم كذلك. والذين يدينون بشدة جرائم عصابات المافيا، ويندّدون بها ليل نهار هم في المقدمة. ربما لأن جدّ الجميع قابيل وليس هابيل... **وقال بعض أهل العلم: إن أخت قابيل كانت من أحسن الناس فضنَّ بها على أخيه وأرادها لنفسه، وانهما لم يكونا من ولادة الجنة إنما كانا من ولادة الأرض، والله أعلم. فقال له أبوه: يا بني فقرّب قرباناً ويقرّب أخوك هابيل قربانا فايكما قبل الله قربانه فهو أحقّ بها. وكان قابيل على بذر الأرض وهابيل على رعاية الماشية، فقرّب قابيل قمحاً وقرّب هابيل أبكاراً من أبكار غنمه. وقيل: قرّب بقرة. فارسل الله ناراً بيضاء فاكلت قربان قابيل وتركت قربان هابيل، وبذلك كان يُقبل القربان، إذ قبله الله. فلما قبل الله قربان هابيل وكان في ذلك القضاء له باخت قابيل. غضب قابيل وغلب عليه الكبر واستحوذ عليه الشيطان وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح** أختي... وأنا متأكّدٌ من أنه لو قبل الله قربان قابيل ورفض قربان هابيل لفعل هابيل بأخيه قابيل ما فعله هذا به. وفي هذه الحالة، من الذي نتهم؟! أوه... لكن هذه قصة تصدع الرأس. وأنا لست على استعداد ان أورط نفسي في متاهاتها وشعابها. وكما سبق أن قلت، أنا لا أطيق أن أرى هذه الليلة دماء وجثثا مشوهة ورؤوسا مقطوعة. ما أبتغيه هو أن أرعب أعدائي ثم أرحل. أرحل باتجاه روزالي والبحر والنوافذ الزرقاء المحدّبة وأترك لهم الضباب، الأمطار، الوحشة، مؤخرة

جوزيفين، رائحة جانين، أكاذيب جيورجيو. سأترك لهم كل هذا وأمضي. آه امضي! ما أجمل الغروب على البحرين بينما البواخر تتهادى مضمخة بعطر الأندلس والبحارة يستعدون لمشوار الليل...

– "على صحتنا جميعا!" صاحت جانين وهي تضرب كأسها بكأسي وبكأس جيورجيو الذي نسي في الحين أمه المريضة، وإفلاسه، وجميع همومه الأخرى، وبدا بشوشا، مرحا. حسنا.. حسنا... بديع أن أكون أنا وحليفيّ في وئام كهذا حتى يتعذّر على الأعداء اختراقنا، وتقويض وحدتنا الصمّاء. ثم أن وئامنا يهدّمهم، ويفشل مخططاتهم العدوانية و يزيد في اضطرابهم وتوترهم. العجوز الفريد مثلا الذي نجا من معركة "النورماندي" سدّ أذنيه بالقطن تجنبا لسماع نكاتنا وضحكاتنا. السّفيه كلاوس يعض على شفتيه طول الوقت، وترتعش يده كلما أمسك بكأسه. المخادعة جوزيفين فقدت حيويتها تماما، وبدت ثقيلة الحركات، متدلّية الشفتين وكأنها تستعد للبكاء. أما ذلك المحتال توماس فقد دفن رأسه في جريدة مسائية متصنّعا الإهتمام بأحداث العالم. غير أني أعلم جيّدا أنه يحترق من الغيظ. فليحترق. بل ليحترقوا جميعا أما أنا فلن ألين معهم أبداً. سأمعن في تعذيبهم حتى يعضوا التراب من ألم الهزيمة. يالهم من كائنات بشعة مدحورة. كان على عمال البلدية أن يحملوهم مع النفايات والأوساخ بعيداً عن المدينة. قد تقولون لي لم كل هذه القسوة؟ وأجيبكم على الفور، ما الفائدة من كائنات كهذه تزداد تعفنا في كل لحظة وسط مرابض موحشة، ولا تعرف لا النور، ولا البحر، ولا النوارس، ولا نجمة الصبح، ولا نساء مثل روزالي. كائنات تبصق، وتتقيّأ ما تأكل أوما تشرب، وتنزف قبحا وسُمّا طول الوقت. على حماة البيئة الذين صعدوا إلى السلطة في هذا البلد أن يدركوا أن سبب هذا التلوث الخطير الذي يهدد البشرية بأسرها بكارثة لا مثيل لها هم هؤلاء. نعم هؤلاء. وليس غازات السيارات والمعامل والنفايات النووية... هراء!

دخل ماكسيميليان...

لست أدري ما سبب ذلك، غير أنني أشعر أن ماكسيميليان هو صديقي السرّي، مثلما أن إدوارد هو صديقي العلني. نحن لا نلتقي إلاّ لماما، ولا نتحدّث إلاّ قليلا مع ذلك أنا أعتقد أن كل واحد منا يحسّ أننا على نفس الخط. هو يحبّ أساطير الشرق القديم. أساطير الكنعانيين والبابليين والفرس. وأنا أيضا، ومرة

تحدّثنا حول فلاسفة الإغريق واتفقنا على أن كتاب "المائدة" هو أروع أثر خلّفه هؤلاء. وهذا كان أول شيء جمع بيننا. بعدها اكتشف كل واحد منا أن للآخر نفس الميول الموسيقية والفنية والأدبية. وهذا ما زاد في توثيق الصلة بيننا. وقد دعاني ماكسيميليان إلى البار الفاخر الذي حجز فيه طاولة بإسمه منذ سنوات عدّة، لذا هو يأتيه كل ليلة تقريبا. بار له أبهة وفخامة أشهر البارات في باريس ولندن او روما يرتاده المشاهير من أهل الفن والمسرح والسينيما، وفيه رأيت أجمل النساء في هذه المدينة. وقد أحببت هذا البار كثيرا غير أن جيبي لا يحتمل. ثم أني لا أريد أن اثقل على ماكسيميليان الذي ما أعرف أحدا هنا يعادله في الكرم إلاّ إدوارد التّيرولي.

ولماكسيميليان جانبية خاصة تجعله يدخل إلى القلب بسرعة. فهو يتقن فن المجادلة والصمت أيضا إذ أنه يتوقف دائما عن الكلام كلما استشعر انه لم يعد للكلام معنى. وهو يتمتع بقدرة فائقة على المحافظة على رباطة جأشه في المواقف الأشد حرجا. في عينيه الزرقاوين لمعان أخاذ يشي بذلك التوهج الداخلي الذي به يتميّز الموهوبون. وبالرغم من أنه تجاوز الخمسين، فإن وجهه لا يزال محتفظا بملامح طفولية ما أظن أن الشيخوخة الزاحفة بسرعة بقادرة على محوها. أما صوته المتبّل بالفودكا والسهر الطويل، فله رنين معدني آسر. غير أن أكثر شيء يستهويني في شخصية ماكسيميليان هو سخريته اللاذعة ودعاباته السوداء التي لا تكاد تنقطع وضحكته الخافتة الشبيهة بخشخشة الأوراق الميتة، ونفوره الشديد من الجنائز والمواكب الرسمية ومن جموع أيام الأحد. إنه "ذئب البوادي" بامتياز كما قال إدوارد التّيرولي الذي يعرفه منذ أيام الدراسة في أكاديمية الفنون الجميلة. عندما مات صديقنا المشترك أغيديوس، رفض حظور دفنه. ولم يقدر أحد أن ينتقده ذلك أن الجميع يعرفون أنه الوحيد الذي دأب على زيارة أغيديوس والإعتناء به منذ أن أصابته النوبة القلبية الأولى قبل أربعة أعوام. ذهبنا نحن جميعا في الصباح الباكر إلى القرية الجبلية التي ولد فيها صديقنا. كان يوما شتائيا باردا غير أن الشمس كانت ساطعة والسماء صافية تماما. أمامنا على طول الأفق تمتد جبال الألب مكسوة بالثلوج. طول الطريق راح إدوارد التّيرولي يروي لنا بعضا من ذكرياته مع أغيديوس... أول يوم دخلت فيه إلى الأكاديمية رأيته واقفا وحيداً بعيداً عن جموع الطلبة. بدا لي شبيها براع جبلي. وفي الحين

قلت هذا سيكون صديقي. وبالفعل في اليوم ذاته أصبح صديقي. وظل حتى النهاية من أقرب الناس إلى قلبي. أجمل لحظات حياتي في هذه المدينة على مدى الثلاثين سنة الماضية كانت معه. ولم يكن لأغيديوس حظ كبير مع النساء مثلما هو الحال معي ربما بسبب خجله الريفي الذي لم يتمكن أبدا من التخلص منه. أروع قصة حب كانت تلك التي عاشها مع ماريان، وهي امرأة جميلة وأنيقة وثرية تعيش الآن في إيطاليا. لم يعشقها هي وحدها وإنما عشق كلبها أيضا. ودائما كان يشاهد في الشارع وهو يسير إلى جانبها وعلى كتفيه كلبها "بالو." ولا مرة واحدة شاهدهما الناس وهما على غير تلك الهيئة. وكما سبق أن ذكرت، كانت مريان أنيقة جداً، تشتري أرقى العطور، وتمكث في الحمام ما يقارب الساعة. أما أغيديوس الجبلي فكان ينفر من الماء ولا يغتسل إلا مرة في الأسبوع، وغالبا ما يتم ذلك تحت ضغطها. ذات يوم طرق أغيديوس باب شقتها ففتح له رجل الباب وقال له: "ماريان لا ترغب أن تراك. لكن هي تقول لك أنها مستعدة أن تهديك كلبها!" وقبل أغيديوس الكلب. وظل على مدى خمسة أعوام يشاهد في الشوارع حاملا "بالو" على كتفيه... لكن دون ماريان...

وصلنا إلى القرية الجبلية في العاشرة صباحا. لم يكن هناك في المقهى الذي جلسنا فيه غير شيوخ وعجائز يلعبون الورق. وإلى أن غادرنا المقهى، ظلوا يتهامسون: "إنهم أصدقاء أغيديوس." ثم ذهبنا إلى الكنيسة لحضور قداس الجنازة. وكانت الكنيسة باردة غير أن القس لم يرأف بنا وظل يردد الصلوات على مدى ساعة كاملة ونحن نقوم ونقعد إلى أن أوشكت روحي أن تزهق. وعندما انتهى ذلك، أدركت سبب رفض ماكسيميليان حضور الجنازة... كل الجنائز ثقيلة. غير أني أعتقد أن أثقلها جميعاً جنائز القرى الكاثوليكية. بعد عودتنا جلسنا في مقهى بشارع" الأتراك "لنكتب نص تأبين بغية نشره في الجرائد. لساعة ظللنا نتجادل حول مضمون النص. وكانت الإقتراحات كثيرة غير أن إدوارد التّيرولي رفضها جميعا رفضا قاطعا لأنها "عاطفية ومبتذلة ولا تتطابق أبدا مع شخصية الصديق أغيديوس." كثر الجدل واللغط والصياح، بل أن خصومة كادت تنشب بين إدوارد التّيرولي وصديق آخر لأغيديوس لا أعرف إسمه. وكان ماكسيميليان يتابع ما يحدث بنوع من اللامبالاة، وسيجارة "الجولواز" تحترق بين شفتيه، وكأس الفودكا يفرغ ويمتلئ أمامه. أخيرا حسم الأمر قائلا: "اسمعوا يا جماعة... ما

أظن أن صديقنا الطيب القلب أغيديوس راض عن كل هذا الهرج والمرج بشأنه وهو هناك في قبره على سفوح الجبال الباردة. ومقترحي هو أن نكتفي في نص التأبين بهذه الكلمات البسيطة":عزيزنا أغيديوس. جرابا (شراب أغيديوس المفضل) على صحّتك. وإلى اللقاء هناك!" ضرب إدوارد التّيرولي على الطاولة بكلتا يديه وصاح: "هذا كلام جميل وأنا أزكيه." ولم يلبث الآخرون أن زكوه هم أيضا. عندئذ ابتسم ماكسيميليان تلك الإبتسامة الغامضة التي اشتهر بها وقال: "الموت واضح أيها السادة. أما البشر فليسوا واضحين معه!" ثم رفع كأسه وصاح: "على صحتنا. وعلى صحة صديقنا الجميل أغيديوس!"

وقف ماكسيميليان على الكونتوار بعد أن حياني بإشارة خفيفة. إنه على عجل. أعرف ذلك. ثم أنه ليس من رواد بار "جوزيفين." وهو لا يأتيه إلاّ مرة أو مرتين في الشهر. ودائما يشرب كأسه على الكونتوار على عجل ثم يمضي. وفعلا هاهو يمضي بعد عشر دقائق فقط من دخوله. ومن المؤكد أن سبب هذه السرعة هم هؤلاء الذين أريد أن أنيقهم مرارة الحنظل هذه الليلة.

– كأسك يا جانين العزيزة... كأسك أيها العزيز جيورجيو!

لا.. لا.. جيورجيو وجانين وحدهما ليسا كافيين. لابد من حليف آخر. نعم. لابد من حليف آخر حتى إذا ما تعبت جانين ونامت على الطاولة كعادتها كلما سكرت أو انسلّ جيورجيو هاربا بحثا عن تلك الكائنات التي يقاسمها الجريمة والكذب، أو إذا... لا.. لا.. لابدّ من حليف ثالث. ذلك الرجل الخمسيني ذو المعطف الجلدي الأسود، والذي يبدو بشاربه المعقوف، ورأسه الضّخم، وقامته الفارعة شبيها بقرصان، يمكن أن يصلح لهذه المهمة. أنا أعرفه منذ سنوات طويلة. بل لعلّي أعرفه منذ وصولي إلى هذه المدينة. وأعرف أنه يحرص دائما على أن يكون أوّل من يدخل البار وآخر من يغادره غير أني أجهل إسمه. وربما كل الزبائن أيضا ذلك أنه لا يكلم أحدا. فقط من حين لآخر يهمس لجوزيفين طالبا "كوت دي رون" ثم يعود إلى صمته الأبدي. وقد تكون هناك أسباب تجعله دائم الحرص على اختيار هذا النوع من النبيذ، غير أن البحث فيه الآن غير ذي جدوى. ربما أسأله عنها حين ينشأ الودّ بيننا، وترن ضحكاتنا عاليا وسط هذا الجو القاتم، المفعم بالرذيلة. نعم عليّ أن أدعوه حالا حتى أسدّ أمامهم كل السبل، فينسحبون مغتمّين، مكروبين. ثم أنه شخص تلفه الأسرار. روبنسون كرويزوي عائدا من

عزلته الطويلة. وأنا منذ الطفولة أميل إلى أشخاص يبدون مثل غابات داكنة لم تطأها قدم بعد...

ملت على جانين وهمست في أذنها: "ما اسم صاحب المعطف الأسود؟" فأجاب جيورجيو على الفور: إنه جوزيف.

– جوزيف؟

– "نعم جوزيف. هذا كل ما أعرفه" قال جيورجيو وهو يَمْسَحُ زَبَدَ البيرة بظاهر يده..

جوزيف... قوافل صحراء سيناء... والبئر المهجورة... والقميص الذي قدّ من دبر.. والإخوة الخونة... والنّسوة اللائي قطعن أيديهن بالسكاكين من فرط جمال الفتى المجهول... لقد اكتملت الأسطورة الآن، فيا لفتنة الشرق القديم! أكيد أنهم يرغبون جميعا في التقرّب إليه، ومبادلته الحديث، وإشراكه في مؤامراتهم الدنيئة، والزجّ به في تلك الدهاليز المعتمة التي تعوّدوا العيش فيها منذ أن بدأوا يدبّون على وجه البسيطة، غير أنه ظلّ مترفّعا عنهم مثلي. وأكيد أنه مثلي يتحيّن الفرصة للإنقضاض عليهم وإفنائهم الواحد بعد الآخر. نعم. نعم. ذلك واضح من نظرته القاسية التي يلقيها عليهم من حين إلى حين.

– كوت دي رون لجوزيف! صحت وأنا في أقصى درجات الحماسة والتحدي...

وقبل أن تمد جوزيفين يدها إلى زجاجة "الكود دي رون" أشار عليها جوزيف بألاّ تفعل، ثم رمقني بنظرة شرسة انغرست في جسدي مثل سهم، وراح يتقدم مني بخطوات عسكرية، وشاربه المعقوف يحتلج مثل غيضة يخترقها حيوان مذعور، وعلى وجهه ذلك الغضب الذي نلمحه على وجوه المجرمين حين يستفزّون. حالما وصل إلى طاولتي، أشهر سبابته الغليظة في وجهي ثم صاح وهو يكزّ على أسنانه:

– لا تفعل ذلك أيها الجرذ الحقير وإلاّ فقأت عينيك!

هاه هاه هاه هوه هوه هووه هوووه هيه هيه هيييه.

ضجّ البار مرة أخرى بضحكاتهم وزعيقهم. انتظرت أن يهبّ حليفايَ لنجدتي غير أنّ شيئاً من ذلك لم يحدثْ. جانين غرست رأسها بين كتفيها وتصنّعت اللامبالاة التامة. أما جيورجيو فقد بدا يتململُ استعداداً للهرب... آه الجبناء! الخونة! الـ... ليس بمقدوري أن أعثر على الوصف المناسب لهذه الكائنات الشنيعة التي لا تسعد إلاّ بشقاء الآخرين. وعلى أية حال الذنب ليس ذنبي، ذلك أنه كان عليّ

أن أقبل منذ البداية بأنه لا فائدة تُرجى من سحاقية نتنة رعناء، ومن لصّ ليلي حقير ينتشلُ حافظات العجائز الطاعنات في السنّ، وأن أكون متهيئاً لمثل هذه المفاجآت القاتلة. لكن... أوه إنها لهزيمة مرة حقاً. بل لعلّها من أمرّ الهزائم الذي نقتها في حياتي كلها...

ما أن تحرّك جوزيف عائداً إلى مكانه حتى مرقت من البار مطأطأ الرأس بينما كانت ضحكاتهم وهمساتهم تلهب ظهري مثل السياط. في الخارج، كانت الأمطار قد كفّت عن الهطول، غير أن السُّحُب كانت تتدافع كثيفة وغاضبة. من حين لآخر كان قرصُ القمر الشّاحب يُطلُّ مذعوراً ثم سرعان ما يختفي. وكانت الشوارعُ شبه خالية. فقط بعض الأشباح الهائمة هنا وهناك. الساعة تشير إلى ما بعد منتصف الليل بقليل. عليّ أن أعود فوراً إلى الشقة لأهيّءَ حقيبتي حتى أكون جاهزاً للسفر في الصباح الباكر. أعرف جيداً أن كل الهزائم التي منيت بها في هذه المدينة سوف تمّحي حالَما تختضنني روزالي. لكن ها حميد يطلُّ من رأس الشارع، ويتجه نحوي محدودب الظهر، متثاقل الخطى مثل حيوان جريح. وعندما لم تعد تفصلني عنه سوى بعض الخطوات، صاح بي:

– أه... هو. أنت! من زمان لَمْ أرك. تعال نشرب كأساً وندردش قليلاً...

– أين؟

– في بار جوزيفين.

– مستحيل!

– لماذا؟

– لقد أقسمتُ قبل دقائق ألاّ أضعَ فيه ساقي مستقبلاً!

– حسناً... وما رأيك في الشاريفاري؟

– فكرة جيدة! قلت...

دخلنا الشاريفاري الذي لا يبعد عن بار جوزيفين سوى مائة متر. ولأنه الوحيد في الحيّ الذي يظلُّ مفتوحاً حتى الصباح، فإنّ أغلب روّاده من أولئك الذين تلفظهم البارات أواخر الليل. نساء ورجال محطمون يائسون متوحّدون مثقلون بالآلام والأوجاع يجترّون قصص الماضي البعيد، والشباب المفقود لطَرْدِ شبح الشيخوخة الزاحفة بسرعة، والموت الذي يترصّدهم في المنعرجات. وعندما يتعتعهم السكر يتقيّأون أو يرتمون في أحضان بعضهم بعضاً ويبكون بمرارة مثل

الأطفال اليتامى. وريتا هي الأشدّ وفاء لـ"الشاريفاري" حتى أنّ صاحبه خصّص لها أفضل مكان فيه. وهي عادة ما تذهبُ إليه قبل منتصف الليل بقليل بعد أن تكون قد شربتْ كأساً في بار جوزيفين، أو في ذلك البار المكسيكي الذي يوجدُ في شارع أماليان الموازي لشارع الأتراك والذي لم أفلح البتة في الإحتفاظ باسمه في ذاكرتي التي ما يزال يتكدّسُ فيها ركام هائلٌ من المدوّنات القديمة... **وأعظم الشهوات شهوة النساء. وهذه الشهوة أيضاً لها إفراط وتفريط واعتدال. فالإفراط ما يقهر العقل حتى يصرف همة الرجال إلى الإستمتاع بالنساء والجواري، فيحرمُ عن سلوك طريق الآخرة أو يقهر الدين حتى يجرّ إلى اقتحام الفواحش. وقد ينتهي إفراطها بطائفة إلى أمر شنيع كان يتناولوا ما يقوي شهواتهم على الإستكثار من الوقاع - كما قد يتناول بعض الناس ادوية تقوي المعدة لتعظم شهوة الطعام - وما مثال ذلك إلاّ كمن ابتلي بسباع ضارية وحيّات عادية فتنام عنه في بعض الأوقات فيحتالُ لإثارتها وتهييجها ثم يشتغل بإصلاحها وعلاجها، فإن شهوة الطعام والوقاع على التحقيق، ألام يريد الإنسان الخلاص منها فيدركُ لذة بسبب الخلاص..** ومنذ ان التقيتها، وكان ذلك خلال الأسابيع الأولى من مجيئي إلى هذه المدينة - وريتا تكاد تكون على نفس صورتها القديمة. لكأنّ الزمن، رأفة بها، توقف فجأةً عن إحداث المزيد من التشويهات في جسدها ووجهها. وهي حريصة دائما على أن تكون في منتهى الأناقة خصوصاً في الأيام الأخيرة من الأسبوع. وفي شبابها تزوجت ريتا من رجل ثريّ كان يكبرها بخمسة عشر عاماً، ومعه عاشت فترة من الزمن في باريس. لذا هي تتكلم الفرنسية بطلاقة، وبلكنة تجعلها أكثر إغراء وجاذبية. وقد ذكر بعضُ منْ عرفوها في ذلك الوقت أن زوجها كان يحبها حباً جنونياً، وكان يلبّي مَطَالبَهَا الكثيرة دون أيّ تذمّر أو تردد. غير أنّ ذلك لم يمنعها من أن ترتبط بعلاقات غرام مع رجال آخرين في مثل سنّها، أو أصغر منها سناً، على مرأى ومسمع منه. وهو كان يغضّ الطرف عن كل ذلك، مواصلاً حياتَهُ معها، وكأن كلّ شيء على أفضل ما يُرام. وظل على هذا الحال إلى أن سكَتَ قلبُهُ في يوم عيد ميلادها الثلاثين. بعدها تكاثر العشّاق من حولها، وراحوا يتدافعون بالمناكب من أجل الفوز بقلبها. أما هي فأمعنت في التدلّل والتمنّع، متلذّذة بتعذيبهم بشتى الطرق. وهم لم يكونوا يكفون عن الركض وراءها في الليل والنهار طامعين في كلمة

حلوة، أو في ابتسامة ودودة، أو في قبلة أو لمسة حتى ولو خفيفة... غير أن ريتا لم تكن تُعير اهتماماً. وكل يوم، بعد فطور الصباح، تقرأ على عجل رسائل الغرام الكثيرة التي كانت تصلها، ثم تلقي بها في القمامة دون أي تعليق. ويوماً ما طلعت على عشاقها متأبطة ذراع زنجي هائل الجثة، بأنف ضخم وعضلات مفتولة وعينين شرستين، وقالت: "هذا عشيقي جيم. وهو من نيويورك!" وعلى مدى ثلاثة أعوام، ظلتْ تشاهَدُ معه في الليل والنهار، وهي متأبطة ذراعه، هامسة له ببعض كلمات الحبّ بين وقت وآخر، في حين يظل هو صامتاً طول الوقت حتى أن البعض من عشاق ريتا القدماء راحوا يُروِّجون بأنه أبكم. وطافت أورسولا جارة ريتا وغريمتها في الحي قائلةً بأنه لم يعد في مقدورها أن تنامَ بسبب الضجيج المرعب الذي يتعالى في الشطر الأخير من الليل من الشقة الملاصقة لشقتها (تعني شقة ريتا.) "لكأنّ هناكَ وحوشاً تتقاتل" كانت تقول. ولم تكترث ريتا بإشاعات غريمتها. وكانت تردّ عليها بشكل غير مباشر قائلةً: "إنّ جيم هو أفضل رجل عرفتُهُ حتى الآن... وهو وديعٌ مثل طفل" تقول ذلك ثمّ تميل على جيم وتشرع في تقبيل شفتيه الغليظتين بشكل محموم. ثم اختفى جيم مثلما ظهر. وعلى مدى أسابيع طويلة، لم تُشاهَدْ ريتا في الحيّ ولو مرة واحدة. وكانت ستائر شقتها الكائنة بشارع الأتراك مسدلةً على مدار الأربع والعشرين ساعة. وراحت غريمتُها أورسولا تتنقل بخفة بين بارات الحيّ مُتهلِّلَةً حتى أنها بدت أصغر من سنها بعشر سنوات، مشيعةً أن ريتا تنتحب طول الوقت لأن عشيقها الزنجي عاد إلى نيويورك ولم يعد راغباً فيها. وأقسمت المرة تلو المرة أنها سمعته في الليالي التي سبقت اختفاءَهُ وهو يقذفها بأقذع الشتائم، ويضربها ضرباً مبرحاً بينما كانت هي تستعطفه قائلةً والدموع تخنق صوتَهَا: "لا تكن قاسياً معي يا جيم... فأنا لم أُحبَّ رجلاً مثلما أحببتُكَ أنتَ!" ووجد العشاق القدماء في أقوال أورسولا ما خفّف عنهم وطأة الخيبة المرّة التي منيوا بها في السابق فراحوا يضربون كؤوسهم على نخب الضربة القاسية التي نزلت على رأس عشيقتهم المستحيلة. والبعض منهم صدحوا بأن هذا هو، حقاً، ما تستحقه النساء المتكبرات المتعاليات وأنه كان واضحاً منذ البداية أن جيم وغْدٌ حقيقيٌّ ودجّال خطيرٌ وكائنٌ عديمُ الذمة غير أن ريتا امرأة مازوخيّةٌ لا تميل إلاّ لمنْ يعذبها ويهينها. ولكن ها ريتا تطلّ من جيد وهي في أتمّ أناقتها وجمالها، فيجم الجميع. وتقف هي على كونتوار بار جوزيفين حيث يتجمع أكبر عدد من

عشاقها القدماء، وتطلبُ كونياكاً، وتشعل سيجاراً كوبياً، ثمّ تصيحُ وهي في اقصى درجات الزهو والمَرَح: "على نخب الجميع!" ويرفع الآخرون كؤوسهم وقد انعقدت ألسنتهم من الإرتباك والدهشة، واستشعروا أن أجسادهم أصبحت أكثر ثقلاً، وأن التجاعيد في وجوههم ازدادات بشاعةً ووضوحاً. وعندما تطلبُ ريتا كونياكا ثانياً، تسألها جوزيفين وهي تضعه أمامها: "وأين كنت أيتها العزيزة طوال هذه الأسابيع؟" وتجيبُ ريتا: "كنتُ في باريس!" ثم ترفعُ كأسها وتصيح ثانية: "على نخب الجميع!" ويتمتمون هم: "على نخبك أيتها العزيزة ريتا!" وعندئذ تفرّ أورسولا من البار وهي تخبط الهواء بيديها كما لو أنّ حريقا اندلع في جسدها. وفي ظرف ساعات قليلة، تتمكن ريتا دون أن تتطرق إلى ذلك ولو بكلمة واحدة، أو حتى بمجرد إشارة، من تبديد جميع الإشاعات التي كانت تروج حولها. ثم سرعان ما نسي الجميع العشيق الزنجي، ومن جديد طفقوا يدورون حولها وقد انتعشت آمالُ كل واحد منهم من أن تلين له ذات يوم، وتهبه التفاحة المحرّمَة حتى ذلك الحين. غير أنّ ريتا التي تتقن فنّ المراوغة، ويستهويها شواء قلب عشاقها حتى تصبح بلون الفحم، كان تحبط محاولاتهم، وترمي بأحلامهم في المهاوي السحيقة مفاجئة إياهم في كل مرة بعشيق جديد لم يكونوا قد شاهدوه في الحي من قبل البتّة. مرة كندي ومرة هندي ومرة أرجنتيني ومرة مصري ومرة روسي كان يغني في آخر الليل بصوت رخيم أغاني حزينة تبكي لها ريتا الناعسة على صدره. وعندما حدّثني عنها إدوارد التّيرولي، قال لي بأنه لا توجد امرأة في الحيّ استمتعت بذلك الشيء مثلها. ثم أضاف ضاحكا: "ماذا تريد؟! لقد ذاقت من كل فواكه الأرض في حين أن امنا حوّاء لم تذق إلاّ من فاكهة واحدة!" وأنا عرفت ريتا عندما كانت شمسها على وشك الأفول، ولم يتبق من حولها غير عدد قليل من العشاق جميعهم في سنّ اليأس مثلها. ومنذ البداية قامت بيني وبينها علاقة ودّ رائعة قد تكون باريس سببها. ومرة أو مرتين في الأسبوع، كانت تدعوني إلى شقتها المرتبة بشكل يدل على ذوق فني رفيع. ولساعات طويلة، نظل نتحدّث عن باريس، وعن شعرائها وفنانيها ولياليها وعوالمها. وقد روت لي ريتا حكايات ممتعة عن السنوات التي أمضتها في باريس بصحبة زوجها الثري وقالت لي انها كانت ترتاد المقاهي والمطاعم التي كان يرتادها المشاهير من الفنانين والشعراء، وانها تحدثت أكثر من مرة إلى سارتر وسيمون دي بوفوار وبيكاسو، وأنها حضرت جنازة أديث بياف وأندريه بروتون.

وهكذا جعلتني حكاياتها أعيش أجواء باريس في ذلك الزمن الذي كنت ولا زلت أتمنى لو أنني عشت فيه. زمن الجنون الجميل الذي يعقب صخب الحروب الكبيرة المدمّرة. وكنت أعتقد أن ريتا من أسعد المخلوقات في الكون، غير أنها هتفت لي ذات ظهيرة لتقول لي بصوت متهدج: "تعال.. أنا أرغب في التحدث إليك ولو قليلا." "... سآتي حينا!. قلت لها. ولما فتحت الباب، وجدتني أنني أمام امرأة أخرى غير ريتا. فقد كانت منفوشة الشعر، متورمة الوجه، محمرة العينين. ومن دون أن تلفظ بكلمة، أجهشت بالبكاء. وظلت تبكي أزيد من نصف ساعة وأنا صامت لا أدري ما أفعل ولا ما أقول. بعدها اختفت ريتا في الحمام دقائق ثم عادت لتقول لي وقد كفّت عن البكاء، غير أن الدموع كانت لا تزال تترقرق في عينيها:

– أنا جدّ آسفة... لست أدري ما الذي حلّ بي هذا اليوم.. وبما أنني أحسست أنني بحاجة ماسّة إلى صديق فقد هتفت لك لأنني أثق فيك كثيرا، وأعلم أنك الوحيد الذي يمكن أن يتفهم وضعي في وقت عسير كهذا. "... تمتمت بعض الكلمات شاكرا لها ثقتها فيّ، مواسيا إياها، مؤكدا لها صداقتي ومودتي الدائمة. والحقيقة أنني لم أفهم شيئا من كلامها. مع ذلك لم أشأ أن أستوضحها في الأمر خوفا من أن تزداد الأمور تعقيدا، وتعود هي إلى النحيب بينما أنا جالس قدّامها لا أدري لا ما أفعل ولاما أقول. مكثت عندها حتى هبوط الليل، ثم ودعتها وقد عاد إليها هدوءها، بل وبعض من جمال ملامحها القديمة التي شوهتها الدموع، وتوجهت إلى بار جوزيفين. بعد الكأس الثانية، خيّل لي أنني فككت ألغاز كلامها، وفي الحين أصبت بالرعب. فقد تبيّن لي أن ريتا لا تبكي فقط فقدان جمالها وانفضاض العشاق من حولها، وإنما المصير المرّ الذي ينتظرني أنا أيضا... أنا الغريب الوحيد في هذه المدينة. وعندئذ رأيت نفسي شيخا قبيحا، محدودب الظهر، محطم الأسنان، يئن من الوجع طول النهار وطول الليل بسبب الأمراض الكثيرة التي تنهش جسده. ولا أحد يأتي ليواسيه أو يخفف عنه كآبة الوحدة. لا أحد يهتف إليه. لا أحد يراف به. لا أحد يفكر فيه. لا أحد يكاتبه. لا أحدا يعيره اهتماما. وهو وحيد يتعفن في الشقة الضيّقة المعتمة. والثلوج تتهاطل. وهو بالكاد قادر أن يطبخ لنفسه حساء ساخنا. يأكل منه قليلا، ثم يعود إلى الفراش لينام غير أن الكوابيس السوداء سرعان ما توقظه، فيظلّ ساهداً حتى الصباح. وقد يفاجئه الموت وهو على هذا الوضع، غير أن الجيران لن ينتبهوا إلى ذلك إلاّ بعد أن تكون رائحة جثته

قد وصلت إلى الشارع... ومنذ ذلك الحين انقطعت عن زيارة ريتا خوفا أن أطل من جديد على هاوية المصير الذي ينتظرني في المستقبل القريب. وها ريتا جالسة في مكانها المعتاد أنيقة مشرقة الوجه، وبجانبها رجل في الستين، له ملامح نبيلة، لا يظهر في الحي إلاّ لماما. حييتها بإشارة من يدي فصاحت بي: "لم انقطعت عن زيارتي؟"

– سأفعل ذلك قريبا! قلت، ثم جلست مع حميد في ركن قصي. طلبنا بيرتين. انتظرت أن يقول حميد شيئا غير أنه راح يدخّن ويشرب بِنَهَم، وقد بدا غارقا كليا في عالمه الخاص. إنه الوحيد من أبناء بلدي في هذه المدينة الذي التقى به بين وقت وآخر. بل ويحلو لي الجلوس معه بالرغم من أنه نادراً ما يتكلم. في وجهه العريض الذي حفرت فيه سنوات الشقاء التي عاشها طفلا وشابا وكهلا، ندوباً عميقة، ما يوحي بنفور من كل شيء، حتى من نفسه ولعله كان على هذه الصورة منذ أن خرج من بطن أمه هناك في تلك المدينة البحرية الواقعة في نهاية الذراع الذي تمدّه بلادي داخل البحر باتجاه صقلية. وقد عشقت هذه المدينة منذ زيارتي الأولى لها وكان ذلك عندما كنت طالبا حتى أنني أكثرت من التردّد عليها خصوصا في الخريف والشتاء حين تفرغ من المصطافين، وتعود إلى عشاقها الحقيقيين. وكان يحلو لي بالخصوص أن أتمشى على شاطئها عند غروب الشمس أو عند طلوعها، وأن أجلس في البارات القذرة المحاذية للميناء والتي يرتادها صيادو الأسماك. وفي تلك المدينة الصغيرة، ذات البيوت البيضاء، الزرقاء الأبواب، اكتشفت عالم البحر. وكان ذلك شيئا رائعا بالنسبة لي أنا القادم من مدينة "قاف "التي بناها العرب في فلاة على طرف الصحراء خوفا من غزوات الروم. وربما لكي يخفّفوا من لهب أصيافها الجهنمية، كان أهلها يروون حكاية عجيبة كانت تعجبني كثيرا في طفولتي. أما الآن... آه الآن قليلة بل نادرة جدّا الأشياء التي تعجبني. وتقول تلك الحكاية بأنه كان هناك إمَامٌ تقي ورع يعيش في مدينة "قاف." وكان الناس يحجّون إلى بيته من كل حدب وصوب مثلما يحجّون إلى مكة. وفي ذلك الوقت، كانت مدينة" قاف "موجودة على ساحل البحر. وبسبب الغرباء الذين كانوا يرسون بواخرهم ومراكبهم في مينائها، كان الفساد يتسرّب إلى أهلها، فيدنّس قلوبهم، ويحيد بهم عن الطريق المستقيم. وفي كل صلاة جمعة، كان الإمام يحذّرهم من مخاطر ذلك، ويذكرهم بتلك المدن التي خرّبها الله لأن أهلها انساقوا إلى نزواتهم ورغباتهم. ولما

علم بأن بينهم من لا يأخذ كلامه بعين الإعتبار، وقف ذات عصر أمام البحر وصاح: "أيها البحر.. أنا بحر وأنت بحر. والأفضل أن تبتعد حتى لا نتصادم فتهلك هذه المدينة ويهلك أهلها!" وعندئذ رأى الناس العجب. فقد لملم البحر أمواجه مثلما يلملم الشيخ الوقور أطراف برنسه، وراح يبتعد ويبتعد إلى أن غاب في أقصى الأفق. وكدليل على كلامهم هذا، فإن أهل مدينة "قاف" يشيرون إلى السباخ الواقعة شرق المدينة، والتي تطلق علينا ابتداء من أول الربيع وحتى دخول الشتاء، جيوشا من البعوض والهوام الأخرى، ويقولون أنها آثار البحر الذي رحل بعيدا بأمر من الإمام التقي الورع. وكان كلامهم هذا يغيضني. بل ويجعلني أبغض الإمام التقي الورع خصوصا في تلك الليالي القائضة التي يشرب فيها البعوض كميات هائلة من دمي، غير أنني سرعان ما أتمرّد على مشاعري هذه وأشنّ عليها حربا ضروسا إذ أن أمي كانت ما تفتأ تردّد أن من يبغض الإمام التقي الورع، يصيبه الله بالعمى أو بالشلل أو بعاهات أخرى تجبره أن يعيش طول عمره محبوسا بين أربعة جدران حتى إذا ما مات تجنّبته الملائكة تاركة الشياطين التي لعنها الله ألف لعنة ولعنة ترافقه إلى مثواه الأخير. وإذا ما أنا أحسست أن ما قمت به ليس كافيا لإرضاء الإمام التقي الورع، هرعت إلى ضريحه هناك في أطراف المدينة، قرب الطريق المؤدي إلى البحر. ولساعة أو أكثر أظل أطوف به مُحمدلاً ومبسملاً، طالباً الرّحمة والغفران. وقد ثابرت على ذلك حتى اليوم الذي دخلت فيه المرحاض ودخنت أول سيجارة في أول يوم من شهر رمضان. وعندما قال لي حميد ليلة التقيته أول مرة في هذا البار أنه من تلك المدينة البحرية الصغيرة التي أحببتها أيام الطلب في الجامعة، أحسست بنور صباحاتها المشرقة يكتسح كياني، وبدا لي أنني أسمع همسات بحرها في هدوء الغروب البنفسجي. وهكذا دخل حميد إلى قلبي كما دخلته مدينته من قبل. غير أن حميد لم يكن سعيدا هناك. وقد قال لي ذات مرة أنه شعر منذ أن بدأ يعي الدنيا من حوله أنه لا أحد يرغب في وجوده. القريبون والبعيدون على حدّ السواء. وباستثناء والده الذي كان يكنّ له شيئا من العطف والحنان خصوصا في فترة الطفولة المبكرة، فإن الآخرين، الإخوة والأخوات، الأعمام والعمات، الأخوال والخالات، كانوا ينبذونه، ويكلمونه بغلظة، ويعاملونه بجفاء كما لو أنه "النعجة الجرباء" في قطيع العائلة الكبيرة. وكانت أمه الأقسى عليه منهم جميعاً. فقد كانت تحاول يوميا وبشتى

الطرق والوسائل، أن تشعره بأنه "شيء زائد عن اللّزوم" في البيت كما في الحياة، داعية عليه وهو خارج أو داخل بان يفعل الله كل ما في وسعه لكي يعيش شقيا طول عمره، وأن يسدّ في وجهه جميع أبواب الرزق أينما كان وأن يهدّ صحته وأن يحرمه من الذرية ومن الحب... وكان شعور حميد بأنه شخص غير مرغوب فيه حقا يصبح غير محتمل خصوصا في الأعياد والمناسبات. فقد كان يحرم من الهدايا حتى ولو كانت بسيطة. وعند الدخول إلى المدرسة، تُرْمى له ثياب أخيه الأكبر القديمة وأيضا المحفظة والكتب التي لم يعد يستعملها. فإن احتج على ذلك قيل له ها الحائط أمامك اضرب رأسك به وأرح نفسك وأرحنا. وضاقت الدنيا بحميد. ذات يوم والمدينة البحرية الجميلة ضاجة بصخب الأطفال العائدين إلى المدارس فضرب رأسه بالحائط وحمل فورا إلى المستشفى وهو في حالة إغماء. وفي المستشفى مكث ثلاثة أيام. وكان يأمل أن تتبدل الأمور إثر ذلك الحادث الأليم، وأن تحنّ عليه قلوب أهله فيكفون عن إيذائه غير انه اصطدم حال عودته إلى البيت معصوب الرأس بوجوه غاضبة، وعيون ملتهبة، وسحنات مكفهرة، وكلمات نابية. بل أن أمه صاحت فيه حالما رأته: "أرجو أن تكرر فعلتك حتى نخلص منك وإلى الأبد!" وكان حميد في الثانية عشر من عمره لما فاجأ أمه تلهث نصف عارية في أحضان جارهم قاسم البناء. ركض إلى حانوت أبيه الحلاق فوجده محاطا بنفس أولئك الرجال الذين يأتونه يوميا ليمضوا النهار بطوله في الثرثرة والتدخين وشرب الشاي:

- ماذا تريد؟! صاح فيه أبوه حالما وقف أمام الباب.
- أريد أن أتحدث إليك في أمر من الأمور...
- هيا إنطق يا فرخ الحرام.
- لا أستطيع أريد أن أتحدث إليك وحدك!

اندفع أبوه نحوه. أحكم قبضته على عنقه وجرّه خارج الحانوت:

- ماذا حدث؟!
- أمي...
- مابها أمك؟!
- أمي...
- مابها... هيا انطلق وإلاّ...

ولم يستطع حميد أن ينطق ذلك أنه أحسّ في ذات اللحظة بأنه فتح على نفسه أبواب جهنم الحمراء...

– ماذا حدث لإمك؟! تكلم... هيّا تكلم وإلاّ حبست أنفاسك!"

ظل حميد صامتا وشفتاه تختلجان وفمه يابس وقلبه يضرب بعنف. وهناك بين الحيطان البيضاء، كان البحر يواصل ألعابه الزرقاء تحت الشمس اللاهبة غير مكترث بوضعه الشقي...

– ألا تريد أن تتكلم؟! إذن خذ هذه على الحساب... قال الوالد ثم وجّه له صفعة جعلته يرى نجوم الليل تتساقط نثاراً على الأرض. ودائما محكما قبضته على عنقه، جرّ الوالد إبنه إلى البيت. كانت الأم جالسة في الصالون، هادئة وكأن شيئا لم يكن. وقد اندهش حميد من ذلك حتى أنه ظن أن المشهد الذي رآه قبل عشرين دقيقة، أو ربما أقل من ذلك، قد يكون وهماً من أوهام قوائل الصيف، تلك التي توحي للمسافر أن هناك بركا من الماء على الطرقات البعيدة، أو في الصحاري القاحلة.

– أية فعلة شنيعة أخرى ارتكبها الولد الفاسد؟ قالت الأم.

– لست أدري... وأمره يحيّرني كثيرا... فقد جاءني إلى الحانوت وهو يلهث ملمّحا بأن له سرّا خطيراً يرغب في أن يفضي به إليّ. فلما اختليت به، لم يقل شيئا سوى أمي أمي أمي حتى ظننت أن مكروهاً أصابك.." ردّ الأب .

– هه... وهل تظن أن هذا الولد العاق سيحزن كثيرا لو أصابني مكروه؟! وإذا ما أنت اعتقدت هذا، فكن على يقين أنك لا تعلم شيئا حتى هذه الساعة عن بذرتك الشريرة هذه..." قالت الأم.

– ولكن لم جاء إلى الحانوت راكضا ليقول لي ذلك الكلام الغامض؟! تساءل الأب وقبضته دائما محكمة على عنق الطفل...

– اسأل المعني بالأمر! صاحت الأم بحدّة.

صفع الأب إبنه مرة أخرى وصرخ فيه وقد أربدت ملامحه:

– هيّا انطق أيها الشيطان اللعين... انطق وإلاّ مزّقتك إربا إربا ورميت لحمك للكلاب السائبة.. انطق!

ولم ينطق حميد. ولأيام ظل يتلقى الصفعات من الجميع ودائما ذلك السؤال ":ولكن لما ذهبت إلى الحانوت راكضا... هيّا تكلم... تكلم! وهو صامت. وما جدوى

الكلام مادام يعلم جيّدا، استناداً إلى التجارب السابقة، انه لا أحد في العائلة، الصغير مثل الكبير، يصدّق ما يقول حتى ولو قدم الحجج الدامغة. واصلوا دورانهم حوله موجهّين له الصفعات الحارقة: "هيّا انطق يا فرخ الحرام... يا خنفس الخراء... انطق!" وهو صامت مثل أحجار الشاطئ التي تتلقى صفعات الأمواج على مدار الليل والنهار...

ولم يفلح حميد في الدراسة، فطرد من المدرسة وهو في الخامسة عشر من عمره، ليبدأ فصلا جديدا من حياته خالط أثناءه فتيان السوء والمنبوذين مثله، ومعهم ادمن على التدخين والشراب في حانات الميناء. وقد أنس إلى حياته الجديدة هذه، ووجد فيها ما خفف عنه أوجاع الماضي، فلم يعد يعود إلى البيت العائلي إلاّ لماما. فإذا ما عاد اصطدم بتلك الكراهية التي لم يعرف غيرها على مدى سنوات طفولته، فيسارع بالعودة إلى الشارع غير آسف...

وكان حميد في السابعة عشر من عمره، لما شاهد مساء يوم ربيعي رائق، أخاه الأكبر يتجول اليد في اليد على الشاطئ مع فتاة جميلة من الحي. وفي ذات اللحظة اشتهى هو أيضا أن يكون عاشقا مثل أخيه الأكبر، فأخذ يتأنق، ويسرح شعره على طريقة ألفيس برسلي، واضعاً زهرة ياسمين خلف أذنه في ليالي الربيع والصيف، ملاحقا الصبايا بحثا عن واحدة تبادله الحب، ومعه تتجوّل اليد في اليد على الشاطئ في الأماسي الدافئة بينما الشمس تسقط قرصا أحمر في مياه البحر البنفسجية. ودأب حميد على ذلك فترة طويلة غير أن جميع محاولاته باءت بالفشل. وكان كلما اقترب من واحدة صدته عنها بعنف، مهددة إياه إن هو تمادى في التحرش بها، بإعلام والدها أو أخيها. وعندما تيقن أن تلك الكراهية التي طالما عانى منها في البيت العائلي قد اتسعت لتشمل قلوب جميع صبايا المدينة، ولّى ظهره لليابسة، وقرر أن يصبح بحاراً...

وهاهو على ظهر باخرة صيد. ليالي بطولها أحيانا. وعندما يعود، يهرع إلى بارات الميناء، ويظل يعبّ الشراب الرديء حتى ينهار على الأرض. وفي ليلة خريف، والباخرة عائدة إلى الميناء، هبت عاصفة هوجاء حتى أن جميع من كانوا على ظهر الباخرة ظنّوا أنهم هالكون، فأخذوا يصلّون. أمّا حميد فقد ظل هادئا يتأمل العاصفة مفتونا وكأنه يتأمل مشهدا طبيعيا آسراً. ذلك أنه تمنّى والريح تتلاعب بالباخرة فوق الأمواج الغاضبة أن ترمي به العاصفة في أعماق البحر حتى تنتهي

حياة الشقاء التي يعيشها. غير أن الباخرة تمكنت من العودة سالمة هي ومن عليها لتجد أزيد من ربع سكان المدينة الصغيرة في انتظارها. وحدّق حميد في الجموع المتراصّة على الرصيف، فلم ير أحدا من أفراد عائلته. ولم يفاجئه الأمر ولم يحزنه فقط ازداد قلبه غلظة ولم يعد يكترث بشيء. وبهدوء شق طريقه وسط الجموع المتراصة باتجاه بارات الميناء. وفي آخر الليل وهو يشرب الكأس الأخيرة قرر أن يرحل. ورحل ليعيش سنوات في العاصمة عمل خلالها عتالا في الميناء الكبير وطباخا في مطعم صغير بالمدينة العتيقة ونادلا في بار يرتاده الأشقياء والقوادون والسفلة والنشالون ومروجو الحشيش والسلع المهربة. فلما جمع قليلا من المال، قرر أن ينجز حلما قديما. فقد كان أهل مدينته يرددون دائما أنهم فرّوا من الأندلس بعد سقوط غرناطة، وأن أجدادهم ظلوا يحتفظون بمفاتيح بيوتهم هناك عقودا مديدة فلما يئسوا، دفنوها في التراب، ومعها دفنوا أحلامهم في العودة إلى هناك. وكان هذا الكلام العذب يتيح لحميد أن يتيه بخياله بعيداً ليرى نفسه وقد رحل إلى بلاد الأندلس، أرض أجداده القدماء حيث جنان الزيتون والبرتقال والقصور الحمراء الرائعة لينعم هناك بالحنان الذي حرم منه مذ فتح عينيه على الدنيا، وبالحب الذي لم يتذوّق طعمه حتى ذلك الحين. ومع مرور الأيام والأعوام، ظل هذا الحلم يكبر متغذيا من شقاء حميد تماما مثلما تتغذى الزهرة من الزبل والروث حتى بات الحلم الوحيد الذي من أجله يستحق الحياة. وهكذا ركب القطار باتجاه الأندلس. لكن عند وصوله إلى الدار البيضاء، نفد المبلغ الذي خصصه لرحلته الطويلة تلك، فاضطرّ إلى البقاء هناك ليمتهن أعمالاً مختلفة ثم عمل في مطعم للسمك يملكه إسباني عجوز. وبالمبلغ الذي حصل عليه من عمله ذاك والذي استمر نصف سنة، واصل رحلته إلى الأندلس. وتحت رذاذ الخريف الدافئ، دخل مالقة...

مالقة... الميرية... مربيا... غرناطة... قرطبة... قادس... إشبيلية... أسماء المدن هنا لها فتنة رقصات الصبايا الأندلسيات على أنغام الفلامينكو في ليالي الصيف. وحميد يزداد يقينا يوما بعد يوم وهو يجوب الأندلس بأنه عثر أخيرا على وطنه الرّوحي وعلى الأرض التي كان يجب أن يرى نور الحياة فيها. كل شيء هنا، الأشياء كما العباد متصالحون معه، وهو متصالح معهم. وهو كان يعشق البحر في مدينته، بل لعله الشيء الوحيد الذي كان يعشقه، غير أن البحر هنا يبدو أكثر

فتنة ومرحا وجذلا ربما لأن حميد لم يعد يسمع تلك الكلمات الجارحة التي كانت تجعل الدنيا أمام عينيه قبيحة ومعتمة وبَرْدَاء. والآن هو يكتشف أيضا جمال اشياء أخرى... جمال الزهور البرية والأبواب والنوافذ والجداول الصغيرة والقرى المعلقة على الهضاب والصباحات والمساءات والأمطار والثلوج والشواطئ المقفرة والأبقار الراعية في الحقول... حتى أولئك الشيوخ والعجائز الذين يراهم جالسين أمام عتبات بيوتهم أو هم يتجولون في الشوارع الفارغة بدوا لي جميلين. بل أجمل من كل شبان وشابات مدينته. لكأنه يفتح عينيه لأول مرة على الدنيا! والنساء هنا لا يكشرن في وجهه مثلما كان حاله مع صبايا مدينته، بل هن يبتسمن له، ويجلسن إليه، ويحتضنه، ويهمسن له بكلمات الحب، ويقبلنه في كل مكان من جسده، ويمنحنه تلك الفاكهة التي كان يظنّ أنه سيظل محروما منها حتى النهاية. وفي الصباح حين يستيقظ ليجد نفسه في أحضان واحدة منهن، يشعر أن صورته القديمة، صورة الفتى القبيح، الشرير، الحاقد، الكذاب، الملعون، الشقي قد انمحت وإلى الأبد...

أثناء عمله طباخا في مطعم فخم بجبل طارق، إلتقى حميد فتاة لندنية تدعى كارولين فأحبّها وأحبته من النظرة الأولى. راحت كارولين تتنقل بين لندن وجبل طارق من أجله. وكان حميد يشعر في كل مرة تاتيه بأنه أسعد مخلوق على وجه البسيطة، وبأن زمن الشقاء والحرمان والخوف قد ولّى وإلى الأبد، وفي الفراش كان يأتي معها بالعجائب. وكانت هي لا تشبع من ذلك الشيء أبداً. كانت تريده في كلّ الأوقات وفي المطبخ وتحت الدش وبين مراكب الصيادين عند الغروب أو بين صخور الشاطئ وفي البحر وفي حدائق جنة العريف. وهو كان يلبّي رغباتها جميعا لأنه هو أيضا كان مجنونا بها ولم يكن يشبع منها أبداً. لكن عقب أسبوع ربيعي رائع جابا خلاله العديد من المدن والقرى الأندلسية، فاجأته كارولين وهما يتناولان فطور الصباح أمام البحر، قائلة:

– أعتقد يا عزيزي حميد أنها النهاية!

كان حميد يتأهب لأخذ رشفة من قهوته غير أنه عدل عن ذلك. نظر إليها. كانت شاحبة وحزينة. أبدا لم يرها على تلك الصورة. وفي الحين، حاصرته صور الماضي البغيض...

– ماذا تقولين؟! سألها وقد اجتاحه غثيان خفيف، وبدأ رأسه يغلي...

– أعتقد أنها النهاية!

– نهاية ماذا؟!

– نهاية قصة حبّنا!

– ولماذا؟!

– لقد وقعت في حبّ رجل آخر!

– رجل آخر؟!

– نعم رجل آخر. وهو عربي مثلك لكنه غني!

البحر الآن بلون جلابيات البدويات في أيام الحداد. وبرّ الأندلس معتم كالقبر. ولا أثر للربيع. والقهوة التي كانت طيبة الرائحة والمذاق قبل حين، أصبح لها الآن طعم أيام الشقاء القديمة...

– نعم يا عزيزي... لقد أحببت رجلا آخر... ومن الأفضل أن نفترق!

لم يستطع حميد أن ينطق. لقد حدث له ما حدث له يوم وقف أمام أبيه ليخبره بما تفعله أمه مع جارهم قاسم البناء...

نهضت كارولين. اقتربت منه. مدّت يدها لتداعبه غير أنه أبعدها عنه بعنف...

– لن أنساك.. تأكد من ذلك! قالت كارولين بصوت متهدّج.

ظلّ صامتا. وأيّ كلام يمكن أن يكون له معنى في لحظات الشقاء هذه؟!

– طائرتي غدا في الساعة الثالثة والنصف ظهرا... هل تأتي لتوديعي؟ أريد أن أراك هناك! أضافت كارولين ثم تركته ومضت...

أمضى حميد النهار وشطرا من الليل متنقلا بين البارات ولم يعد إلى غرفته إلاّ قبل الفجر بقليل. استيقظ في الحادية عشر صباحا. كان رأسه ثقيلا وعيناه منتفختين من كثرة الشراب. شرب قهوتين بدون سكر. أكل سندويشا خفيفا. ثم توجه إلى البار. بعد كأسين من الويسكي قرّر أن يذهب إلى المطار لتوديع كارولين. وفي طريقه إلى هناك، راح يتوقف في كل بار يعترضه محاولا أن يستمدّ من الشراب القوة الكافية لمواجهة الموقف الحرج الذي ينتظره. وعندما وصل إلى المطار (فعل ذلك سيرا على القدمين) كانت طائرة كارولين تستعد للإقلاع. وقف يتابعها بنظراته إلى أن غابت في السماء. وعندئذ أجهش بالبكاء. وكانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي يبكي فيها حبّا لإمرأة. وعندما روى لي قصة حبه هذه قال لي: "يومها شعرت أن حياتي انتهت!" بعدها عاش حميد أشهرا مديدة وهو يتقلب على الرماد

الساخن لحبه الخائب. ولأنه أكثر من الإجازات المرضية، فقد طرد من المطعم الفخم الذي كان يعمل فيه. وشيئا فشيئا ساءت أحواله المادية إلى أن لم يعد قدراً على شرب كأس. وأملا في أن ينسى كارولين التي كانت صورتها تلاحقه أينما ذهب، واينما إلتفت. ترك جبل طارق وانتقل إلى مالقة ومنها إلى المرية ومنها إلى غرناطة... غير أن صورة كارولين ظلت عالقة بذاكرته حتى أنه لم يكن يرى شيئا اخر غيرها. وكانت همساتها وتأوهاتها أثناء الجماع تحول لياليه إلى جحيم، فيفر إلى الشوارع ويظلّ يَذْرعها حتى طلوع النهار. وكان جالسا في بار صغير في ماربيا القديمة لمّا تعرف على ألمانية فارعة الطول، ضخمة الصدر والأرداف، غليظة الصوت، تكبره بحوالي خمسة عشر عاما، تعمل موظفة في بنك. جامعها أسبوعا كاملا محاولا أن يستحظر من خلالها حمّى الأيام الرائعة التي عاشها مع كارولين. قبل يومين من سفرها، قالت له تلك الألمانية وهما يتناولان طعام العشاء:

– لم لا تأتي معي؟

– إلى أين؟!

– إلى فرانكفورت.

– فكرة جيدة! قال حميد...

بعد يومين كان مع تلك الألمانية في فرانكفورت. لكن علاقته بها سرعان ما ساءت فانتقل إلى بون ثم إلى كولونيا ثم إلى شتوتجارت... وأخيرا استقر به المقام في هذه المدينة... والآن عقب سنوات التشرد الطويلة بين المدن الباردة هو يبدو على نفس الصورة التي كانت أمه تتضرع لله يوميا لكي يكون عليها. فهو في الخمسين لكنه يبدو أكبر من ذلك بكثير. وقد فقد جميع أسنانه، وانهدّت صحته، وانحنى ظهره وبات صورة حقيقية للشقاء الإنساني. وهاهو جالس إلى جانبي صامتا، يدخن ويشرب ساهما كعادته دائما. وأنا أعرف أنه قادر أن يظل على هذا الوضع الليل بطوله. أعرف ذلك. وأذكر أني لقيت عناء شديدا لمّا رغبت في التعرف على أطوار حياته فقد كان يرد على أسئلتي باقتضاب شديد، وأحيانا يرفض رفضا قاطعا الرد عليها. فقط مرات، في أخر الليل، يلين بسبب الشراب، فيسرد عليّ بعضا من ذكريات ماضيه الشقي بصوت واهن. صوت كائن حاضر بجسده، غير أن روحه انتقلت إلى الضفة الأخرى...

– سأسافر غدا، قلت لحميد محاولاً أن افتح الحديث معه...

- إلى أين؟ قال هو دون أن ينظر إليّ.
- إلى مدينة روزالي... ، قلت.
- آ... تلك المرأة التي حدثتني عنها... ، قال هو بتلك اللامبالاة المعهودة عنده.
- نعم...

صمت حميد من جديد. وبدا واضحا أنه لا يرغب في الكلام في أي موضوع. وكنت أنوي أن انصرف حالما أنتهي من شراب كأسي، غير أنني لاحظت أن هناك شيئا يحدث في الطاولة المقابلة... كان هناك شابان مكفهرّا الملامح، من أولئك الذين يسمونهم "حليقي الرؤوس." بينهما فتاة شقراء فائقة الجمال في حوالي الثامنة عشر من عمرها كانت تنظر إليّ باسمة. ولم أستطع أن أمنع نفسي من أن أبتسم لها فامتعض الشابان واحمرّ وجْهَاهُمَا غضبا. غير أن الفتاة لم تكترث بهما ومن جديد ابتسمت لي فابتسمت لها أنا أيضا. عندئذ قالت لي بصوت ممطوط شبيه بصوت البغايا المحترفات: "تعجبني قبّعتك." وهمس لها الشابان بكلام ما وهما في أقصى درجات الغضب. سمعت حميد يهمس لي: "انتبه... هذان الشابان يريدان بك شرّا... انتبه جيّدا!" ولم أهتم بما قال. وبدا واضحاً أن الفتاة اغتاضت من الشابين ذلك أنها راحت تضرب الأرض بقدميها محتجة. ثم ابتسمت لي مرة أخرى، فابتسمت لها أنا أيضا. عندئذ نهض الشابان وصاحا في الفتاة:

- إذا لم تأتي معنا فستكون العاقبة وخيمة!

ابتسمت لي الفتاة ابتسامة أخيرة ثم نهضت وتبعت الشابين مكرهة. بدأت أنا أيضا أستعدّ للخروج غير أن حميد حذّرني قائلا:

- لاتخرج الآن... لقد قلت لك أن الشابين يريدان بك شرّاً... أنا على يقين من ذلك!" انصعت، طلبت بيرة أخرى. بعد نصف ساعة تقريبا، اندفعت نحو باب الخروج بعد أن حييت حميد بنوع من البرود. وكذلك فعلت مع ريتا التي بدت لي ثملة تماما. كان الشارع مقفرا. وهناك على بعد بضع مئات الأمتار مني، رأيت الشابين واقفين. أما الفتاة الشقراء فلم يكن لها أثر يذكر. تابعت سيري متظاهراً بالامبالاة. وعندما كنت أقترب من زاوية شارع "أدلبار" الذي يتقاطع مع شارع "الأتراك"، شعرت بيد تربت على كتفي. استدرت فجاءتني لكمة قوية على الفك الأيمن أسقطتني أرضا. حاولت أن أنهض غير أن لكمة أخرى أعادتني بسرعة إلى مكاني...

– هل أعجبتك الفتاة؟ سألني أحد الشابين بعد أن وضع حذاءه العسكري الثقيل على بطني.

– .....

– تكلم... هل أعجبتك الفتاة أيها العربي الوسخ!

– .....

– خذ! صاح الشاب وهو يوجّه ضربة قوية بحذائه العسكري إلى صدري. وهبّ الآخر لمعاضدته والإثنان راحا يَرْكَلاَنني بينما كانت الدماء تسيل مني بغزارة. بعدها ابتعد الشابان وهما يلعنان ويسبّان الأجانب والزنوج والهنود والقبعات السود...

ظللت هكذا ملقى على الإسفلت المبلل والدماء تتدفق مني. ثم تحاملت على نفسي وسرت متثاقل الخطى باتجاه الجسر... **"لمّا مات عضد الدولة بلغ خبره بعض العلماء، وعنده جماعة من اعيان الفضلاء، فتذكروا الكلمات التي قالها العلماء عند موت الإسكندر. فقال بعضهم: لو قلتم انتم مثلها لكان ذلك يؤثر عنكم. فقال أحدهم: لقد وزن هذا الشخص الدنيا بغير مثقالها، وأعطاها فوق قيمتها، وطلب الربح فيها فخسر روحه فيها.**

وقال الثاني: من استيقظ للدنيا فهذا نومه، ومن حلم فيها فهذا انتباهه.

وقال الثالث: ما رايت عاقلا في عقله، ولا غافلا في غفلته مثله. لقد كان ينقض جانبا وهو يظن انه مبرم، ويغرم وهو يظن انه غانم.

وقال الرابع: من جدّ للدنيا هزلت به، ومن هزل راغبا عنها جدّت له.

وقال الخامس: ترك هذه الدنيا شاغرة ورحل عنها بلا زاد وبلا راحلة.

وقال السادس: إن ماء أطفا هذه النار لعظيم وان ريحا زعزعت هذا الركن لعصوف.

وقال السابع: إنما سلبك من قدر عليك.

وقال الثامن: أما انه لو كان معتبرا في حياته لما صار عبرة في مماته.

وقال التاسع: الصاعد في درجات الدنيا إلى استفال، والنازل في درجاتها إلى تعال.

وقال العاشر: كيف غفلت عن كيد هذا الأمر حتى نفذ فيك. وهلاّ اتخذت دونه جنّة تقيك، إن في ذلك لعبرة للمعتبريين، وانك لآية للمتبصّرين...

اهتديت إلى قفل الباب بصعوبة كبيرة. ودون أن أشعل الضوء، تمددت على الفراش هكذا بحذائي وبكامل ثيابي: "غدا أرحل إلى مدينة روزالي"، قلت ثم غرقت في نوم ثقيل.

القسم الثاني

الجبل على يساري يعلو شامخا في الصباح الربيعي مغلّفا بضباب بنفسجي خفيف. أمامي الميناء والبواخر. وأنا جالس في مقهى صغير أترشف قهوتي بتأن في انتظار الباخرة التي سوف تبحر بعد أقلّ من ساعة باتجاه مدينة روزالي. ورائي المدينة الهجينة بضوضائها، وهرجها، وفوضاها، وبشاعتها. مدينة بلا صفة ولا روح. ولولا اللغة التي تَرِنّ في أذني عذبة، مرحة، راقصة، لغة لوركا، الشاعر الذي أحب، لخلت أنني في مدينة بأقصى الجنوب، هناك حيث يتعايش الظلم مع البؤس، والعنف مع الخوف، والفوضى مع الضجيج. السماء تكاد تكون صافية تماما. والهواء مشحون بروائح البواخر الراسية، والمياه الراكدة، والحبال المبللة، ومازوت السيارات، وعرق المهاجرين الذين قطعوا مسافات طويلة، قادمين من جميع أنحاء القارة العجوز، ومثلي هم ينتظرون انطلاق الباخرة باتجاه مدينة روزالي. أطفال وشيوخ ونساء وكهول وشبان على ملامحهم تعب السفر، ورماد الأرق، ولهفة الوصول إلى الوطن الأم بأقصى سرعة ممكنة.

ظهر أمس غادرت مدينة غربتي تاركا إياها تحت المطر. حطّت الطائرة التي نقلتني مع جمع من السيّاح فارين هم أيضا من الطقس الرديئ. في مطار مالقة قبل الغروب بقليل. أمضيت الليل هناك. وباكراً هذا الصباح، ركبت حافلة أوصلتني إلى هنا في الساعة الثامنة. لقد مررت من هذه المدينة الهجينة أكثر من مرة خلال تيهي في إسبانيا. وفي كل مرة، كنت أفعل ذلك مضطرّا. أمّا الآن فقد جئتها اختياريا ذلك أنني أريد أن أتحسّس المشاعر التي سوف تنتابني عندما أعبر الخطّ الفاصل بين الغرب والشرق. ثم لأنني أريد أن أصل على مهل إلى مدينة روزالي، متجنّبا تلك الصدمة العنيفة التي تعتري كائنا مثلي عاش طويلا في الشمال البارد، عندما ترمي بي طائرة في ظرف ساعات قليلة فوق أرض الجنوب الحار. على مهل إذن. حتى إذا ما طرقت باب بنسيون روزالي، وجدتني جدّ مهيئ لذلك. فلا أتلعثم، ولا أضطرب، ولا أتلكأ، ولا أنفعل. بل سأكون متماسكا، هادئاً، رصيناً، جديراً بحب امرأة متمرّسة، تجاوزت خفّة المراهقات، ورومانسيّة العاشقات العديمات التّجربة. وعلى أية حال أنا الآن في أقصى درجات السعادة. فقد حققت رغبتي. رغبتي التي خلت عقب تلك الليلة اللعينة التي تمّ الإعتداء فيها

عليّ بمثل تلك الوحشية أنه لن يكون بمقدوري تنفيذها. فعندما استيقظت ظهر اليوم التالي، كان وجهي متورّما، وعيناي زرقاوين منتفختين، وعلى كامل جسدي رضوض وخطوط زرقاء وحمراء، هي آثار أحذيتهم العسكرية. باختصار، كنت مشوّها تماما حتى أنه كان من العسير عليّ إقناع نفسي بأن الكائن الذي يطالعني في المرآة هو أنا! هتفت لحميد فجاءني بسرعة. حالما رآني ارتدّ إلى الوراء مرتعبا، وصاح بي:

- يا إلهي! ماذا جرى لك؟!

رويت له ما حدث فقال لي وقد تكمشّ وجهه امتعاضا وحنقا:

- لقد حذرتك... فلقد كان واضحا أنهما يريدان الإعتداء عليك غير أنك لم تسمع كلامي وعجلت بالخروج...

- حتى ولو بقيت إلى النهاية، فسوف يكونان في انتظاري ذلك أنهما كانا مصمّمين على الإعتداء عليّ.

- وماذا ستفعل الآن؟ هل ستسافر بهذه الخلقة المشوّهة إلى مدينة حبيبتك روزالي كما قلت لي البارحة؟!

- لا... عليّ أن أنتظر أسبوعا آخر على الأقل... بعدها سأسافر حتْماً.

- هل تريد شيئا.

- أكلا وبعض زجاجات بيرة...

- أنا تحت امرك...

مددت له مائة مارك. بعد نصف ساعة عاد حميد ومعه ما طلبت. جلس قبالة الفراش حيث كنت ممدّدا. ظل صامتا لحين، ثم قال:

- لقد كثرت الإعتداءات على الأجانب خلال الفترة الأخيرة. أعرف طباخا تركيا في مثل سنك، تعرض لنفس الإعتداء قبل أسبوع. والآن هو يرقد في المستشفى. وما أظن أنه سيعود إلى عمله قبل ثلاثة أشهر بسبب الأضرار التي لحقت به جرّاء ذلك.

ثم بصوت غاضب، صاح حميد:

- أتعرف لماذا كثر العنف هذه الأيام؟

- .....

- لأن الجدار سقط... سقوط الجدار هو سبب كل المصائب. وغدا ربما لن يكون في مقدورنا الخروج إلى الشارع لذا أنا الآن أفكر بجدية في العودة إلى

البلاد... لقد مللت الحياة هنا ولا أريد أن أموت ميتة حقيرة على رصيف الشارع اخر الليل أو محروقا بنيران عصابات حليقي الرؤوس...

– ومتى تنوي أن تعود؟

– مطلع العام المقبل على أقصى تقدير...

– وهل تعتقد أنك قادر على تحمّل العيش هناك بعد كل هذا الغياب الطويل؟!

– ربما سأعيش غريبا هناك أيضا، غير أن وضعي لن يكون أسوأ من وضعي هنا... أنظر إليّ جيّدا... لقد شخت قبل الآوان ولم يعد في جسدي ما يساعدني على مقاومة البرد الطبيعي والإنساني... أريد الشمس... أريد البحر... أريد امرأة حارة من بلادي.

– ولكن أنت لم تحصل على ما تبتغيه لما كنت شابا، فكيف تريد أن تحصل على ذلك الآن وأنت على عتبات الشيخوخة؟!

– أوف... لست أدري... مع ذلك أنا قررت العودة وسوف أعود!

أطرق حميد حينا من الزمن ثم رفع رأسه وقال بهدوء وبصوت متهدج:

– لقد بلغني أن والدي مريض جدّا، وأن والدتي تسأل عني طول الوقت. لعلها أصبحت تحبني الآن وأنا أيضا لم أعد أشعر نحوها بأي جفاء... آه... الزمن... الزمن يغيّر كل شيء يا صديقي بما في ذلك العواطف والأحاسيس... ألا تتفق معي؟!

– نعم... أنا متفق معك تمام الإتفاق.

– سأكون سعيدا عندما أرى والدي وأتحدث إلى أمي.

– إفعل ذلك.

– سأفعله قريبا!

غادرني حميد قبل منتصف الليل بقليل. وقبل أن أستسلم للنوم، كنت على قناعة بأن حميد كان مصيباً في ما قال وفي ما يعتزم أن يفعل. وفكرت أنا أيضا بأنه ربما يكون من الأفضل لي أن أغادر نهائيا مدينة غربتي وأستقر في مدينة روزالي الواقعة في أقصى نقطة من الشرق، على مرمى حجر من الغرب. بل وبدا لي أن مدينة روزالي قد تكون أفضل مكان يصالحني مع الشرق في هذه المرحلة من حياتي التي لم يتبق فيها غير قليل من الأحلام الذابلة. وعلى أية حال، سوف أتخذ القرار النهائي عندما أصل إلى هناك. آه... أنا لا أستطيع أن أصدق أنني سوف

أكون في مدينة روزالي بعد ثلاثة ساعات فقط من الآن!

الجبل على يساري. ذلك الجبل الذي مع أماكن أخرى بعيدة، على تخوم بلاد فارس والهند والصين وروسيا شغلني طوال طفولتي وجزءا من مراهقتي مثلما شغلتني تلك القصص والخرافات التي كان يرويها أهل حيّنا في ليالي السمَر الطويلة. وفي بداية تيهي في اسبانيا. قبل أن أستقرّ أو بالأحرى قبل أن أدفن نفسي في تلك المدينة الألمانية الواقعة عند أقدام جبال الألب، كان أول شيء فعلته هو زيارة الجبل مدفوعا بتلك الحكايات العجيبة والمثيرة التي سمعتها عنه وأنا أنمو بسرعة في حيّ "برج البقر" بمدينة "قاف." غير أن خيبتي كانت بلا حدود ذلك أنني لم أعثر على أثر يدل على أن طارق بن زياد وجنوده الذين أحرقوا مراكبهم حتى لا يكون لهم خيار غير مقاتلة العدو أو الموت غرقا في البحر، على أنهم مرّوا من هناك في يوم من الأيام. ولا أثر حتى ولو كان ضئيلا ضآلة حبّة الرمل. وفي النهاية تركت الجبل. وتحت شمس قائضة، مشيت باتجاه قرية إسبانية تبعد عنه كيلومترا واحداً، وصوت أستاذ التاريخ يتعالى من بعيد راويا بنوع من الأنتشاء والوجد قصص ذلك الماضي المهيب التي كان يقف لها شعر رأسي وأنا أنصت إليها... **كان ملك الأندلس قبل أن يفتحها العرب المسلمون يدعى رنريق. ورنريق هذا، لم يكن من سلالة الملوك. وقد قتل غدراً وخُشْنُدش بعد أن خالف عليه. وبعد ذلك غيّر الحكم، وأفسد سنن الملك. وخطاه الأكبر هو فتحه البيت الذي كان كل ملك يموت يُكتب اسمه فيه، وكم ولي، وفيه يوضع تابوته مع تاجه. ولا سبيل بعد ذلك لفتحه فلما اعتزم رنريق فتحه، تضرّع إليه الناس وعرضوا عليه إن هو لم يفعل ذلك، أن يهبوه ما يوازيه من الذهب والفضة. غير أن رنريق الذي كان عنيدا مثل بغل لم يقبل بنصيحة أحد وقرر تنفيذ ما يبتغيه. فلما فتح البيت، وجد فيه تيجان الملوك وتابوتا فيه صور العرب متنكبّة قسيّها، وفي رؤوسها عمائمها، وعليها مكتوب: "إذا فُتح هذا البيت أو أُخرجت هذه الصور، دخل الأندلس قوم من صورهم، فغلبوا عليها!" فلمّا دخلت العرب والبربر مع طارق بن زياد، والتقوا برنريق، تخلّى عنه جنوده وانهزموا عنه حتى قتل في مكان يسمى "وادي الطّين." وقيل أن العرب والبربر اقتتلوا من حين طلعت الشمس إلى أن غربت، فلم يكن قط بالمغرب مقتلة أعظم منها حتى أن عظام القتلى في المعركة ظلت دهراً طويلا لم تذهب. وظل طارق بن زياد**

والمسلمون من العرب والبربر يقاتلون النصارى إلى أن وصلوا إلى طليطلة وفيها عثروا على مائدة نبيناً سليمان عليه الصلاة والسلام، وايضا على صور العرب والبربر على خيولهم وهي الصور التي وجدها رنريق لمّا فتح البيت المحرّم. مبهور الأنفاس يتوقف أستاذ التاريخ وقتا قصيرا عن الكلام، ثم يقول: "أتعلمون يا أولاد أنه لولا مدينة "قاف" لما استطاع العرب المسلمون أن يفتحوا الأندلس، ولا أن ينشروا الإسلام. بين قبائل البربر وبين زنوج طومبوكتو وبلاد السينغال... نعم يا أبنائي... لقد كانت مدينة" قاف "القاعدة الأساسية التي انطلقت منها الفتوحات الكبيرة التي ساهمت في بناء وتوطيد أركان تلك الإمبراطورية الإسلامية العظيمة التي تمتدّ من تخوم الصين شرقا إلى بلاد الأندلس غربا... لذا لا بدّ أن تكونوا بها فخورين!" وفي المساء أعود أنا راكضا إلى بيتنا في حي "برج البقر" في قلب مدينة "قاف" لأروي لأمي ولخالتي محبوبة وأختي حليمة المذهولات كل ما سمعت من حكايات وقصص متوقفا عند أكثر التفاصيل دقّة حتى إذا ما فرغت من ذلك، ضمّتني كل واحدة منهن إلى صدرها، وعيناها مغرورقتان بالدموع. وكعادتها دائما، تعيد خالتي محبوبة وصاياها على مَسَامِع امي، آمرة إياها أن تكون دائمة الحذر والتيقظ حتى لا تصيبني عيون الحسّاد بمكروه. وتتباهى أمي بي قائلة بأنني عندما أكبر فسوف أكون سلطانا على البلاد بأسرها. وأفرح أنا كثيرا إذ أنه لا شيء يسعدني في ذلك الوقت، ومنذ أن شاهدت موكبا بهيجا لشخصيات مرموقة زارت مدينة "قاف" يوم عيد المولد النبوي الشريف، مثل أن أكون واحداً من بينها، بكسوة زرقاء داكنة اللون، ورباط عنق بألوان زاهية، ووجه يلمع صحة وعافية ونفوذا. أما أختي حليمة، فتظل تنظر إليّ صامتة مفتونة كما لو أنها تنظر إلى ملاك. ويوم الجمعة، يوم عطلته الأسبوعية، كنت أرافق أبي الذي يمضي جزءا كبيرا من النهار نائما، أما الليل فيقضيه بطوله تقريبا في فرن "سيدي بوفندار" حيث يعمل فرّانا، إلى الجامع الكبير للإستماع إلى خطبة الإمام. وفي طريقنا إليه، لم نكن نسمع في المدينة كلها غير صوت الشيخ علي البراق، المقرئ البصير، وهو يرتل القرآن. وكان صوته يبكيني أحيانا، ويبكي أبي أيضا. وقد سمعت أكثر من مرة أهل الحي يقولون أن الشيخ البراق أبكى آلاف الناس يوم رتل القرآن في مكة. وكل صباح، كانت مدينة "قاف" بأغنيائها وفقرائها، وبكبارها وصغارها، تستيقظ على صوته الرخيم الذي يبدو كما لو أنه قادم من

أعماق تلك الصحراء التي أنجبت الفاتحين الأوائل الذين اجتازوا الفلوات، والصحاري، والجبال، وجاؤوا إلى هناك ليموتوا متوسّدين سيوفهم في معارك الجهاد في سبيل الله. وحتى عندما دخلت المرحاض، ودخنت أول سيجارة في أول يوم من رمضان وأنا في السابعة عشر من عمري، فأنني ظللت دائم الإنجذاب إلى صوت الشيخ البراق، خصوصا في الفجر عندما تكون المدينة لا تزال شبه خالية من الناس. وكم من مرة في مدينة غربتي، وددت لو أنني استيقظت على صوته إذ أن صوته يبدو لي أحيانا أنه كاف لإبعاد أشباح الكوابيس التي تَبيتُ الليل بطوله وهي تنهش لحمي وروحي. بل وأحيانا أخرى أقول لنفسي بأن أثمن وأروع شيء فقدته بعد أن طلقت الشرق وأهله هو صوت ذلك المقرئ الضرير.

بعد العودة من الجامع الكبير، أصاحب أمي وخالتي محبوبة وأختي حليمة إلى ضريح أبي زمعة البلوي، حلاق الرسول، الذي جاء مقاتلا مع المجاهدين الأوائل، وليس معه غير سيف وثلاثة شعرات من شعر الرسول إحتفظ بها من حلاقة حجة الوداع. وقبل أن يستشهد في إحدى المعارك الضارية مع البربر على سفح جبل أجرد غرب مدينة "قاف" أوصى ذلك الرجل الذي قيل أنه كان نحيفا، غائر الخدين، قليل الكلام، بعينين صغيرتين يلمع فيها نور الإقدام والتحدي، أن توضع الشعرات في المواضع التالية: شعرة على عينه اليمنى، وشعرة على عينه اليسرى، وشعرة تحت لسانه. وليس في مدينة "قاف" العامرة بالأضرحة، ضريح واحد يضاهي ضريح أبي زمعة البلوي في القداسة والجلال والجمال. الجميع يقصدونه. النساء كما الرجال. الكبار كما الصغار. الأغنياء كما الفقراء. المرضى والمتمتعون بالصحة والعافية. أصحاب العاهات وكاملو الصفات. الأرملة الحزينة والزوجةالسعيدة. البنت العاشقة والبنت البائرة. المراة العقيم والمرأة الولود. جميع هؤلاء يقصدونه. ولكلّ واحد منهم غرضه ورجاؤه ومطلبه وأمنيته. وعشية الجمعة بالخصوص، يتقاطرون عليه من كل حدب وصوب، ومعهم الهدايا. ولساعات طويلة، على ضوء الشموع، وسط روائح البخور النفاذة، يظلون يقبلون وشاح تابوته، متمتمين بالأدعية والصلوات راجين من ذلك الصحابي الميت منذ قرون أن يكون لهم سندا ونصيرا يوم يبعث الأمواتُ أحياءً ذلك أنهم يعتقدون أن كل صاحب من أصحاب رسول الله يكون قائدا ونورا يوم القيامة لأولئك الذين عاش بينهم. وكانت هذه الزيارات إلى ضريح أبي زمعة البلوي

تفتنني أكثر من الذهاب بصحبة أبي إلى الجامع الكبير للإستماع إلى خطبة الجمعة، ربما لأنها تنسيني كآبة الرجال هناك، أولئك الذين بملامحهم القاسية، ووجوههم الشاحبة المحفورة بالتجاعيد، وبلحيّهم البيضاء، وعيونهم المنطفئة، وكلامهم عن الجنة والنار، وعن الثواب والعقاب، يشيعون في نفسي خوفا ورهبة لا مثيل لهما، ويفصلونني عن طفولتي فإذا بي أحسّ وكأنني أصبحت مثلهم أدبّ على الأرض منحني الظهر، متعبا، مريضا، يائسا، ولا رجاء لي غير أن أغادر الحياة الدنيا بأقصى السرعة. ثم لأنها، أي هذه الزيارات إلى ضريح أبي زمعة البلوي، تبدو لي بتلك الروائح والألوان والأفراح والمسرّات التي تواكبها، شبيهة بحفلات الأعراس البهيجة. كل نساء المدينة يأتين وقد كحلن عيونهن وتزيّن بأحسن زينة، ولبسن أفضل ما عندهن والتَحفْن بـ"السفساري" الحريري الذي لا يخرجنه من الخزائن إلا في المناسبات الكبيرة، والذي يلف الجسد بعناية، مخفيا كل شيء ماعدا العيون السوداء الواسعة. كل النساء المتخفيات وراء الأبواب الموصدة، وكل البنات الجميلات المحرومات من تجاوز عتبة البيت، وحتى من النظر إلى الشارع من خلال النافذة، يأتين إلى ضريح أبي زمعة البلوي عشية كل جمعة. وفي ذلك الطريق الواسع، المحفوف بأشجار الياكلبتوس تراهن جماعات جماعات مثل أسراب من الحمائم البيض، يَخْطُرْنَ بتؤدة ودلال، ضاحكات، غامزات للشبان الواقفين هناك بعيدا في انتظار ابتسامة أونظرة أو كلمة يفك العاشق المتيّم ألغازها في الليل، وهو يتمشى وحيدا خارج أسوار المدينة. وحالما يلجن الضريح، يزحن "السفساري" عن أنصافهن العليا، ويتحلقن حول التابوت الأخضر وهناك يمكثن حتى بداية الغروب. وكان يروق لي أن أندسّ بينهن، متشمّما روائحهن، مسترقا النظر إلى خصلات شعرهن المنسدلة على أكتافهم مثل شلالات سوداء، وإلى أجسادهن البضة الناعمة، وأعناقهن التي لها صفاء البلور ورقة زهور الياسمين، والتي منها تتدلّى سلاسل الذهب الخالص. وكانت الفتحات بين النهود، والأيادي والأرجل المخضبة بالحناء، والضحكات الهامسة تشعل النار في جسدي حتى أنني أحيانا لا أقوى على احتمال ذلك، فأفر إلى باحة الضريح وبي إحساس أن رأسي وجسدي يشتعلان. وأنا كنت أعرف لم كانت أمي تحرص على أن نذهب كل عشية يوم جمعة إلى ضريح أبي زمعة البلوي. فقد كانت أختي حليمة قد قاربت سنّ الزواج. وجميعا كنا ندعو الله في السر والعلن، وفي

الليل والنهار، أن يسعدها بزوج بهيّ الطلعة، عامر الجيب، كريم النفس، طيب السريرة والقلب، عالي الهمة والأخلاق. وكانت خالتي محبوبة تطمأننا، وتقول ودائما بصوت عال وكأنها تريد أن يسمع ذلك جميع أهل حي "برج البقر"، بأن أختي حليمة تستحق كل خير. فهي جميلة، بل أجمل بنات الحي، وعارفة بشؤون البيت، وماهرة في الطبخ وفي نسج الزرابي، ولها يدٌ مباركة تضعها على التراب فيتحول إلى تبر. وأمي تصلي. وأبي يصلي. وأنا أصلي. وخالتي محبوبة تذرع المدينة طولا وعرضا وعينها على الفتيان بحثا عن العريس الجدير بأختي حليمة. وأختي حليمة تنسج الزرابي وتعد لنا الأكل، وتنظف البيت، وتهيئ مهرها محدقة في الأشياء والناس بعينيها العسليتين المفعمتين بحياء عذارى الشرق ولا تقول شيئا. ونحن نستيقظ كل صباح على أمل أن تدق باب بيتنا سيدة من أهل الحسب والنسب. وحين نفتحه لها، تقول وقد أشرقت أساريرُها بأنها جاءت لتطلبَ يد أختي حليمة لابنها الضابط في الجيش أو في الشرطة، أو الأستاذ، أو المهندس، أو المحامي، أو الطبيب... لمَ لا؟! ألم تقل خالتي محبوبة بأن زوج أختي حليمة لابُدّ أن يكون شخصيةً مرموقةً أو لا يكون. وأبي يصلي. وأمّي تصلي. والعريس يأبى أن يأتي. وحين تنفجر الزغاريد في بيت من بيوت الحيّ معلنةً عن حفلة خطوبة أو زواج، نتكدر جميعاً، ويصبح الطعام في أفواهنا أمرّ من الدفلى، وتخيّم على بيتنا وحشة قاتمة لا تنقشعُ إلاّ عندما تعود خالتي إلى إطلاق وعودها الجميلة مؤكدةً لنا، وهي على ثقة كاملة من نفسها، بأن العريس الجدير بأختي حليمة ليس من أولئك الفتيان الذين يمكن التقاطهم من رأس الشارع، والذين يمضون أوقاتهم مستندين إلى الحيطان، يراقبون الغادين والرائحين، وهم يتثاءبون كسلاً وخمولاً، وإنما ذلك العريس الذي يملأ العين والقلب والذي يبطئ دائما في المجيء، لأن في العجلة الندامة، وفي التأني السلامة. وأختي حليمة تنصتُ إلى هذا الكلام الجميل والحكيم ولا تقول شيئاً. ومهرها أصبح جاهزاً منذ أزيد من عامين غير أنه لا أثر للعريس المنتظر. ونحن لم نعد نكتفي بزيارة ضريح أبي زمعة البلوي، بل رحنا نطوفُ في جميع أضرحة الأولياء الصالحين، وهي كثيرة في مدينة "قاف"، وفيها نذبحُ ديكة حمراء أو سوداء، ونطعم اليتامى والمساكين المتكدسين أمام أبوابها طول النهار وطول الليل. وفجر كل يوم جمعة، نرافقُ أختي حليمة مصحوبين بخالتي محبوبة إلى الجامع الأنصاري الواقع على الخط الفاصل بين حيّنا وحيّ

الأشراف. "ومثل كل الصبايا الراغبات في الزواج، تلطخ أختي حليمة جدران المسجد بالحناء وهي تهمس: "يا محنّية حنّ عليّ!" وواقفة وراءها، تهمس خالتي: "يزيّنْ ليلتك ويشعّل فتيلتك، الحنّه في لَقْدَام والسّعدْ لقدّام!" غير أن السعد ظلّ سراباً، والحناء على جدران المسجد الأنصاري لم تجلب لنا غير مزيد من اليأس والوحشة والخوف. وشيئاً فشيئاً ظلّلت وجه أمّي سحابة داكنة جعلتها تبدو وكأنها عجوز في الغابرين. وكفّت خالتي عن إطلاق وعودها الجميلة، وأصبحت تتحاشى زيارتنا ومصاحبتنا إلى الأضرحة. وبات وجه وشعَر أبي بلون الرماد. واشتدت عليه نوبات السعال حتى أنه كان يبدو لنا أحياناً وكأنه على وشك أن يموت مختنقاً هكذا أمام أعيننا. وثقل صمت أختي حتى أضحى شبيهاً ببركة من القطران، وهزل جسدها حتى بانت منه العروق والعظام، ونبل وجهها، ويبس صدرها، وفي عينيها العسليتين انطفأ نور البكارة والشباب. ومن حين لآخر، كانت تنخرط في بكاء صامت. وتظل سادرة في ذلك جزءاً كبيراً من النهار أو من الليل. وحين يفاجئها أبي وهي على تلك الحال، يتكوّم حزيناً في أحد الأركان. يشعل سيجارةً. يجذب منها نَفَساً عميقاً، ثم يقول بصوت منطفئ: "الله لا ينسى مخلوقاته. وما أظنّ أنه سوف يغضّ الطرف عنا لما يحين موعدنا!" ومرة عجز أبي عن توفير ما أحتاجه من ملابس وكتب وأدوات مدرسية، فباعت أختي حليمة جزءاً من المهر الذي دأبت سنوات طويلة على تهيئته على أروع صورة لعريس لعلها باتت على يقين بأنه لن يأتي أبداً. وراحت تكرر هذه العملية مطلع كل سنة دراسية. مقابل ذلك، كنت أحتضنها، وأقبلها بحرارة واعداً إياها بأنني عندما أكبر، وأتوظف، فسوف أكافئها أجمل مكافأة. ولا تقول هي شيئاً. بل تكتفي بالنظر إليّ وكأنها تنظر إلى ملاك. أما أمي فيفرحها مشهد احتضاني لأختي قليلاً، فتقول وعيناها مغرورقتان بالدموع، بأنني أمل الجميع، ثم ترفع صوتَها داعيةً الله أن يوفق خطاي، ويقيني مكائد الحسّاد، وشرّ الحاقدين. وأنا كنتُ أكبر بسرعة، مُلْتَهماً كلّ ما يقع بين يديّ من كتب. حتى تلك الكتب الضخمة الصعبة التي لا يقرأها إلاّ الكبار لم تكن تفلت منّي. وشيئاً فشيئاً، أضحت الكتب التي تروي تاريخ مدينة "قاف" القديمة تفتنني أكثر من غيرها من الكتب، حتى أنني حفظتُ عن ظهر قلب فقرات طويلة منها. وتحت تأثير ذلك، كنتُ غالباً ما أسهو، وأغيب عن الحاضر، فإذا بي في زمن آخر. زمن كانت فيه مدينة "قاف" بقعةً من السباخ وغدران الملح

والغياض تأويها الوحوش والحيّات والعقارب. فلما وصل عقبة بن نافع إليها، وفي عسكره ثمانية عشر من أصحاب رسول الله، وسائرهم من التابعين، نظر إليها، وقال: "هنا تُبْنى أول مدينة للإسلام في هذه الأرض!" فخاف أصحابُهُ وأنصارُهُ وقالوا له: "إنك أمرتنا بالبناء في غياض وسباخ لا ترام. ونحن نخاف السّباع والحيّات وغير ذلك!" فما كان من عقبة إلاّ أن مضى إلى السبخة ونادي: "أيتها الحيّات والسباع! نحن صحاب رسول الله، فارحلوا عنّا، فإنا نازلون! ومن وجدناه بعد هذا قتلناهُ!" فنظر الناس بعد ذلك إلى أمر معجب، إذ أخذت السباع تخرج من الغياض وهي تحمل أشبالها سمْعاً وطاعةً، والذئبُ يحمل جروه، والحيّة تحمل أولادَها وكان الناس ينظرون إلى ذلك مذهولين. فلما لم يتبقّ في الغياض والسباخ أثر لتلك الوحوش والسباع والهوّام، أمر عقبة عسكره بالشروع في بناء مدينة سمّاها "قاف..." وعندما تطول خطبة الإمام يوم الجمعة، وتصيبني مواعيظهُ بالخوف والرهبة، تمضي ذاكرتي بعيداً بعيداً لتستحضر قصة بناء الجامع الكبير... **فلما اختلف الناس بشان الموضع الذي سيقام فيه المسجد، اغتمّ عقبة ودعا الله عزّ وجلّ في السرّ ان يفرّج عنه. فلما استسلم للنوم في ليلة صيف قائضة، اتاه آتٍ وقال له: "إذا اصبحتَ فخذ اللواء في يدكَ، واجعله على عنقك. فإنك تسمع بين يديكَ تكبيراً لا يسمعه احد من المسلمين غيرك. فانظر الموضع الذي ينقطع عنك فيه التكبير، فهو قبلتُكَ ومحرابك! وقد رضي الله لكَ امْرَ هذا العسكر وهذا المسجد وهذه المدينة! وسوف يُعزّ بها الله دينه، ويُذلّ بها من كفر به!" فاستيقظ من منامه، وهو جزع، فتوضّا للصلاة، واخذ يصلّي ومعه اشراف الناس. فلما انفجر نور الصبح، وصلّى ركعتي الصبح بالمسلمين، إذا بالتكبير بين يديه. فقال لمن حوله: "اتسمعون ما اسمع؟" فقالوا: "لا!" فعلم ان الأمر من عند الله. فاخذ اللواء، فوضعه على عنقه، واقبل يتبع التكبير حتى وصل إلى موضع المحراب، فانقطع التكبير، فركز لواءه وقال: "هذ محرابُكُم!" فكان الأمر كذلك.** ومن فرط تعلّقي بكتب تاريخ مدينة "قاف" القديمة، وكثرة قراءتي لها، أصبحت عارفاً بجميع تفاصيل حياة ملوكها وأمرائها. وكان ذلك الأمير المدعوّ إبراهيم بن الأغلب يشغلني أكثر من غيره من الأمراء، حتى أني كنت أروي قصته لجميع أهل الحيّ بأسلوب يجعلهم عاجزين عن عدم الإستماع إليّ. وفي ليالي رمضان التي كنت أقضي أغلبها في الفرن مع أبي، كان هو

وأصحابُهُ يلحّون عليّ دائماً في أن أعيدها على مسامعهم، فأفعل ذلك وهو ينصتون إليّ مخطوفي الأبصار والعقول... وكانت للإمير إبراهيم بن الأغلب اذن صاغية لأقوال المنجمين والمتخرّصين على الغيب، وكانوا يقولون له إنه سيقتله رجل ناقص، وإنه يمكن أن يكون فتى، فكان إذا رأى أحداً من فتيانه يتقلّد سيفاً وفيه نشاط وحدّة قال: " هذا صاحبي" ويقتله. فلما قتل منهم جماعة، أفضى به ذلك إلى قتلهم جميعاً مستخدماً عوضاً عنهم فتياناً من السودان. لكنه لم يلبث ان قتلهم جميعاً هم أيضاً. كما قتل ابنه المُكَنّى بابي الأغلب وضربت عنقه بين يديه، وسبب ذلك أن احد المنجمين قال لابنه إنه سَيَلي الملك، ثم امر بإحضار المنجم فقتله، وقتل اخوته وكانوا ثمانية. وكان يقتل بناته أيضاً. فكانت امّه إذا ولدت له بنتٌ من إحدى جواريه اخفتها وربّتها، حتى اجتمع عندها ستّ عشرة جويريّة، فقالت له يوماً، وقد لمست منه رقّة: "يا سيّدي، قد ربّيت لكَ وصائف، افتراهُنّ؟" فقال "نعم" فزينتهنّ وادخلتهنّ عليه، فاستحسنهنّ، فقالت له: "هذه بنتك من فلانة وهذه بنتُكَ من فلانة" حتى اتت على آخرهنّ. فلما خرجت قال لخادم له اسود كان سيّافاً يُدعى ميمون: "إمضِ وجئني، الآ، برؤوسهنّ." فتوقف الخادم استعظاماً لذلك، فقال له الأمير غاضباً: "إمضِ - ويلك - وإلاّ قطعت راسكَ قبلهن!" فلما بلغت ام إبراهيم بالخبر، كبر ذلك عليها، فتوسلت إليه أن يراجع قراره، فقال لا سبيل إلى ذلك. ووقف السيّاف على ما يُراد بهنّ. فصحن باكيات: "يا سيدي وما الذي اذنبنا؟ اما ترحمنا؟" فلم يُغْنِ ذلك شيئاً، وقطع رؤوسهنّ، وهن ينظرن بعضهن إلى بعض، وجاء إليه بها، معلّقة بشعورهنّ، فوضعها بين يديه... ثم انجذبتُ إلى قصص الأولياء والصالحين والبهاليل، خصوصاً بعد أن اكتشفت أن مدينة "قاف" كانت عامرة بهم في الزّمن القديم، وعلى نوادرهم وكراماتهم كانت تعيش، لذا فإن في كلّ حيّ من أحيائها تقريباً، ضريحاً مخصصاً لواحد منهم. وقد واظبت على زيارة تلك الأضرحة جامعاً أخبار أصحابها وحكاياتهم العجيبة، مثل حكاية ذلك النساج الشابّ الذي كان يخرج صباحاً عندما تشتدّ عليه الحالة ويترك المنسج ينسج وحده. وحين يعود مساء، يدفع لوالده قطعة من النسيج. فتعجبت زوجة أبيه من هذا الأمر وقالت له: "هذا لا يكون من عمل يده!" وذات يوم خرج النساج الشابّ تاركاً غرفته مغلقةً: فما كان من إمرأة أبيه إلاّ أن نظرت من شق

الباب، فإذا المنسج ينسج وحده. فاستغربت الأمر كثيراً وقالت لزوجها: "إن ابنكَ كبر في السنّ، ولا يليق أن ينامَ معنا في نفس البيت!" فأطاع أمرها ووجد لابنه بيتاً خاصاً به. وذات ليلة استيقظت الزوجة، فسمعت كلاما ودويا عجيبا فقالت لزوجها: "ما هذا الضجيج الذي نسمع في بيت ابنك؟" فقال لها: "أتركيه." فقالت: "لابد أن أذهب لأعرف ما يجري!" ثم قامت ونظرت من شق الباب فوجدته جالسا على كرسي لا يعلم وصفه إلاّ الله وحوله كراسي أخرى كثيرة وهو يتلفظ بكلام غريب. ثم سمعته يقول: "كشفت سري. أعمى الله بصرها!" وعندئذ أحست أن الظلام يغشي بصرها...

ومن أغرب الحكايات التي سمعتها، حكايات بهلول آخر كان نجارا وحدّادا مشهورا في مدينة "قاف." وقيل انه كان اول من تنبأ باحتلال بلادنا من طرف الفرنسيين إذ أنه ظل يردد لفترة طويلة هذه الجملة: "سيأتيكم رجال شقر من الغرب يحصدون زرعكم ويستحيون نسائكم!" وكان اهالي مدينة "قاف" يهابونه، ويتقرّبون إليه طمعا في نيل بركة من بركاته. وكان هو مدمنا على شرب القهوة وعلى تدخين الحشيش جهارا، ناصحا الناس بأن يفعلوا مثله ذلك أن الحشيش حسب رأيه يزيل الكرب عن النفوس ويطلق اللسان، ويحرر العقل والخيال. ومن فرط إعجابه بالحشيش صنع لنفسه غليونا من الخشب الرفيع طوله يزيد عن المترين وعليه كتب آيات قرآنية وأبياتا من الشعر تمجّد الحشيش وفوائده. ويذكر الناس أن سلطان البلاد شفي من مرض عضال لمّا لبس جبّة هذا الولي لذا أمر أن يبنى له ضريح بسبعة قباب... وكانت قصص الصلحاء والأولياء و البهاليل تفتنني كثيرا، وتنسيني فقرنا، وخصاصتنا، وأحزان أمي، وبوار أختي حليمة. وترمّل خالتي محبوبة المبكّر، وأمراض أبي التي أخذت تشتد وتتكاثر، وبيتنا الشبيه بخربة مهملة. وتحت تأثيرها كان الخيال يطّوح بي أحيانا فإذا بي أرى نفسي وقد تحوّلت إلى كائن قادر على أن يأتي بالعجب العجاب. وها أنا أبني لعائلتي الصغيرة قصرا في ضواحي مدينة "قاف" تحيط به الجنان، وألبسُ أمي وخالتي محبوبة ما تلبسه نساء حي "الأشراف"، وأرسل والدي للحج كل عام وأيضا إلى أشهر المصحات في العاصمة، وأزوّج أختي حليمة من أكثر الرجال وسامة وثراء وذكاء، فيعود إليها جمالها وشبابها، ومن جديد يلمع نور البكارة في عينيها العسليتين. وفي ذلك اليوم الخريفي الثقيل، الراكد الهواء، كانت مدينة "قاف" تعجّ بالغبار والذباب فتركتها وفي

نفسي وحشة لا أدري سببها وتوغلت في البرية المحيطة بها إلى أن غابت عني تماما. فجأة بين أشجار هزيلة، ونباتات ذابلة، رأيت ضريحا لم يسبق لي أن رأيته من قبل أبدا. اقتربت منه فوجدت على بابه شيخ نحيل، يرقع جبته وأمامه برّاد شاي على النار. حييته فرد على تحيتي دون أن يرفع رأسه. سألته:

– لمن هذا الضريح؟

رفع رأسه الأشيب. تمعّن فيّ، ثم سألني بدوره:

– من أين أنت؟

– من مدينة "قاف." قلت.

– لا يمكن أن تكون من مدينة "قاف!" قال الشيخ بحدة.

– ولم لا؟! قلت.

– لأن جميع أهلها بكبيرهم وصغيرهم يعرفون صاحب هذا الضريح وقصته العجيبة. قال.

– ولكن انا من مدينة "قاف" أباً عن جدّ، وأعرف جميع هذه الأضرحة ماعدا هذا الضريح. قلت. لحين، ظل الشيخ يتمعّن فيّ ثم قال وعيناه تلمعان بنور غريب:

– صاحب هذا الضريح كان من أعظم فقهاء هذه المدينة. ولا أحد مثله حكم بالصدق والعدل وقد كان عدوّا للأمراء وأصحاب الجاه والسلطة لذا أوصى بأن يدفن في الخلاء حتى يكون في مأمن من شرورهم وأذاهم. وقبل أن يموت، قال قولة لا تزال على ألسنَة الناس حتى يومنا هذا: "عند اقتراب يوم الآخرة، ستكون مدينة "قاف" مدفنا لا مسكنا!" ويبدو أنه صدق في ما قال ذلك أن مدينة "قاف" تبدو اليوم وكأنها ركام هائل من الخرائب تجوس فيها أشباح شريرة بلا قلب وبلا ضمير... لذا هربت منها أنا أيضا وجئت إلى هذا الخلاء ولا رجاءَ لي غير أن أموت عند باب ضريح ذلك الفقيه الذي كان يأكل خبزا يبلله في الماء، ويغمسه في الملح قائلا ":إني لم أكله زهادة في الدنيا، ولكن لئلاّ أحتاج إلى الأمراء فأهون عليهم... "أيكفيك هذا يا ولدي؟!"

أربكني حديث الشيخ فانسللت مبتعداً دون أن أحَي، تاركا إياه منشغلا بترقيع جبّته الرمادية. مشيت في الدروب الرملية متثاقل الخطى، معتم النفس، متعكّر المزاج، وفي رأسي طنين مثل طنين ذباب لجوج. وحالما أشرفت على المدينة "قاف"، اكتشفت لأول مرة أنها محاطة بالمقابر من كل الجهات. مصعوقا بذلك

الإكتشاف، وقفت أتمعّن فيها، وإذا بها تتراءى لي، وكما قال الشيخ، ركاما من الخرائب، وفيها يعيش أناس ينتمون إلى عالم الأموات وليس إلى عالم الأحياء. قبور. قبور.قبور. لكأن الزمن توقف فيها منذ أن داهمها أعراب بني هلال الذين جاؤوا من جنوب مصر في سنة مجاعة وجدب، لينهبوا خيراتها، ويحرقوا بساتينها، ويستبيحوا نساءها، ويدمرّوا معالمها، ويعلقوا رؤوس أشرافها على الأسوار. وعلى مدى قرون مديدة، هي لم تكن غير مقبرة ملقاة في العراء، تزداد اتساعا يوم يوم، طامسة كل أثر من آثار الحياة فيها، ناسفة كل لحظة تولد من الحاضر أو المستقبل، ذلك أن الماضي بالنسبة لها هو الزمن الواحد الأوحد وبنفس تلك السرعة التي يخترق بها البرق السماء المدلهمة بالسحب، أدركت أن الكلمات التي تلفظ بها الشيخ، أصدق وأبلغ من جميع الكتب التي قرأتها حتى ذلك الحين. وقبل أن يهبط ليل ذلك اليوم. كنت قد انفصلت عن مدينة "قاف"، وبتّ على يقين أن بوار أختي حليمة، والأمراض التي تنهش جسد والدي، والهرم الذي بسط ظلاله القاتمة على ملامح أمي قبل الأوان، والترمل المبكر لخالتي محبوبة، وجميع المصائب الأخرى التي ابتلينا بها، وما زلنا نبتلي بها، هي بسبب تلك المدينة الميّتة منذ زمن بعيد. وفي ظرف أيام قليلة، قوّضت كلمات الشيخ تلك الأساطير البديعة التي غرست في قلبي حبّا لمدينة "قاف" كنت أعتقد أن الزمن لن ينال منه أبدا. بل أنني كنت من فرط عشقي لها، أقول في نفسي وأنا أتصفح الكتب القديمة، أني وعائلتي، أسعد الناس في الكون ذلك أن الله أنعم علينا بالعيش في مدينة كرّمها الله مثلما كرّم مكة والقدس الشريف، فأنجبت مجاهدين أفذاذا نشروا الإسلام في بلاد البربر، وقطعوا البحر لغزو بلاد الروم، وفقهاء صلحاء نطقوا بالحق في زمن الأباطيل، وبأولياء زاهدين في الدنيا، راغبين في الآخرة، لذا اكتفوا بارتداء برانيس الصوف الخشنة، وبأكل الخبز اليابس المغمّس في الماء والملح، وبالعيش في الخلاء غير آبهين لا بالبرد ولا بالحر، حتى يثبتوا للناس أن محبة الله وحده هي السّبيل الوحيد للفوز برضاه، والوصول إلى الجنة الموعودة. غير أن ذلك الحب العارم لمدينة "قاف" – ذوى – بأكثر سرعة من ذبول الأوراق في الخريف العاتي، وتناثر رماداً في الهواء، وغدا شيئا من ذلك الماضي المقيت الذي رحت أجتثه من كياني مثلما يجتث المزارع الأعشاب الفاسدة في حقله. وما عدت أروم الإقتراب من الكتب والمدّونات القديمة إذ أنها أضحت بالنسبة لي ركاما هائلا من الأكاذيب

والأوهام والزيف، ولا ارتياد المساجد والأضرحة وجميع تلك المعالم التي كانت تمثّل الدّليل الساطع على تاريخ مجيد عاشته مدينة "قاف" في الأزمنة الغابرة. كما انني انقطعت نهائيا عن قصّ أخبار وحكايات الماضي، لا لأفراد عائلتي ولا لأهل الحيّ كما اعتدت أن أفعل من قبل. وكلما طلبوا مني أن أفعل ذلك، رفضت الإنصياع إلى طلبهم وأنا في أقصى درجات الإهتياج والغضب. فإذا ما ألحّوا في الطلب، وأمعنوا في الإلحاح، فررت إلى الخلاء. ذلك الخلاء أصبح ملاذي منذ أن اقنعني الشيخ بأن مدينة "قاف" مدفنٌ لا مسكناً. وأكثر من مرة، حاولت أن أختلي بأمي لأرسم لها صورة لأفكاري واكتشافاتي الجديدة، ولأقنعها بأن سبب كلّ تعاستنا وشقائنا هي مدينة "قاف" ولا شيء آخر غيرها. غير أني أحجمت عن ذلك بعد أن ثبت لي أني سأصيب أمي وكامل أفراد عائلتي، بأذى كبير، بل أني سأبتر كل الخيوط الواهية التي لازالت تربطهم بالحياة إذا ما أنا أقدمت على تنفيذ رغبتي تلك. وهكذا خيّرت التستّر والصمت غير عابئ بالقلق الذي استبدّ بهم، ربما بسبب التحوّلات الكبيرة التي كانت تحدث في كل يوم. بل في كل ساعة في عتمة كياني، والتي قد يكونون حدسوا ظلالها على ملامحي.

ثم بدا لي أنه من الضروري أن أغيّر حياتي رأسا على عقب حتى أكون منسجما مع قناعاتي ومع أفكاري الجديدة، ومتأكدا من أنني أنتمي إلى عالم الأحياء وليس إلى عالم الأموات. وحتى ذلك الحين، كنت منقطعا انقطاعا كليا عن مشاغل أندادي. ولم يكن يعنيني ولعلهم بالرياضة، خصوصا بكرة القدم، ولا أحاديثهم الهامسة عن البنات والحب، ولا عشقهم للأفلام العاطفية المصرية، وأفلام الوستارن، ولا الجولات التي يقومون بها على ظهور الدراجات في ضواحي مدينة" قاف "ظهر يوم الأحد. وكنت أنفر نفوراً شديدا من الذين من بينهم يحفظون عن ظهر قلب أغاني عبد الحليم حافظ، ويدخنون السجائر في الخفاء، ويطيلون شعورهم، ويلبسون البنطلونات الضيقة، ويتكلمون برقة العذروات في سوق الذهب والفضة، ويقهقهون في الشارع دون حياء، ويطلقون كلمات بذيئة، أو صيحات إعجاب عند مرور فتاة. وكانت أسعد أوقاتي تلك التي أقضيها متصفحا الكتب والمدونات القديمة، أو راويا لأهلي قصص الماضي المجيد، أو متجوّلا بين الأضرحة، أو مُتربّعا في الجامع الكبير أرتل بصوت خافت آيات من الذكر الحكيم، أو مُترويا في ركن من أركان ضريح أبي زمعة البلوي ألْهَجُ بالدعاء لأختي حليمة

لكي يعجّل الله بزواجها، ويقيها لعنة البوار. وكانت مشاغلي هذه تشعرني أني أقرب إلى عالم الكبار من عالم الصغار، لذا كنت أتعامل مع أندادي كما لو أنهم لم يدركوا سنّ النضج بعد. وكان يتراءى لي أنهم يهدرون أوقاتهم في مشاغل سخيفة ومضحكة، تُسيء للدّين والأخلاق ولمدينة "قاف" المقدسة، وتثبت بما ليس فيه أي مجال للشك أنهم سائرون في طريق الغيّ والضلال. أتاهم، خصوصا ذلك الوغد جمعة الذي كنت أكرهه أكثر من الجميع، فقد كانوا يسخرون مني في السرّ والعلن ويصفونني بـ"الأوزة" بسبب مشيتي التي كنت أحرص دائما على أن تكون متزنة ورصينة، وبـ"إبن أمه" لأنني كتبت قصيدة في مدح خصال أمي، قرأتها في النادي الأدبي التابع للمعهد، ونلت بسببها استحسان وتقدير كل أساتذة اللغة العربية. وكانوا ينسجون حكايات كثيرة في نمّي، ويُروّجون أنني سأفقد عقلي وبصري قبل بلوغي سن العشرين بسبب تلك الكتب الصفراء التي كنت أقرأها، وأني سأموت حتماً مختنقا بغبارها، وأن شيئي لا ينتصب لأنني أسارع بإحناء رأسي كلمّا عبرت فتاة أمامي. وكانت أقاويلهم وحكاياتهم هذه تغيضني، وتبكيني أحيانا، غير أنني كنت أتمكن دائما من دحرها، وذلك بعد أن أختلي بنفسي في غرفتي أو في ضريح أبي زمعة البلوي، وأتوصّل في النهاية إلى إقناع نفسي بأنني في طريق الحق، أمّا هم ففي طريق الباطل. ثم أن تفوقي في الدراسة كان يخفف عني الكثير من أذاهم، ويحبط العديد من مؤامراتهم الشريرة ضدي، ويُسكت ألسنة البعض منهم خصوصا أولئك الذين يبتغون ان أقدم لهم مساعدات في يوم الإمتحان. أما ذلك الوغد جمعة فلم يكن يتركني في أمان ولو ليوم واحد. وكان يروق له أن يدعوني للمبارزة خصوصاً عندما ينال صفرا بحجم الخبزة في الرياضيات وفي الإنشاء. وكان ذلك يرعبني أكثر من أي شيء آخر ويجفف الريق في حلقي، ويجعل وجهي شاحبا مثل وجه أمي لمّا انطفأ آخر أمل لها في زواج أختي حليمة. ويظل هو يدور حولي وعيناه الخبيثتان تدوران في محجريهما، وقبضتاه مصوبتان نحوي مثل فوهتَيْ مدفع: "تعال... تعال أيها الجبان حتى تعرف ما معنى أن يكون المرء رجلا حقيقيا لا خنفس خراء مثلك... تعالْ!" كان يقول. وأنا صامت، وركبتاي ترتجفان، وريقي ناشف، وقلبي يضرب بشدة. وهو يدور ويدور وعيناه الخبيثتان، تَقْدَحَان شررا، وقبضتاه مصوبتان نحوي، وهما على استعداد تام لتكسير خلقتي، والآخرون وراءه يتهامسون محرضين إياه":كسر له وجهه... إفقأ عينيه... إنه

خنفس خراء حقيقي ولا بد أن يعرف ذلك الآن. الآن. "!لذا قلت أن أفضل وأول شيء افعله إذا ما أنا أردت أن أغيرّ حياتي حقا، وأن أصبح جديراً بعالم الأحياء هو أن أتحدّى ذلك الوغد جمعة، وأن أعفّر وجهه في التراب أمام الجميع حتى أثبت له ولأنصاره الذين يقفون وراءه، أنني لست ماهرا فقط في الجمع والطرح، وفي حلّ الغاز الجبر، وإنما أنا فالح أيضا في الرّفس والدّهس وتكسير الوجوه. وفي ظهيرة يوم أغبر ذهبت إلى المعهد منتفخ الأوداج مثل جمل هائج. حالما رأيت ذلك الوغد جمعة، حدجته بنظرة قاسية، ثم بصقت على الأرض امتعاضاً. أصيب هو بالدهشة، فظل يحدق فيّ حينا من الزمن وقد بدا عليه الإرتباك والحيرة. ثم لم يلبث ان تدارك أمره، وهبّ نحوي شاهراً قبضته، وخلفه جميع أنصاره:

– على من تبصق يا خنفس الخراء؟! صاح فيّ وهو يكزّ على أسنانه.

– عليك أنت أيها الجحش البليد! قلت وقد اشتعل جسدي غضبا، وبلغت رغبتي في الإنتقام أوجها.

أصيب هو بالدهشة ثانية، فتراجع إلى الوراء قليلا كمن يتلقى لطمة على غفلة، ثم مدّ رأسه إلى الأمام، ومشيرا بسبابته نحو صدره، صاح:

– عليّ أنا؟!

– عليك أنت يا ابن العاهرة!

نعم... قلت عليك أنت يا ابن العاهرة، أنا الذي لم أتفوّه منذ فتحت عينيّ على الدنيا وحتى ذلك الحين، بأية كلمة بذيئة. وكنت حين أسمع شيئا من هذا القبيل، خصوصا في الصباح الباكر، أو في يوم الجمعة، أتشاءم كثيرا، وأدعو الله ورسله وأولياءه أجمعين أن يعجلوا بمعاقبة أولئك الذين يعيثون في الرض فساداً وتخريبا، ويُسَمّمُون اللغة التي نزل بها القرآن الكريم. ومن دون أن أنتظر كلمة أخرى منه، اندفعت نحو ذلك الوغد جمعة. وبكل الحقد الذي تجمّع في صدري ضده على مدى سنوات طويلة، سددت له ركلة بين فخذيه أسقطته على الأرض في الحين وهو يتأوه من شدة الألم. وقبل أن يستفيق من هول الصّدمة، ارتميت عليه، ورحت أضرب وأضرب وأضرب. هذه على عينيه الخبيثتين، وهذه على أنفه الغليظ، وهذه على فمه القبيح، وهذه على أسنانه التي تشبه أسنان الكلب، وهذه للذي زرع بذرته في فرج أمّه، وهذه لأمه الفاجرة، النفاثة في العقد، وهذه لأخواته البشعات، وهذه لأجداده وأجداد أجداده، وهذه لأنصاره. وهو يصرخ ويولول

وأنا أضرب. أضرب. أضرب. آه ما أحلى ما أفعل! وما أبدع استفاقتي من سباتي الطويل! وهو يصرخ ويولول ويستغيث وأنا أرفس وأركل وأخمش وأخدش وأعضّ وهو يتلوى تحتي ذليلا ويصيح طالبا النجدة. لكن لا أحد من أنصاره تجرّأ على إغاثته. كلهم كانوا واقفين يتفرجون وأفواههم مفتوحة من الدهشة. وأنا أضرب وأعجن ذلك الوغد جمعة مثلما يعجن أبي الخبز في فرن "سيدي بوفندار." وهم ذاهلون وصامتون وأنا أضرب زعيمهم بلا شفقة ولا رحمة. زعيمهم الذي عذبني وأهانني طويلا طويلا وأنا ساكت وخائف أقرأ الآيات البيّنات في الجامع الكبير، وأقلب صفحات الكتب الصفراء المغبرة، وأطوف بين الأضرحة داعيا الله أن يعجّل بزواج أختي حليمة. وهو يدور حولي... تعال... تعال... وأنا أرجف من الرعب. وهو يدور ويدور... تعال... تعال حتى تعرف ما معنى أن يكون المرء رجلا حقيقيا لا خنفس خراء مثلك. وها قد انقلبت الآية. والآن هو خنفس الخراء أمّا أنا فرجل حقيقي. رجل لا يتبجّح الكلام وإنما يفعل.

نهضت.

ظل هو ملقى على الأرض مثل ثوب قديم ملطخ بالدماء...

لاهثا، حدجت أنصاره بنظرة شرسة وكأني أدعوهم للمبارزة واحداً واحداً فتراجعوا إلى الوراء مرتعبين. وفي عيون البعض منهم، لمحت ظلال التقدير والإحترام، بل والرغبة في أن أكون زعيمهم الجديد، بعد أن مُني زعيمهم القديم بهزيمة نكراء. غير أني لم أعبأ بذلك إذ أن ما كان يهمّني حقا هو أن تتغيرّ حياتي بأقصى السرعة، وأن أطوي صفحة الماضي البغيض الذي عشته على مدى سبعة عشر عاما.

في المساء عدت إلى البيت. حالما رأتني أمي، شهقت مذعورة.

– ماذا حدث لك يا فلذة كبدي؟! صاحت.

– لا شيء، قلت.

– كيف لا شيء... وهذه الخدوش الفظيعة التي في وجهك ما سببها؟!

– لقد لعبت كرة القدم مع أصحابي في المعهد...

– كرة القدم؟! وما علاقة كرة القدم بهذه الخدوش؟!

– لقد اصطدمت بأحدهم.

– مستحيل... أنا لا أصدق كلامك هذا... واضح أنك تضاربت مع أحد ما...

– لم أتضارب مع أحد.

– لا تكذب عليّ يا ولدي... صارحني بالحقيقة كما كنت تفعل دائما وأبدا...

– قلت لك لم أتضارب مع أحد! صحت بحدّة محاولا أن أوضّح لها من خلال نبرة صوتي أنني لا أرغب في سماع مزيد من الأسئلة.

ظلت صامتة لحين، ثم اقتربت مني. ضمتني إلى صدرها وقالت بصوت يخنقه البكاء:

– أنا خائف عليك يا ولدي!

تملّصت منها بحركة عنيفة ذلك أن الحنان الذي عودتني عليه على مدى سبعة عشر عاما لم يعد يروق لي. بل أصفح يثير قرفي واشمئزازي.

– خائفة علي من ماذا؟! صحت فيها.

– من أولاد السوء وعيون الحساد، قالت.

حدقت فيها. والآلام التي كانت تتماوج في وجهها الشاحب المبلل بالدموع، ولدّت في نفسي شيئا من الندم على ما قلت وفعلت. غير أني سرعان ما استعدت تصميمي على ضرورة تغيير مسار حياتي. وقبل أن أنسحب إلى غرفتي تاركا أمي مصعوقة صحت وأنا في حالة من الذهول الشديد بسبب تلك الجرأة الغريبة التي اكتسبتها في زمن قصير للغاية:

– من الآن فصاعداً... أريد أن أكون مسؤولا عن حياتي ولا أريد أن يتدخل أحد منكم في شؤوني الخاصة!

صبيحة اليوم التالي، وأنا واقف في ساحة المعهد في استراحة الساعة العاشرة، اقترب مني المكي وعلى شفتيه ابتسامة عريضة تنمّ عن سعادة كبيرة ليقول لي بعد أن شدّ على يدي مصافحا:

– لقد كنت رائعا ظهر أمس!

– لم أفهم ما تقصد، قلت.

والحقيقة أني نادراً ما أتبادل الحديث مع المكي. فقد كان كل واحد منا يتحاشى الآخر، ويتجنّب الإقتراب منه. وقد يكون التنافس على المرتبة الأولى سبب ذلك. فالمكي قوي مثلي في جميع المواد. وفي حين كنت أنا أقوى منه في اللغة العربية، كان هو أقوى مني في اللغة الفرنسية. وكنت أحسده على قدرته الفائقة على حفظ قصائد الشعراء الفرنسيين خصوصا قصائد بودلير عن ظهر قلب، والإستشهاد

بها في المواضيع الإنشائية. وكان ملماً بكتاب وبشعراء فرنسيين لم أكن قد سمعت بهم، ولا قرأت لهم سطراً واحداً. ومرة قرأ في النادي الأدبي التابع للمعهد قصائد نظمها باللغة الفرنسية ومن فرط أعجابه بها، أهداه أستاذ اللغة الفرنسية، المسيو شاربانتيي، الأعمال الكاملة لموليير. وحزنت أنا لذلك حزنا شديدا، وظلت الغيرة تأكل نفسي أسابيع عدة. ولم تخف وطأتها إلاّ عندما نلت ثلاثية نجيب محفوظ تقديرا لقصة حصلت على الجائزة الأولى في إحدى المسابقات الأدبية التي جرت في المعهد. وكان المكي منطويا على نفسه، ومثلي لم يكن يخالط إلاّ القليل من الناس. وكان ميّالا إلى الصمت، كثير التأمل منصرفا إلى الدراسة انصرافا يكاد يكون كليا. حتى في أوقات الأستراحة، كان ينزوي في إحدى الأركان ليقرأ جريدة أو رواية من تلك الروايات الفرنسية التي يعشقها، وعنها يتحدث طويلا مع أستاذ الفرنسية المسيو شاربانتيي الذي كان يقول إن المكي جدير بأن يلتحق بجامعة السربون بعد الباكلوريا التي سينالها حتماً. وكان في سلوكه شيء من الترفّع والمهابة، الشيء الذي أفقد العديد من الأشرار في معهدنا القدرة على إيذائه والإساءة له. غير أن ذلك الوغد جمعة كان يكرهه مثلما يكرهني، ويسعى دائما لإستفزازه. مع ذلك، كان المكي يفلح دائما في التخلص من الشراك التي ينصبها له. ولم أكن أعرف الشيء الكثير عن حياة المكي سوى أنه يسكن الحومة القريبة من الجامع، وأن والده تاجر زرابي، وأن والدته التي يقال إنها من العاصمة ومن عائلة عريقة تتكلم الفرنسية بطلاقة. وما أظن أنه كان يعرف الشيء الكثير عني هو أيضا.

عند انتهاء دروس ذلك اليوم، اقترب مني المكي من جديد ليدعوني إلى القيام بجولة في المدينة التي كانت تتأهب لإستقبال شهر رمضان. ومنذ الخطوات الأولى في الشوارع الضيقة المتعانقة، المعطرة بروائح المأكولات، قام الوّد بيننا على أحسن وأفضل صورة، خصوصا لما شرعنا نتبادل الآراء حول الكتب. ومن فرط استغراقنا في الحديث عن ذلك، نسينا المدينة وأهلها تماما، وإذا بنا في عوالم ومدن أخرى، وبين أناس آخرين. ولم تنته رحلتنا العجيبة تلك في عالم الكتب إلاّ عندما ارتفع آذان صلاة العشاء في صومعة الجامع الكبير. في طريق العودة، قال لي المكي:

– ثمة رواية أعتقد أنها سوف تروق لك كثيرا إذا ما أنت قرأتها... لقد أهدتها

لي أمي بمناسبة عيد ميلادي السابع عشر. وكان ذلك قبل أسبوعين بالضبط.

– ما عنوانها؟ سألته.

– إنها رواية صغيرة ولذيذة جدّا جدّا، بل أستطيع أن أقول إنها ألذّ رواية قرأتها حتى هذه الساعة...

– ما عنوانها؟ سألته ثانية وقد التهب فضولي...

– "الغريب..." ومؤلفها يدعى ألبير كامو، وهو فرنسي ولد وعاش طويلا في الجزائر. ومنذ أن قرأت روايته هذه، أصبح كاتبي المفضل لذا أوصيت أمي التي ذهبت البارحة إلى العاصمة بأن تقتني لي البعض من مؤلفاته...

ثم ربت المكي على كتفي بلطف وقال:

– تعال معي حتى أعيرك هذه الرواية العجيبة.

رافقته إلى غرفته. كانت مليئة بالكتب والقواميس الفرنسية. وفي فضاءات الجدران الفارغة، صور لكتاب فرنسيين أعرف البعض منهم.

– هذه الصور هدية من أمي هي أيضا. وأصحابها هم الكتاب الذين تحب خصوصا موباسان الذي قرأت كلّ مؤلفاته تقريباً... قال المكي.

وعندما كنت أتمعّن في الصور، دخلت فتاة في حوالي العشرين من عمرها، بفستان أزرق، وشعر قصير، وعينان سوداوان واسعتان، ووجه قمري، مفعم بالرقة والجمال:

– بونسوار. قالت.

– سعيد أن أقدم لك أختي سعاد... إنها طالبة في قسم الآداب الفرنسية بكلية الآداب بالعاصمة. قال المكي. ثم مشيراً إليّ، أضاف :

– هذا صديقي ميلود... وهو معي في نفس الفصل ويحبّ الأدب كثيرا.

– أهلا وسهلا! قالت سعاد وعلى شفتيها القرمزيتين المكتنزتين ابتسامة ملائكية.

– سأعطيه رواية" الغريب "ليقرأها قال المكي.

– آ... فكرة رائعة! قالت سعاد. ثم التفتت إليّ وأضافت:

– أنا على يقين أنها سوف تعجبك كثيرا... لقد قرأتها ثلاث مرات دون أي ملل... إن كامو كاتب من عندنا... كل سطر يكتبه فيه روائح منطقتنا وشمسها...

مدّ لي المكّي الكتاب. شددت على يده وعلى يد أخته سعاد مودّعاً، ثم ركضت إلى

البيت. التهمت بسرعة المعكرونة الحارة التي قدمتها لي أمي، ثم انسحبتُ إلى غرفتي. والجملة الأولى من الرواية: "ماتت أمي اليوم، أو أمس، لستُ متأكداً من ذلك" خطفتني في رمشة عين إلى عالَم آخر، لم أعد منه إلاّ عندما طويت الكتاب، وكان ذلك في ساعة متأخرة من الليل. ولأنّ النوم بدا لي مستحيلاً، فإني خرجتُ إلى المدينة، وظللت أطوف في الشوارع الضيقة، الفارغة، مستسلماً لذلك التيار الجارف من الأفكار والمشاعر التي فجّرتها الرواية في كياني. وبينما كانت أضواء الفجر تنتشر على الأسوار الغَمْرَاء، وأصوات الآذان تملأ الفضاء من حولي، شعرتُ أن تلك الرواية أزاحت حجاباً سميكاً عن أسئلة كنت أخشاها وأتجنب طرحها. فإذا ما ألحت عليّ، هرعت إلى الجامع الكبير وإلى ضريح أبي زمعة البلوي لكي ألغيها من ذهني. وها تلك الثوابت التي قامت عليها حياتي مُذْ فتحت عيني على الدنيا قد بدأت ترتجّ وتتزعزع، وأمامي انفتحت فلاة شاسعة من الأسئلة الحارقة والمرعبة. أسئلة كنت أعتقد قبل ذلك أنها تقود إلى الضلال أو إلى الجنون، إذ أن العالَم يَلوح لي مصمّماً بطريقة لا تقبل الشكّ أو الجدل، يُدير شؤونَهُ إلهٌ وَسِعَ كرسيُّه السماوات والأرض، لا تأخذه سنَةٌ ولا نومٌ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يحيطون بشيء من علمه. وخلال تلك الجولة الليلية التي قمتُ بها، كان ميرسول يرافقني في كل خطوة أخطوها. بل كان يتحدث إليّ وأنا أصغي إليه، شارباً كلماته بنفس نَهِم ظمآن يشربُ من عين ماء عثر عليها فجأة في قلب الصحراء. ومثله أنا أفتح قلبي إلى عدم الإكتراث الكوني البديع، وأمشي لا مبالياً بما.... حولي، أدخن السجارة تلو السجارة، وأشرب القهوة المرّة، وأعيش بعيداً عن جلبة البشر، وتفاهتهم وخساستهم ونذالتهم، ذلك أنني الآن سيّد نفسي. وكلّ ما تبقى هراء في هراء!

عقب ذلك بثلاثة أيام، دخلت المرحاض ودخنت أول سيجارة في أول يوم من شهر رمضان!

توطدت علاقتي بالمكي. وكانت أحلى الأوقات تلك التي أمضيها معه في غرفته، نتحدّث عن الكتب ونتبادلُ الآراء حول مسائل كثيرة. ومن خلال ذلك، تبيّن لي أن المكي انشغل قبلي بنفس تلك الأسئلة التي بدأت أطرحها أنا على نفسي، وأنه لم يتلمّس بعض الحقائق إلاّ إثر مسيرة طويلة وسط العتمة. في عطلة نهاية الأسبوع، تنضمّ سعاد إلى مجلسنا لتمكث معنا أحياناً حتى ساعة متأخرة من الليل. وكان

ذلك يسعدني كثيراً. وعبر سعاد، أصبحت مُلمّاً بمَا يدور بالجامعة من أحداث ومناقشات حول الأفكار والكتب. الشيء الذي ألهبَ حماسي للذهاب إلى العاصمة بأقصى السرعة. ذلك أنها بدت لي المكان المناسب لحياتي الجديدة. وفي فترة وجيزة للغاية، أنهيت العديد من الروايات الفرنسية أعارني إياها المكّي. وكانت رواية "الغثيان" لجان بول سارتر أفضلها بالنسبة لي. وهكذا لم يعد أبطالي محاربين ومجاهدين شاحبي الوجوه، حفاة الأقدام، يقطعون المسافات الطويلة، ليموتوا في سبيل الله متوسدين سيوفهم، ولا زُهّاداً يرتدون الصوف الخشن، ويأكلون الخبز اليابس المُغمّس في الماء والملح، ويعيشون في المغاور والكهوف، هرباً من شرور الناس، وتقرباً من الله، وإنما كائنات قلقة، حائرة، تعيش متوحدةً، منطوية على نفسها، تراقب حركة الناس أو تقلبات الكون بلا مبالاة تامّة!

حياتي الآن تتغير بسرعة مذهلة. كل يوم تقريباً، تموت فيّ أفكار ومشاعر، لتولد أفكار مشاعر أخرى جديدة. ومثلما طلقت الكتب الصفراء القديمة، طلقت مدينة "قاف" المقدسة، الزاهدة، المتعبدة، الحافظة للأخلاق والشرف. وكانت أمّي تستقبل تحوّلاتي تلك، بالدموع والآهات. أما أختي حليمة فقد أصبحت تتجنب النظر والتحدث إليّ. وكان ذلك يصيبني بالرعب، غير أنني كنت سرعان ما أتماسكُ وأعودُ لمواجهة الموقف بنفس اللامبالاة التي واجه بها ميرسول وفاة والدته. وبدا ابي مرتاعاً ومهموماً لما أدرك أنني لم أعد راغباً في مرافقته إلى الجامع الكبير يوم الجمعة، غير أنه ظلّ معتصماً بالصمت، يدخن ساهماً، وينظر إلى الأشياء، والناس من حوله وكأنه ينظر إليهم من العالَم الآخر. ويوم حصولي على شهادة الباكالوريا بتفوق، استعادت عائلتي الصغيرة ثقتَها فيّ، وبكت أمي وأختي حليمة وخالتي محبوبة من شدة السعادة. أما أبي فقد استقبل الخبر بابتسامة غامضة، وتمتم:

– كنتُ على يقين من ذلك... كل ما أرجوه الآن هو أن يقي الله ابني مَزَالِقَ سنّ الشباب ومخاطرها"!

أبحرت الباخرة باتجاه مدينة روزالي مكتظة بالمهاجرين من مختلف الأعمار. أطفال يزعقون ويتصايحون بلغات أوروبية عديدة. مراهقات بأقمصة خفيفة وبسراويل الدجينز، يمضغن الشوينجوم، وعلى آذانهنّ "الوالك مان." نساء

مترهلات، سمينات، يتحركن بصعوبة وقد غطّين رؤوسهنّ بمناديل بمختلف الألوان. شيوخ متعبون بلحي شعثاء تتدلى على الصدر، وجلابيات رثّة، وعيون منطفئة، يتمتمون بالصلوات، وأصابعهم النحيلة تعبثُ بحبات سبحاتهم. رجال رماديو السّحنات، يدخنون ساهمين، متطلعين إلى جبال الأطلس على الضفة الأخرى من المضيق، والتي بدتْ في ضوء الضحى الربيعي كما لو أنها على مرمى حجر. حقائب وأمتعة مكدّسة في كل مكان، وبأعداد هائلة. وعندما كنا نصعد إلى الباخرة، كانت هناك امرأة سمراء، قصيرة القامة، بمؤخرة كبيرة وبيدين غليظتين تدلاّن على أنها تمارس عملاً يدوياً شاقّاً، تدفع أمامها بطء النملة وإصرارها، سبع حقائب ضخمة ممتلئة حدّ الفيض. وكان لهاثُها يغطي على الأصوات من حولها، والعرق يتصبب منها بغزارة حتى بدتْ وكأنها غطسَتْ للتوّ في الماء بكامل ثيابها. وحين سألها الرجل النحيل المكتئب الملامح والذي كان يهب لمساعدتها من حين لآخر، عمّا تحتويه تلك الحقائب ردّت هي بنوع من الفخر، وبصوت عال كما لو أنها تريد أن يسمعها الجميع:

– "أوروبا بكل ما فيها في هذه الحقائب!" ثم أطلقت ضحكةً مجلجلة، وواصلَت دفع حقائبها السبع لاهثةً مبلّلة بالعَرَق من الرأس إلى أخمص القدمين. وحسب ما عايَنْتُهُ وأنا أصعد الباخرة، فإن جميع المهاجرين كانوا يحملون معهم حقائب وأمتعة وأكياساً بلاستيكية كثيرة وثقيلةً. لا أحد منهم كان يحمل مثلي أنا حقيبة صغيرة وخفيفة. إنّ رغبتهم في التملّك لا حدود لَها. بل هي داء عُضال. لعلهم يتوهّمون أنه باستطاعتهم بكل هذ الحقائب والأكياس البلاستيكية الثقيلة إعادة الرخاء إلى ذلك الشرق الذي أجبرهم على الهجرة بحثاً عن لقمة العيش. وفي بلدان غربتهم هم مستعدون لتحمل كلّ شيء، البرد، العتمة الدائمة، السكن في أحياء القصدير وفي الأقبية المظلمة وغرف السطوح الضيقة، العمل في أقسى الظروف والإهانات اليومية، فقط لكي يعودوا إلى بلدانهم في العطل بمثل هذه الحقائب والأكياس البلاستيكية الثقيلة. تلك هي متعتهم الوحيدة في الحياة الدنيا. وبالرغم من أنّ الشرق طردهم شرّ طردة فقط لكي ينعم حكامه بالأمن والطمأنينة والرفاهية، فإنهم يزدادون يوماً بعد آخر انشداداً إليه، وتعلقا به وبتقاليده ونمط حياته البائسة. وفي بلدان غربتهم هو يبذلون كلّ ما في وسعهم لكي يكون حاضراً في حياتهم بألوانه وأزيائه وروائحه ومأكولاته وغباره وكسله وفوضاه ورتابته

ونفاقه وتزمته وشعوذاته وخرافاته وتخلفه. وفي الليالي الشمالية الباردة، ترتفع الأصواتُ حزينةً لتردد أغاني الحنين إلى الوطن البعيد وسط الدموع والآهات. وأنا في مدينة غربتي أتحاشاهم وأتجنب الإقتراب منهم. حميد الذي لا يشبهني ولا يشبههم هو صلة الوصل الوحيدة بيني وبينهم. وفي سهراتنا الطويلة في بار "جوزيفين" أو في "الشاريفاري" روى لي العديد من قصصهم وفواجعهم التي لا تنتهي. وثمة قصة ستظلّ عالقةً في ذهني إلى أمد بعيد، ربما لأنها تجسّد أكثر من غيرها الصورة البشعة لذلك الشرق الأبوي المتزمت الذي هجرته غير آسف منذ سنوات مديدة... كان ذلك العامل الخمسيني المهاجر الذي يعمل في نفس المَطعم الذي يعمل فيه حميد شديدَ القسوة على زوجته وعلى أولاده. وغالباً ما كان يضربهم ضرباً مبرّحاً بحزامه الجلدي الغليظ لأدنى خطأ يرتكبونه. وعندما يبلغ الواحد منهم سن الثامنة، كان يفرض عليه صومَ رمضان، والقيام بفروض الصلاة. وكل صباح كان يحرص على تنبيههم بنبرة حازمة وصارمة أنه يتحتم عليهم عدم الإختلاط بأبناء "الكفار" والتحدث إليهم. وحين بلغت ابنته الكبرى سنّ السادسة عشر، أجبرها على المكوث في البيت، وأبلغها أنه يعتزمُ إعادتها إلى البلاد لتتزوج من ابن عمها الذي لم تره سوى مرة واحدة. وأصيبت الابنة المسكينة بالفزع أمام المصير المظلم الذي ينتظرها، ففرت إلى الشرطة طالبةً حمايَتَها. ولم يتعظ الأبُ بذلك بل ازداد قسوةً على زوجته وعلى أبنائه محوّلاً حياتَهُمْ إلى جحيم لا يُطاق. وعقب مرور عامين على فرار ابنته، اكتشف الأبُ أن ابنه البالغ من العمر سبع عشرة عاماً، بدأ يظهر العصيان، ويخالف الأوامر، بل وأحياناً يتحداهُ ويسهر مع أنداده حتى ساعة متأخرة من الليل. ومرة فاجأه يدخن في المطبخ، فهجم عليه وبحزامه الجلدي الغليظ انهال عليه ضرباً. أظلمت الدنيا في عيني الفتى المراهق، فأخذ سكيناً وغرسهُ في قلب أبيه... وأمام المحكمة قال إنه ليس نادما البتة على ما فعل، وإنه مستعدٌ أن يطعنَ أباهُ ثانيةً لو عاد إلى الحياة من جديد، ذلك أنه لم يكن إنساناً بل وحشاً ضارياً. ولو أُتيحت لي الفرصة، لكنتُ قبّلتُ جبين الفتى المراهق، ذلك أنه زرع في قلبي بصيصَ أمل في أن يظهر في بلاد الشرق المترامي الأطراف فتيانٌ مثله يغرسون خناجر في قلوب أولئك المستبدين الذين يكبلونه بالأغلال والسلاسل منذ عهد إبراهيم. وأنا كنتُ ساذجاً حقاً لما اعتقدتُ في سنوات الطلب في الجامعة، تحت تأثير نادية الجميلة أنّ البروليتاريا الرثّة يمكن

أن تصنع التاريخ! آه... لقد كانت أشدّ جدباً من السنوات التي أفنيتها في تقليب صفحات الكتب الصفراء تلكم السنوات التي توهّمت فيها أن نظرية الصراع الطبقي يمكن أن تغيّر العالَم! والحقيقة أني لما غادرتُ مدينة "قاف" ودخلتُ العاصمة من بابها الجنوبي بدايات خريف ممطر، كانت أحلامي ورغباتي وطموحاتي أخرى. وكنت أريد أن أكون بالخصوص ذلك الكائن اللامبالي بامتياز، المنفرد بنفسه، والذي به تولّهت حال فراغي من قراءة رواية "الغريب." كما أني كنتُ عازماً على قَطْع ما تَبَقّى من الحبال التي كانت تشدّني إلى حياتي القديمة حتى ولو أدّى ذلك إلى نسف جميع الصلات التي تربطني بعائلتي الصغيرة. فلقد اقفر قلبي الآن من العواطف السانجة، ليستقبل عواصف الجموح نحو المطلق. ومنذ البداية أعجبتني الحياة في العاصمة فأقبلتُ عليها بنَهَم عازماً على الإستمتاع بجميع مباهجها وملذاتها. وبنصف المنحة الدراسيةَ التي سلمت لي عقب مرور شهر واحد على التحاقي بالجامعة اشتريتُ الكثير من الكتب التي كنت أرغب في قراءتها. وأسعد أوقاتي كانت تلك أقضيها في القراءة في غرفتي بالحيّ الجامعي. وغالباً ما كنتُ أتماهى مع أبطال الروايات التي أقرأها. فمرةً أنا راستينياك أشْهِرُ الحرب على العاصمة مثلما أشْهَرَها هو على باريس، ومرةً أنا جوزيف ك. التائه في معابر المحاكم بسبب تهمة يجهلها. ومرة أنا جريجور سامسا الذي يستيقظ ليجدَ نفسَهُ وقد تحوّل إلى حشرة مخيفة وبشعة. ومرة أنا زرادشت أُطلُّ على عالَم البشر السخيف من أعالي الجبال..أما أسعد أوقاتي الأخرى فكانت تلك التي أمضيتها مع المكي ومع آخرين في بار "برازيليا" في قلب "باب البحر" النابض بالحركة في الليل كما في النهار. في هذا البار المعتم قليلاً، والذي تزين جدرانه صور لمشاهير الممثلين والممثلات، أجملها صورة لمارلين مونرو مرتديةً فستاناً شفّافاً يكشف عن مفاتنها، يلتقي كتاب وشعراء ورسامون طلائعيون وممثلون وبوهيميون وعاطلون اختياريا عن العمل. عند الساعة السادسة مساء، يصعب العثور على مكان شاغر فيه. وقد أطلقت البيرة لساني، فتحولت إلى متحدث بليغ، وإلى مجادل بارع حتى أن الكثيرين باتوا يهابونني وينصتون إليّ بانتباه وإعجاب خصوصاً عندما يتعلّق الأمرُ بالآداب والفلسفة. وغالباً ما كانت السهراتُ في بار "برازيليا" تمتدّ إلى ساعة متأخرة من الليل أعود بعدها إلى الحيّ الجامعي ثملاً وسعيداً. سعيداً جداً ذلك أن ميلود القديم، ميلود الخجول، الحييّ، المطيع، المؤدب، المتمسك بالعائلة والدين

والوطن، الحريص على القيام بواجباته وفروضه الدراسية على أكمل وأروع صورة، المتزن الكلام، النُّفور من البذاءة في جميع صورها وأشكالها، قد مات، ومكانه ظهر ميلود آخر لا يمتُّ له بأية صلة: شاب في التاسعة عشر من عمره، نحيل، بلحية خفيفة، وَشَعَر طويل، وحذاء عسكري ثقيل، وبنطلون دجينز ناحل اللون، ومعطف أسود يصلُ إلى كاحليه ولا يفارقه حتى في أيام الدفء، يدخّن الـ"جولواز" بِنَهَم، ويعشق البيرة والنبيذ الأحمر، ويقهقه عالياً ضارباً الأرض بقدميه، ويمقتُ الإنصاتَ إلى المحاضرات لأنّ جميع الأساتذة في نظره أغبياء وثرثارون، ويسخر من الطلبة المجدين ناعتاً إياهم بـ"البغال التي تحمل أثقالاً"، ويتقن فنّ المشاغبة والإستفزاز، ويرتاد محلات البغاء حيثُ افتضت بكارتَهُ قحبةٌ مالطية شبقة، ويعاكس الصبايا الإيطاليات واليهوديات في ضاحية "حلق الوادي" أيام الأحد، ويتبل حديثه بأكثر الكلمات بذاءة، ويميلُ إلى الكسل لأنّ الكسل من صفات اللامبالين الكبار، ويردد في مجالسه أن العائلة مصدرُ كلّ الشرور وأن الإنسان لا يكون حرّاً بحقّ إلاّ إذا تخلّص نهائياً من جميع الصلات التي تربطه بالعائلة وبالمؤسسات التي تشبهها. نعم، هكذا أصبحت! ولم يرعبني ذلك ولم يحيّرني. بل أقدر أن أقول إني ألِفْت صورتي الجديدة، وبتّ أعتقد اعتقاداً راسخاً أنها منسجمة تماماً مع إسمي الصغير، الخالي من أيّ مدلول عكس جلّ الأسماء العربية الأخرى التي تحمّل بما لا طاقة لها به. ثم توثقت صلتي بزهرة التي تدرس معي في نفس الفصل حتى بتنا لا نفترق إلاّ نادراً. وزهرة من العاصمة لذا كانت تعرف أشياء كثيرة عن أحيائها، وعن تاريخها، وعن تقاليد أهلها. ولعلّ السبب الأساسي في ارتباطي الوثيق بها هو أنها كانت تعشق نفس الكتب التي أعشقها، وتحبّ المشاغبة وتتقنها. وكانت زهرة فتاةً حلوةً كما يقول أهل العاصمة، بِشَعَر قصير، وعينين عسليتين مفعمتين بالبراءة والطفولة، وأنف صغير، وقامة هيفاء، وَثَمّةَ ما في وجهها ما ذكرني بوجه أختي حليمة أيام كانت تنتظر العريس وراء النوْل. وربما لهذا السبب هي لم تثر فيّ أي رغبة جنسية. ولعلها أدركت مبكراً شعوري ذاك لذا اكتفت بالصداقة. أو لأقل بالأحرى إنها أصبحت تعاملني كما لو أنني أخوها الأقرب إلى قلبها. وأنا أيضاً كنتُ أتعامل معها كما لو أنها أخت جديدةٌ جاءت بها الإنقلاباتُ الهائلة التي أصابت حياتي. وغالبا ما كانت زهرة تصحبني إلى بار "برازيليا." وكان يستهويها أن أصاحبها في جولات طويلة في

المدينة العتيقة التي تعرف أسواقها، وشوارعها الضيقة المتشابكة مثلما تعرف جيبها. وفي أيام الصحو، نركبُ القطار ونتوجه إلى الضواحي الشمالية لنتمشّى على الشاطئ ولا نعود إلى العاصمة إلاّ عند الغروب. ولزهرة صوت دافئٌ وغريب. وخلال جولاتنا تغني لي فيروز وصليحة واسمهان وإديث بياف وجاك بريل ومغنين آخرين لم أكن قد سمعت بهم من قبل أبداً. وقد توثقت علاقاتي بزهرة أكثر من ذي قبل لما اكتشفتُ أنها تكتب الشعر، غير أنها لا ترغب في النشر ولا في أن يعلم الآخرون بذلك. "الشّعْر زهرتي السريّة" قالت لي حين طلبتُ منها تفسيراً لتَكَتُّمِهَا. وثَمّة قصيدة من قصائدها لا زلتُ أحفظ مقطعاً منها حتى هذه الساعة، وفيه تقولُ: "أيّتُها الريح /حدّثيني عن تلك الفجاج العميقة/التي لا أرى /عن ورد حقنت على مناديل النساء /عن غسيل يرتجف /بين البيوت الرمادية الذّاهلةْ /عن عجوز تطارد قطتين /وتلعَنُ الصباح والمساء /أيتها الريح /خلصيني /فإنّ السجن جسدي وهذا الفضاء...."

ولابُدّ أن أعترف الآن، وعقب مرور خمسة وعشرين عاماً على ذلك أن زهرة كانت قد حذرتني منذ البداية من نادية. ولما اكتشفتُ حبي الجنوني لها، صاحت فيّ ووجهها يتماوج غضباً: "ستحرقكَ هذه الفتاةُ... ستحوّلكَ إلى رماد... لذا عليكَ أن تبتعد عنها حيناً !" غير أنني لم أستمع إلى نصيحتها، ولم أُولِ أيّ اعتبار لتحذيرها، ذلك أنّ حبي لنادية كان قد أعماني وأصَمّني، وأفقدني صوابي. أبداً لن أنسى اللحظة التي اندلع فيها في كياني مثل حريق هائل... حدث ذلك أثناء الإنتفاضة الطلابية الكبيرة التي عرفتها الجامعة مطلع السبعينات. أوائل شهر فبراير. النهار مفعم بنور يُوحي بأن الربيع على الأبواب وأن الشتاء لن يلبثَ أن يمضي إلى كهوفه الباردة المعتمة. ساحة كلية الحقوق الواقعة في ضواحي العاصمة الشمالية، المحاطة بروابي بدأت تكتسحها البنايات الحديثة تعجّ بآلاف الطلبة القادمين من مختلف الكليات الآخرى. على الجدران لافتاتٌ بالأحمر والأسود تنتقد سياسة النظام، وتطالب بإطلاق سراح الطلبة الذين تمّ إيقافُهم قبل أسبوع. أخرى تندّد بحرب الفيتنام وبالإمبريالية وتُناصر القضية الفلسطينية. وأنا كنتُ واقفاً أُدخّنُ وأتفرّجُ بمتعة لا حدود لها على ذلك المشهد الذي لم أرَ له مثيلاً من قبل أبداً. أقول كنتُ متفرّجاً إذ أن سبب ما كان يحدث أمامي لم يكن يهمّني ولا يعنيني. ما كان يهمني ويعنيني هو المشهدُ في حدّ ذاته. فقط لا غير. المشهدُ بصخبه وألوانه

وفوضاهُ والحماس الذي يطغى عليه، وروح التمرّد الذي تسكنه. أما الطلبة الذين تمّ إيقافُهُمْ، والحرب الفيتنامية، والقضية الفلسطينية وغيرها من القضايا السياسية، فأمورٌ لم يكن لها تأثيرٌ كبيرٌ على مجرى حياتي في ذلك الحين. طبعاً كنتُ أتابعها لكن بنفس تلك اللامبالاة التي حضر بها مرسول جنازة والدته. إذن كنتُ واقفاً أتفرج على ذلك المشهد الرائع تحت شمس فبراير الدافئة لما برزت هي فوق المنصة التي كان يقف وراءها الطلبة الزعماء بلحيّ جيفارية ووجوه شاحبة ومتعبة من كثرة التدخين والسَّهَر والنقاش.

كانت ترتدي بنطلون دجينيز ناحل اللون مثل بنطلوني وبلوفراً أزرق سماوياً وتلفّ عنقها بكوفية الفدائيين الفلسطينيين المنقطة بالأبيض والأسود. بشرتها الغامقة السمرة تشي بأنها من الجنوب. وهذا ما تأكّد لي بعد حين من خلال لهجتها لما نطقت بالجملة الأولى. في وجهها شيء من ذلك النزق الذي يجعل المرأة أكثر فتنة وإثارةً. أمّا عيناها الواسعتان فكانتا تلمعان بالثورة والتحدّي. ولستُ أدري ما الذي جعلني أتذكّرُ وأنا أتأمّلها تلك القحبة المالطية التي افتضّت بكارتي وأذاقتني أوّل لذة في حياتي...

– "هل تعرفها؟" سألتُ المكي الذي كان واقفاً بالقرب مني.

– "أعرفها" قال.

– "ما اسمها؟"

– نادية... وهي من واحات الجريد... تدرس في قسم الفلسفة.

– "هل تحدثتَ معها؟"

– "مرتين أو ثلاثاً على ما أظنّ... إنها فتاة صعبة ومجنونة."

– "ماذا تعني بذلك؟"

– "أوف... إنها متطرفة أكثر من اللزوم"

– لم أفهم...

– مثلاً هي تتصوّر أنه بإمكاننا أن نغيّر العالَم في ظرف أربع وعشرين ساعة!!

– هذا شي بديعٌ!

نظر إليّ المكّي مندهشاً، ثمّ قال:

– "عجيبٌ أن أسمعكَ تقول مثل هذا الكلام!"

– "وما العجب فيما قلتُ؟"

– أمس، ونحن نستمع إلى ذلك الطالب الماركسي قلتَ لي إنّ تغيير العالَم أمرٌ مستحيلٌ... ما الذي حدث لكَ اليومَ حتى تغيّرَ رأيكَ بمثل هذه السرعة؟!

– "أوه... لست أدري... يبدو لي أن فكرة تغيير العالَم، حتى وإن كانت مستحيلة، فهي جميلة..."

وأعتقد أن المكي قال شيئاً، غير أنني لم ألتقط كلمة واحدة مما قال، ذلك أن اهتمامي انصرف بكليته إلى نادية التي شرعت تخطبُ في جموع الطلبة الغفيرة التي اكتظت بها ساحة كلية الحقوق... بدت رابطة الجأش، واثقة ومعتدة بنفسها، في صوتها نفس البحّة التي في صوت صليحة. على وقع كلماتها كان نهداها يترجرجان. كفلها أيضاً خصوصاً حين يبلغ حماسُها ذورتَهُ. مرات عديدة، قُوطِعَ خطابُها الناري القصير بالتصفيق والهتاف. وأظنّ أنها دعت إلى ضرورة مواصلة الإضراب العام رغم التهديدات التي كان النظام يلوّح بها عبر وسائل الإعلام الرسمية. أقول أظنّ، ذلك أنني لم أهتمّ بمضمون خطابها بل بها، هي كجسد يتموّجُ فوق المنصّة ملتهباً بالحماس والثورة والتحدّي. وأقدر أن أضيف أنّ الشيء الذي أثارني لم تكن الكلمات، بل موسيقى الكلمات التي كانت تتدفق من بين شفتيها المكتنزتين، غاضبةً، عنيفةً. حالَما انتهتْ من خطابِها، ركضتُ باتجاه المنصة عازماً على تهنئتها، بل على تقبيلها إنْ أمكن، غير أن الجموع المتراصة حالت بيني وبينها. وعقب محاولات عديدة قمت بها لاختراق سور الأجساد المنيع، عدتُ أدراجي لأقف في الركن حزيناً، مكسوف البال...

– "هل تأكدتَ الآن مما قلتُ؟ سألني المكي.

– "وماذا قلتَ؟" سألته بدوري متظاهراً بأنني نسيتُ تماماً ما كان قد قاله لي قبل دقائق.

– "قلت إنها متطرفة جداً!

– إنّك تُبالغُ... لقد كانت رائعةً جداً!

– رائعةً جداً؟!

– نعم، رائعة جداً!

– ولكن ما قالته يدل دلالة قاطعة على أنها من أولئك الطلبة المتطرفين الذين يريدون كلّ شيء أو لا شيء... وهذا تطرف خطيرٌ على ما أظنّ" قال المكي ساخطاً..

– ما طالبتْ به معقول "قلتُ بكل برود.

احمرّ وجه المكي غضباً وصاح في:

– معقول؟!

لم أكترث بغضبه، وأجبتُهُ بنفس البرود:

– نعم... معقول!

– يبدو أنك لم تستمع جيداً إلى ما قالتْ" ردّ المكي، ووجهه لا يزال أحمر من فرط الإنفعال.

– لقد استمعتُ إليها من البداية إلى النهاية بانتباه شديد..

– وسمعتَ أيضاً أنها قالت إنه يتعيّن مواصلة الإضراب حتى ولو تطلّبَ الأمرُ سنةً دراسيةً كاملةً؟

– سمعتُ ذلك.

– وهل هذا معقولٌ في نظرك؟

– معقول.

– معقول؟!

– نعم... معقول.

– أنت اليوم شخصٌ آخر غير الذي أعرفُ. قال المكي، ثم ابتعد عنّي مكفهرّ الملامح.

في الخامسة مساءً، وعندما بدأت ساحة كليّة الحقوق تفرغ من حشود الطلبة، ركبت الباص إلى "باب البحر" وبي رغبة في الشراب لا حدود لها. وقتُ على كونتوار بار "برازيليا" ورحتُ أرمي في جوفي الكأس تلو الكأس وصورة نادية وهي تخطبُ مترجرجة النهدين والردفين تملأُ ذاكرتي والفضاء من حولي. بل أقدر أن أقول إنني لم أكنْ أرَى غيرها، ولم أكن أسمع شيئاً آخر غير صوتها هي بتلك البحة المثيرة، المحببة إلى نفسي. بحة صليحة وهي تغني ليالي السّهر والعشق والشراب. ولأنني لم آكلْ طول النهار سوى سندويتشاً خفيفاً في كافيتيريا كلية الحقوق، فإنني تقيّأتُ في النهاية كلّ ما شربت، وعدت إلى الحي الجامعي مضطرب الخطى، ورأسي يدور مثل المروحة، وفي فمي مرارة خيبة عدم تمكني من التحدث إلى نادية.

صباح اليوم التالي، كنتُ من الأوائل الذين وصلوا إلى ساحة كلية الحقوق. من جديد، خطب وهتافات وبيانات تنديد، وأنا أدور كالمجنون هنا وهناك بحثاً عن نادية. لكن لا أثرَ لَهَا. قبل منتصف النهار، حدثت جلبة هائلة، وتماوجت الساحةُ

بحشود الطلبة مثل بحر هائج. ثم ارتفعت صيحات فزع ونداءات تطالبُ بالتزام الحذر والهدوء. نظرتُ فإذا الساحة مطوّقة بقوات الأمن وبمدنيين يهتفون بحياة زعيم البلاد. أصابني الهلع، فركضت أبتغي الفرار بعيداً، غير أني لم ألبث أن وجدتُ نفسي في قلب ذلك البحر المتلاطم عاجزاً عن أن أخطو خطوة إلى الأمام أو إلى الخلف. ثم هزّت الساحة انفجارات متتالية، وغطّى الدخان الدنيا من حولي فلم أعدْ أرى شيئاً. خفّ عنّي ضغط الجموع التي كانت تحاصرني فجريت مصطدماً بالأجساد الفارة في جميع الإتجاهات. وأنا على وشك الإختناق، وعيناي ملتهبتان، وفي صدري شيء كالنار المتأججة. سقطت مرتين غير أنني تمكنتُ من النهوض وواصلتُ الجري في اتجاه غير معلوم، وسط الإنفجارات والدخان وصيحات الفزع والهتافات بحياة زعيم البلاد. وعندما انجلى الدخان تبيّن لي أنني على مشارف حي "الجبل الأحمر" حي الفقراء النازحين من الأرياف، الواقع على مرمى حجر من فندق "هيلتون" الفخم الرابض فوق رابية خضراء يشرف منها على العاصمة بأسرها. ورائي، قدامي، على يميني، على يساري، جموع غفيرة من الطلبة الفارين أمام المدنيين المسلحين بالهراوات وقوات الأمن. وقفت أستردّ أنفاسي ثم واصلتُ الجري بأقصى جهدي. وكنتُ أنزلُ منحدراً لما رأيتُ حقيبة نسائية سوداء ملقاة على الأرض. أخفيتها تحت معطفي الأسود، ثم توغلت في حي "الجبل الأحمر." وكان في نيتي أن أتوجه إلى الحي الجامعي غير أني عدلتُ عن ذلك لما سمعتُ أحد الطلبة يصيح بأعلى صوته بأن قوات الأمن تحاصره هو أيضاً، وأنها تلقي القبض على كل من يقترب منه. عند وصولي إلى حي "العمران" الواقع على أطراف الجزء الشمالي من المدينة العتيقة ارتأيتُ أنّ أسلَمَ حلّ هو التوجه إلى بيت صديقي الرسام نجيب الذي توطدت به علاقتي في بار "برازيليا" عقب فترة قصيرة من مجيئي إلى العاصمة. في حيّ "الحلفاوين." استعدتُ هدوئي وتوازني ورحتُ أمشي على مهل وسط الجموع الغادية والرائحة، وكأن شيئاً لم يكن. اجتزتُ ساحة "باب سويقة" وعند وصولي إلى ضريح "سيدي محرز" عرجت يميناً باتجاه نهج الباشا "حيث يسكن صديقي نجيب. وجدته يشرب قهوته في باحة البيت القديم المتداعي، والذي لا تزال عليه بعض ملامح المجد الذي أفل، مجد العائلة العريقة التي انقرضت ولم يتبقّ منها غير نجيب يرسم وسط الخرائب، ويفرط في الشراب لكي ينسى الماضي الجميل. الماضي الذي عاشه طفلاً مدلّلاً

تحت رعاية أب كان من أشهر المحامين، وأم هولندية فاتنة الجمال تعشق الموسيقى والرسم. تعانقنا بحرارة، وضع أمامي فنجان قهوة. حدثته بالتفصيل عما جرى في كلية الحقوق. استمع إليّ دون أي اهتمام يذكر. ولما انتهيت من سرد وقائع منتصف النهار ذلك، قال لي:

- "اسمع... بإمكانك أن تمكث هنا الوقت الذي تشاءُ... لعلّ ذلك يحررك من حياة الطلبة التافهة..."

بعدها قادني إلى غرفة صغيرة معتمة قليلاً فيها سرير حديدي وطاولة خشبية وكرسي واضاف قائلاً:

- "هذه غرفتُكَ..إنها رطبة مثل كل الغرف الأخرى، غير أنّك لستَ شيخاً عجوزاً حتى تخشى الرطوبة... في المطبخ هناك بقايا اكل وزجاجتا نبيذ أحمر... هما لكَ وحدكَ..أما أنا فمدعو هذه الليلة إلى عشاء، ولن أعود إلاّ غداً ظهراً... خذْ ها هو المفتاح..."

بعد انصراف نجيب، جلستُ في الباحة تحت الشمس الدافئة. بتأنّ شديد فتحت الحقيبة، وقلبي يدقّ دقات قويّة متسارعة. وكان أول شيء يطالعني بطاقة هويّة طلابية عليها صورة فتاة سمراء جميلة سرعان ما تبيّن لي أنها نادية. يا إلهي! لو عثر بدويّ تائه على عين ماء في قلب الصحراء في اللحظة التي يبيت فيها متيقناً أنه سيهلكُ عطشاً بعد حين لما شَعَرَ بتلك السعادة التي اكتسحت كياني...

- الإسم: نادية رضوان
- تاريخ الولادة: ١٩٥٢/٤/٢٠
- الصفة: طالبة - كلية الآداب. قسم الفلسفة
- العنوان: الحي الجامعي - باردو-

أعدتُ قراءة بطاقة الهويّة عشرات المرّات، مثبتاً عينيّ على الصورة كما لو أنّني اخشى أن أكتشف خطأ يقوّضُ تلك السعادة التي ولّدتْ في نفسي الرغبة في أن أخرج إلى الشارع وأصيح عالياً في الناس: أنا أسعد مخلوق في الكون! ولم أشرعْ في استكشاف بقية محتويات الحقيبة إلاّ عقب مرور أزيد من ساعة على فتحها. عثرت على أدوات نسائية بسيطة للزينة وعلى دفتر عناوين وعلى قلمين جافين وعلى "البيان الشيوعي" وعلى بعض المناشير التي وزّعت خلال الإنتفاضة. عند هبوط الليل، سخنت المعكرونة التي تركها لي نجيب. تعشيتُ. شربتُ زجاجة نبيذ ثم

استلقيتُ على الفراش، ومن جديد رحتُ أتأمل الصورة، وشيئاً فشيئا بدا لي أن نادية مُمَدَّدَةً عارية بجانبي، تقبلني، وتهمس لي بكلمات الحبّ، وبيدها الناعمتين تداعبُ كل جزء من جسدي. وقبل أن أستسلم لنوم هادئ وطويل، كنتُ على يقين بأنني على أبواب قصة حب عجيبة شبيهة بقصص الحبّ في "الف ليلة وليلة" التي تصنعها المفاجآت السعيدة...

صبيحة اليوم التالي، علمتُ من خلال الراديو أنّ وزارة التعليم أصدرت قراراً بغلق الجامعة بجميع فروعها لمدة أربعة أسابيع وهدّدت الطلبة بحرمانهم من السنة الدراسية كلّها، إنْ هُمْ واصلوا أعمال الشغب. أحزنني الخبرُ كثيراً، ليس بسبب غلق الجامعة، وإنما لأنني لن أتمكن خلال الأربعة أسابيع القادمة من رؤية نادية. عند الظهيرة ذهبتُ إلى بار "برازيليا." وجدتُ المكّي هناك...

– "أنا عائد إلى مدينة "قاف" غدا" قال .

– "أما أنا فسأبقى هنا" قلتُ.

– الأفضل أن تعود، إذ لابُدّ أن تكون عائلتُكَ جدّ قلقة عليكَ.

– لا أريد أن أرى تلك المدينة ولا أهلَها ولا مقابرَهَا. أما بالنسبة لعائلتي فسأكتب لها رسالةً لأُطَمْئِنَهَا عن أحوالي... سأقول لها إنني جدّ مشغول بالدروس...

– "افعل ما تشاء" قال المكّي، ثم انشغل بالحديث مع آخرين. وقبل أن ينصرف، وكان ذلك قبل العاشرة ليلاً، شدّ على يدي مودّعاً، ثم قال:

– سأزورُ أمّكَ... سأُؤَكّدُ لها أنّك بالفعل مشغولٌ بالدروس وأنّك تسلم كثيراً على الجميع...

– "شكراً جزيلاً مسبقاً..."

تركتُ البار بعد منتصف الليل بقليل. "باب البحر" مقفر إلاّ من سيارات الشرطة وبعض المتسكعين. السماء صافية تماماً. والنجوم تتلامع في السماء. والهواء باردٌ قليلاً ومشبعٌ برائحة البحر. مشيتُ بتؤدة باتجاه "نهج الباشا" والأسئلة التي ولّدَها القرار بعدم العودة إلى مدينة "قاف" تنهشني نهشاً..هل أنتَ على صواب حقا؟ وأمّك المسكينة الضعيفة القلب، الواهنة الجسد والتي لا بدّ أنها تبكي في الليل وفي النهار خشية أن يمسكَ سوء خصوصاً وأن الإنتفاضة الطلابيّة أمست حديث الناس في جميع أنحاء البلاد من أقصاها إلى أدناها؟ وأختك التي

باعتْ مهرها من أجلك؟ وأبوك الذي أفنى عمره في فرن "سيدي بوفندار" وأحرق رئتيه لكي يوفّر لكَ اللوازم الدراسية؟... جميعهم الآن في انتظارك. هم يحنّون إلى رؤيتك والجلوس إليك، والإستماع إلى آرائك حول الجامعة وحول الإنتفاضة، وحول العاصمة وأهلها. بل إنّ مجرد رؤيتك حتى ولو لساعة واحدة فقط كاف لإشاعة السعادة في قلوبهم التي أضعفها اليأس والإنتظار. ومنذ أن التحقتَ بالجامعة، وكان ذلك قبل عامين، أنت لم تزرهم غير زيارات نادرة ومتباعدة وقصيرة للغاية، تعود على إثرها إلى العاصمة متعلّلاً بكثرة المشاغل والدروس. وهم يصدقونكَ دائماً لأنكَ ما زلت في أذهانهم ذلك الطفل البريء الذي لا يكتم عنهم شيئاً، ويسعى طول الوقت لإسعادهم وإثبات أنه أملهم الوحيد في الحياة. يا لشقائهم! يا لحظهم العاثر! هم لا يدرون أن ميلود القديم أضحى شيئاً من الماضي، بل لكأنه لم يوجد أبداً، وأن ميلود الجديد أصبح يقضي جلّ أوقاته في بار "برازيليا" مع فنانين فاشلين، أو في قراءة كتب خارج البرنامج، أو في معاكسة اليهوديات والإيطاليات في "حلق الوادي." وإذا ما حضر المحاضرات فلكي يشاغب الأساتذة، ويسخر من الطلبة المجدين... لكن مهلاً...! ما هذه الأسئلة المسمومة التي إن ظللت تطرحها على نفسك، فإنها سوف تقوّضُ حياتَكَ الجديدة من الأساس، وتعيدكَ إلى الأقفاص الحديدية التي ظللتَ محبوساً داخلها زمناً طويلاً، وإلى تلك الكتب الصفراء الكئيبة التي كانت تجعلكَ قريباً من عالَم الأموات، بعيداً عن عالَم الأحياء... حذار! فأنتَ الآن تتدحرج سريعاً نحو تلك الهاوية المعتمة التي لم تخرج منها إلاّ بعد عناء شديد، والتي عاهدتَ نفسكَ ألاّ تعود إليها أبداً. مهما كان الثمن. مهما كانت التضحيات. مهما كانت الصعوبات. حافظ على عهدكَ إذن ولا تخنْهُ أبداً، وإلاّ فإنّ العاقبة ستكون وخيمة والعقاب قاتلاً...

كان نجيب في انتظاري وأمامه زجاجة نبيذ أحمر:

– "لقد تأخرتَ كثيراً حتى أنني خفتُ عليكَ" قال.

– كنتُ في بار "برازيليا..."

– هل ثمة جديدٌ؟

– لقد اغلقوا الجامعة لمدة أربعة أسابيع...

– سمعت بذلك... وماذا تنوي أن تفعل؟

– أوف... لا شيء...

– بإمكانك أن تمكث هنا إن أردتَ...

– ألا يزعجكَ ذلك؟

– ولماذا يزعجني؟ أنتَ تعلم جيداً أنّكَ اصبحتَ من اقرب الأصدقاء إلى قلبي...

أسعدني كثيراً أن أسمع نجيب يقول مثل هذا الكلام ذلك أنه رجل صعب المراس، لا يحب الناس بسهولة، لذا فإن أصدقاءه يعدون على أصابع اليد الواحدة. إنه رجل متوحد بذاته. "ذئب المدينة العتيقة" كما تسميه زهرة التي كانت أول من قدمني له في بار "برازيليا" قائلة: "أعتقد أنكما ستكونان صديقين حميمين. "وكان الأمر كذلك منذ اليوم الذي فيه تعَارَفْنَا. ويحب نجيب أن يعمل في صمت تامّ بعيدا عن الأضواء وعن مجالس المثقفين الذين لا همّ لهم غير اغتياب الغائبين، و"التقطيع والترييش" كما يقول هو. وعكس جلّ الفنانين الآخرين الذين يبيعون أنفسهم إلى المؤسسات الرسمية بأبخس الأثمان، ويتهافتون على المآدب والحفلات التي تقيمها تهافتَ الذباب على التّمر المتعفن، يحرص نجيب أن يظل متوارياً عن الأنظار في بيته المتداعي، وأن يعيش بين لوحاته وألوانه، مفضلاً شظف العيش على "الدعارة الفنية" (تعبير آخر من تعابيره.)

ولنجيب وسامة أتاحت له أن يعيش العديد من قصص الغرام مع نساء من مختلف الطبقات العليا كما الدنيا. مرة وجدته يضاجع قارئة كفّ شابّة ترتدي ثياباً رثّة. ولما استغربتُ ذلك، قال لي باسماً: "النساء مثل ثمار الأرض..لابدّ أن تتذوّق من كل واحدة منها حتى تدركَ سرّ الكون!" وقد ورث نجيب عن أمه الهولندية الفائقة الجمال (اعتمادا على الصورة المعلّقة في غرفة نومه) شَعَراً أصهب غزيراً، وبشرة ناعمة، وأنفاً دقيقاً، وعينين رماديتين تشعان بألق أخّاذ، ووجهاً لا تفارقه الطفولة أبداً، وهو دائماً أنيق في لباسه وفي حركاته وفي مشيته. متوسط القامة. متناسق الأعضاء. يتكلم دائماً بصوت خافت، ولا يضحكُ عالياً أبداً. ويحلو له أن يخلط حديثه بكلمات فرنسية. وفي مكتبته الصغيرة عدد قليل من الكتب الأدبية، أغلبها دواوين لشعراء فرنسيين. بودلير شاعره المفضّل. وقد ذكر لي ذات مرة بأنه يقاوم النضوب الفنّي والملل بقراءة "أزهار الشرّ". "أقرأ هذا الديوان فتخضرّ روحي من جديد!" قال. ومنذ بداية علاقتي به أدركتُ أنه لا يرغب البتة في الخوض في حياته الشخصية، في الماضي أم في الحاضر. لذا أنا أتحاشى دائما أن أظهر أمامه أيّ فضول يتعلّق بذلك. وخلال سهرة حميمة في البيت، أمام

زجاجة نبيذ أحمر، روى لي على أنغام المطر الخريفي الدافئ نتفاً من ماضيه. وهكذا عرفت أنه ينتمي إلى واحدة من أكثر العائلات عراقةً في العاصمة، وأن جده الأول كان قاضياً في غرناطة قبل سقوطها. وأن والده كان محامياً مشهوراً تعرّف على امه في باريس أيام كان يدرس الحقوق هناك. وذات صباح صيفي خانق الحرارة، توفي أمام مكتبه بالسكتة القلبية. ولأنه كان محباً للحياة، مغامراً وسكيراً فإنه لم يترك لعائلته المتركبة من زوجته وأطفاله الأربعة ما يكفي لضمان حياتهم. وقتها كان نجيب في السابعة عشر من عمره. وكان أكبر إخوانه. وكانت أمه لا تزال جميلة فراح الرجالُ يحومون حولها غير أنها رفضتهم جميعاً واختارت العودة إلى بلادها بصحبة أطفالها. وحده نجيب رفض ذلك رفضاً قاطعاً غير عابئ بدموع امه قائلاً: "الموت أفضلُ لي من مغادرة المدينة العتيقة!" وفي النهاية اضطرت الأمّ للإذعان وسافرت مع أبنائها الآخرين إلى أمستردام. أما هو فمكث وحيداً في البيت الذي راح حاله يسوء يوماً بعد يوم إلى أن أضحى شبيهاً بخربة مُهْمَلَة. وليلَتَها قلتُ له: "ألَمْ يكن من الأفضل أن تغادر مع أمك؟" اختلجت شفتاهُ قليلاً وبدا لي أن السؤال أوجعهُ، ثم قال: "ولماذا تريدُ أن أُغادرَ؟! لقد أحسستُ أن روحي كفنان مرتبطة بهذه المدينة العتيقة بخرائبها وحيطانها المشققة وأبوابها الباهتة الألوان وأطفالها المتّسخي الوجوه بالمخاط وبأسواقها وأضرحتها ومقاهيها القذرة وأزقتها الضيقة ومحلاّت بغائها السريّة ونسائها المحجبات ومتاهاتها المغبرة ومساجدها القديمة ومشعوذيها ونشاليها وشحاذيها هي عالَمي. وتركها يعني نهايتي. ثم ماذا تريدني أن افعل في أمستردام؟! أتفرّج على القحاب في الأقفاص البلورية؟!" وعندما زرتُ أمستردام في سنوات تيهي في القارة العجوز، أرسلت له بطاقة بريدية كتبتُ على ظهرها: "أنتَ على حقّ... لو كنتَ هنا لما فعلتَ شيئاً غير التفرّج على القحاب في الأقفاص البلورية..."

أمضيت الأسابيع الأربعة بين بار "برازيليا" و"نهج الباشا" وجولات طويلة على شواطئ الضواحي الشمالية بصحبة زهرة. أخفيتُ قصة حبي لنادية عنها وعن نجيب خشية أن أسمع تلك الجملة التي يرددها دائما: "المرأة في الفراش شيء جميلٌ... بل أجمل شيء في الكون. أما أن نتولّه بها ونعشقها ونركض وراءها مثلما فعل المجنون مع ليلاه، فأنتَ لا تفعل شيئاً آخر غير أن تقدم الدليل القاطع على أنّك غبيّ وسخيف!"

يوم فتح الجامعة كنتُ في الكافيتيريا قبل الثامنة. وكان المكي قد وصل قبلي إلى هناك. تعانقنا طويلاً وبحرارة. قال لي:

– أمك تسلم عليك كثيراً..وكذلك أختك وأبوك..لقد كانوا سعداء جدا عندما أكدت لهم أنك بخير وأن الإستعداد للإمتحانات هو الذي أعاقكَ عن زيارتهم...

– ألمْ تصلهم رسالتي؟

– بلى.. ولكن يبدو أنهم كانوا بحاجة إلى دليل أقوى من الرسالة..

– وماذا فعلت هناك؟

– أوف.. لقد قرأت كثيراً.. ومع أختي سعاد ذهبت إلى الريف حيث أمضينا يوماً كاملاً في ضيعة عمّي.. كان يوماً رائعاً حقّاً... وأنتَ ماذا فعلتَ؟

– لا شيء... في النهار في بار "برازيليا" وفي الليل عند نجيب..

ملأت وجهه ابتسامة ساخرةٌ:

– "يعني أنك لم تكن مشغولاً بامتحانات آخر السنة؟" قال.

– امتحانات آخر السنة؟! إنها آخر شيء أفكر فيه"... قلت.

– فيمَ كنتَ تفكّر إذن؟

– في اللاشيء...

– ليس صحيحاً... في ملامحك ثمة ما يدلّ على أنّ شيئاً خطيراً يشغل بالك...

– لا يشغل بالي غير اللاشيء...

– لا تتفلسف... وهات الحقيقة فوراً فأنا على أحرّ من الجمر لسَمَاعها...

– الحقيقة أنّ اللاشيء هو جوهر الوجود.

– هراء... دعني أقل لكَ أنا الحقيقة...

– هاتها.

– أنتَ عاشق متيّم.

– عاشق متيّم؟!

– نعم... عاشق متيّم... وفي وجهك ذبول وفي عينيك حزن العاشقين الذين لم يصلوا إلى مبتغاهم بعد... من هي.. قُلْ من هي التي أحرَقَتْ قلبَكَ وجعلَتْكَ على هذه الصورة؟

– أنتَ تهذي...

– انحنى عليّ وهمس غامزاً بعينيه:

– يبدو أني أعرفها..

– طيب... قل من هي ما دُمْتَ قد أصبحتَ عالماً بالغيب مثل الله.

– نادية.

انتفضت مذعوراً، ولا بدّ أن وجهي ازداد شحوباً:

– نادية؟! أي نادية؟!

تراجَعَ المكي بجذعه إلى الوراء قليلاً. حرّكَ سبابته محذّراً. ثم من جديد انحنى عليّ وهمس:

– اسمع يا عزيزي ميلود... أنا أعرفك جيداً على ما أظنّ.. لذا من الأفضل ألاّ تحاول أن تلعبَ معي لعبة القطّ والفأر.

ودون أن ينتظر تعليقاً منّي على ما قال، جرى نحو قاعة المحاضرات. تبعته متثاقلَ الخطى، وفي رأسي دوار.

تتابعت الأيام رتيبة ثقيلة. ودائما لا أثر لنادية. لا في الكافيتيريا، ولا في قسم الفلسفة. ولا في المطعم الجامعي. انتابتني شكوك في أن تكون من ضمن الطلبة الذين تمّ اعتقالُهُمْ في اليوم الأخير من الإنتفاضة لمّا داهَمَ المدنيّون بالهراوات وقُوّات الأمن، ساحة كلية الحقوق. ذات صباح، كنتُ أحتسي قهوتي في الكافيتيريا مشغول الذهن بذلك لما اقترب مني المكّي ليقول لي وعلى وجهه تلك الابتسامة الساخرة التي أصبح يواجهني بها منذ أن اكتشف حبّي السرّي لنادية.

– لا تخشَ شيئاً... إنها هناك!

انتفضت كما لو أنّ كهرباء مسّتني. وعاجزاً عن السيطرة على مشاعري، صحتُ فيه:

– أين؟!

– "هناك!" قال هو بهدوء، وسبّابته مصوّبة نحو طاولة في أقصى الكافيتيريا. كانت هناك بالفعل بنفس الجينيز الناحل اللون، وبيلوفر أخضر داكن وبالكوفية الفلسطينية حول رقبتها. في نفس الطاولة، أربعة طلبة، كان واضحاً من عيونهم المثبتة عليها أنهم ينصتون إليها بانتباه شديد بينما كانت هي تتحدث محركةً يديها بشيء من الإنفعال بين وقت وآخر.

– "أنا سعيد أنّكَ عثرتَ عليها أخيراً!" قال المكّي.

ظللت صامتاً. فالآن لم يعد يوجد من حولي كائن آخر عليها هي. وربما أدركَ

المكي ذلك، إذ أنه عجّلَ بالإبتعاد عنّي دون أن ينطق بكلمة أخرى.

أكملتُ قهوتي وظللتُ أنتظرها. بعد حوالي ساعة، نهضت. لوّحت بيدها محيّية الطلبة الأربعة، ثمّ اتجّهت نحو باب الخروج بخطى سريعة. ركضت وراءها. في ساحة الكلية، ولما لم تعد تفصلني عنها غير بضع خطوات، خرج الصوت منّي خافتاً مرتجفاً:

– مادموازيل نادية!

استدارتْ. نظرت إليّ بكثير من الريبة والحذر:

– "هل أنتِ مادموازيل نادية رضوان؟" قلتُ ناشف الريق وقلبي يضرب بشدّة...

– ماذا تريد؟! قالت بحدّة.

– أريدُ أن أتحدّث إليكِ

– بشأن ماذا؟!

– بشأن... بشأن.. بشأن حقيبتك!

– حقيبتي؟!

– نعم حقيبتك السوداء التي أضعتها يوم داهمت قوات الأمن ساحة كليّة الحقوق..

ظلّت تنظرُ إليّ بنفس الارتياب والحذر.

– "لقد وجدتها في منحدر قرب حيّ "الجبل الأحمر" أثناء الهروب. ومن خلال الصورة التي على بطاقة الهويّة تبيّن لي أنّها لك..." قلت.

– "ومنْ أنتَ؟" قالت بنبرة أقلّ حدّةً من ذيِ قبل.

– أنا طالب... هنا في الكلية... قسم الآداب الفرنسية.

اقتربت مني. تمعنت فيّ طويلاً. ثم فجأة انجلى الارتياب والحذَر من ملامحها، وقالت وطيف ابتسامة عذبة على شفتيها:

– أعتقد أنني رأيتُكَ أكثر من مرة... لكن ثمة شيء تغيّر فيك.

عادت تتفحّصني ثم صاحت وقد ازدادت ابتسامتها العذبة اتساعاً:

– آه... الآن تذكرتُ... الستَ صاحب المعطف الطويل؟

– أنا هو!

– وأين معطفك؟

– في محلّ التنظيف.

نظرت إلى ساعتها ثم قالت:

– أوه... عليّ أن أذهب إلى قاعة المحاضرات..متى نلتقي؟

– متى تشائين...

– اليومَ.. عند منتصف النهار..أمام باب الكلية.

قالت ذلك ثمّ جرت نحو قاعة المحاضرات. أما أنا فلم تكن لي أيّة رغبة في الإستماع إلى محاضرة ذلك اليوم. وأظنها عن "بوفار وبيكوشيه" لفلوبير. عدتُ إل الكافيتيريا. رحت أدخن وأشرب القهوة السوداء المرّة إلى أن رنّ جرس منتصف النهار. واجفَ القلب، تركت الكافيتيريا ووقفتُ أمام باب الكلية أنتظرها.

جاءت متهللة الوجه.

– إلى أين تريد أن نذهب؟ قالت.

– أعرف مطعماً صغيراً ورخيصاً في المدينة العتيقة... ما رأيك؟

– فكرة جيدة!

في طريقنا إلى المدينة العتيقة، طلبت مني أن أروي لها بالتفصيل كيف عثرت على حقيبتها. ولما انتهيت من ذلك، سألتني:

– وأينها؟

– في بيت صديق رسام يسكن في "نهج الباشا."

– "شكراً جزيلاً"! قالت، ثم أردفت:

– أنتَ لا تدري كم أنا سعيدةٌ جداً، لأنكَ أنقذتني من حالة القلق والخوف التي عشتها على مدى الخمسة الأسابيع الماضية، ذلك أنني كنتُ أخشى أن تكون حقيبتي قد وقعت في يد الشرطة... والخطأ الفادح الذي ارتكبته هو أنني وضعت فيها مناشير و"البيان الشيوعي..." وهي أشياء كافية كحجة لإيقافي وربما لمحاكمتي أيضاً، خصوصاً في أوقات عسيرة كهذه، أصبح فيها الإنسان في بلادنا يحاكَمُ من أجل كلمة واحدة يتفوه بها ...

– "هذا صحيح"... قلتُ.

– من الآن فصاعدا لن أحمل في حقيبتي أيّ شيء من هذا القبيل!

– "هذا قرار حكيم"... قلت.

في المطعم، وبعد أن طلب كل واحد منا صحن سمك مقلي وكوكا كولا، سألتُها:

– ولكن كيف لم تنتبهي إلى ضياع حقيبتك؟

– "وكيف تريدني أن أنتبه وسط الفوضى ودخان القنابل المسيلة للدموع وضيحات الفزع. ثم إنني تلقيتُ ضربة هراوة على الظهر كادت تفقدني توازني وجعلتني أركض كالمجنونة لا ألوي على شيء.. وقد سقطت مرتين... وداستني الأقدام الفارّة في جميع الإتجاهات... ولم أنتبه إلى ضياع حقيبتي إلا عندما وصلتُ إلى "الجبل الأحمر.." وكنتُ شبه متيقنة أنها سقطت مني في ساحة كلية الحقوق، لما داهمتنا قوات الأمن... وخلال الأربعة أسابيع التي أمضيتها في الجريد عند أهلي، كنتُ كلما سمعت طرقاً على الباب إلاّ وظننتُ أن الشرطة جاءت لتأخذني. وعند عودتي إلى هنا، حرصت أن أذهب إلى الكلية متخفّية، متجنبةً "باب البحر" وجميع الشوارع التي يتمّ فيها عادةً التثبت في الهويات..أوف..لقد عشتُ حالة رعب حقيقية. وها أنت تنقذني منها... فشكراً جزيلاً لكَ مرّة أخرى..وكن على يقين أنني لن أنسى أبداً ما فَعَلْتَهُ معي!"

بعد الغذاء، توجهنا إلى "نهج الباشا" أتيتُ لها بالحقيبة، لكن بدون المناشير و"البيان الشيوعي" كما هي أوصت بذلك، فازداد وجهُها تألقاً وصاحت:

– أنا الآن حرّة..وبإمكاني أن أذهبَ مُطمْأنَة البال إلى أي مكان أريد... ما رأيكَ في جولة في "باب البحر؟"

– "فكرة جيدة!" قلتُ.

منذ تلك اللحظة سوف أطيعها طاعة عمياء!

ومن دون أن أظهر أي تردد أو تذمّر، سوف أنفّذ جميع أوامرها من الألف إلى الياء، رغم أنني لم أكن مقتنعاً بها أحيانا!

وبطلب منها سوف أقرأ كتباً ثورية مثل "البيان الشيوعي" و"الكراسات الفلسفية" لماوتسي تونغ و"الأم" لجوركي، ويوميات تشي غيفارا في بوليفيا، ونصّ محاكمة ديميتروف وخطب هوشي منه، وأشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل.. سوف أقرأ البعض منها غصبا عنّي وبنفس التقزز الذي يأكل به المرءُ طعاماً لا يستسيغه البتّة! وحين تستفسرني عن رأيي في تلك الكتب، أُجيبها: "إنها رائعة! رائعة جداً!"

ستقول لي إن الشيوعية هي أمل الإنسانية الوحيد!

ستقول لي إن العمال والفلاحين هم القوة الأساسية لتغيير العالَم!

ستقول لي إنّ العنف هو الوسيلة الأمثل والأفضل والأجدى لتقويض العالَم القديم!

وكالببغاء، وبحماس مصطنع، سأردد أنا مثل هذه الأقوال أمامها، وأمام رفاقها ذوي اللحية الجيفارية، والوجوه الشاحبة، والسحنات الصارمة.

وحين تستشعر أن الملل قد بدأ يتسرب إلى نفسي، وأنني قد أكون على أهبة الفرار منها، والتخلّص من سيطرتها، تهبني جسدها، وتقول لي: "هو لكَ..افعل به ما تشاء وما تريد!" وآخُذُها إلى بيت نجيب. وليومين أو أكثر نظل في الفراش لانغادره إلاّ إلى التواليت أو لجلب السجائر أو شيء من الأكل. وفي الفراش هي تصبح أخرى، مختلفة اختلافاً كلياً عن تلك الفتاة الدوغمائية، المتعصبة، الجافة العبارة، التي تكون أثناء المناقشات الثورية. فهي تَرِقّ وتلينُ، ويتحول جسدها العسلي إلى نهر من اللذة، لا أتعب من السباحة فيه أبداً. وعندما نغادر بيت نجيب، أمشي إلى جانبها داخناً، فاقد الوعي باتجاه ذلك العالَم الرمادي الكئيب الذي اختارت العيش فيه.

حتى بار "برازيليا" لم أعد أذهب إليه إلاّ نادراً وفي غفلة منها، ذلك أنها صاحت فيّ ذات يوم محذرة: "اسمع..لابدّ أن تكفّ عن الذهاب إلى ذاك البار الحقير لأنه يعجّ بالمخبرين وبقوادي الشرطة!"

وزهرة تبكي، متوسلة إليّ أن أبتعد عنها، وأقطع علاقتي بها نهائيا، وإلاّ فإني سأسقط في هاوية لا قرار لها. وأنا أصمّ أنني عما تقول متّهماً إياها بالقسوة، وبعدم الموضوعية. وحين يشتدّ ضغطها عليّ، أقول لها: "أنا متيقّنٌ من أنكِ ستصبحين صديقة حميمة لها لو تحدثتِ معها ربع ساعة فقط!" وتردّ هي ساخطةً: "يمكنُ أن أصبح صديقة لأفعى مسمومة بسبعة رؤوس. أمّا لها هي فمستحيل! مستحيل!" ويسحبني المكّي إلى ركن من أركان ساحة الكلية، أو هو يُفاجئني في غرفتي في الحيّ الجامعي، ويصيح فيّ غاضباً: "اسمع... أنتَ تسيرُ في طريق محفوفة بالمخاطر، ويوماً ما ستنكسرُ رقبتُكَ وتروح في داهية..لذا عليك أن تنتبه قبل الأوان!" وأنا سادر في حبي الجنوني لنادية. والعالَم من حولي كان يبدو لي بلا أيّ معنى بدونها. ثم لعلها تبيّنتْ أن المناقشات وقراءة الكتب الثورية لم تعد كافية بالنسبة لي، لذا اقتربت منّي ذات مساء بعد انتهاء المحاضرات لتقترح عليّ مرافقتها إلى حيّ فقير من أحياء العاصمة الجنوبية، أغلب سكانه من العمال

والنازحين.

– "ولماذا؟" سألتها.

– "تعالَ وستَعْرِفُ السبب!" قالت.

ركبنا الباص رقم ٥١. طول الطريق ظلت صامتة، مضطربة الحركات، وفي وجهها ما ينمّ على أنها قلقة، ومشغولة الذهن بمسألة خطيرة. عند نزولنا كان الليل قد هبط. سرنا في شارع معتّم، مليء بالحفر، تكدّسَت الأوساخ على جانبيه.

– "هناك رفاق يرغبون في التعرف عليك" همست لي.

– ومنْ همْ؟

– رفاق. قلتُ لك!

– طلبة؟

– نعم، طلبة!

– ولماذا يريدون أن يتعرفوا عليّ هنا؟! ألَمْ يكن من الأفضل أن يحصل ذلك في الكليّة أو في الحي الجامعي؟!

– ستعرف ذلك بعد قليل.

استبدّ بيَ الخوف، تسارعتْ ضربات قلبي وبدا لي أن الهاوية التي طالَما حذرتني منها زهرة قد انفتحت أمامي، وأنني على وشك السقوط فيها.

واصلنا السير إلى نهاية الشارع حيث تنتصبُ عمارة قبيحة بأربعة طوابق. صعدنا طابقين ثم وقفنا أمام باب متّسخ انفتح بعد أن طرقته نادية ثلاث مرات وأطلّ منه شابّ بلحية جيفارية، تبيّن لي أنه واحد من أولئك الطلبة الزعماء الذين قادوا الانتفاضة. صدمتنا روائح عطنة، مختلطة بدخان السجائر الذي كان يثقل الهواء. على طول الممر، أكوام من الصحف والمجلات تكدّس عليها الغبار. في نهاية الممر، مقابل باب الخروج، في غرفة واسعة على جدرانها صور ضخمة لماركس وإنجلس ولينين، عشرة شبان بلحي جيفارية، حتى أن كل واحد منهم بدا وكأنه نسخة مطابقة للأصل من الآخر، متحلقون حول طاولة كبيرة عليها أقلام وأوراق ومنافض مملوءة حدّ الفيض بالأعقاب وفناجين قهوة. وكانت النوافذ الأربع مغلقة. لكأنهم يخططون لجريمة في الخفاء. سلمت نادية عليهم بحرارة، ثم أشارت إليّ وقالت:

– هذا هو ميلود الذي حدثتكم عنه!

– "أهلا وسهلاً بالرفيق الجديد!" قالوا بصوت واحد .

صافحتُهُم واحداً واحداً وإنا في حالة من الارتباك الشديد. ولما انتهيت من تلك العملية العسيرة التي بسببها راح جسدي ينزفُ عرقاً ساخناً كأنه عرق الحمى، أشارت عليّ نادية بالجلوس فجلست بينما كانت العيون تتفحصني بانتباه شديد.

– ماذا تريد أن تشرب؟ سألني الشاب الذي فتَح لنا الباب.

– "قهوة سوداء!" قلت.

جاءني بقهوة سوداء مرة. أشعلت سيجارة ورحت أدخن بنهم محاولاً إخفاء التوتر الي ازداد استفحالاً حتى أني صرت أرجف من الرأس حتى الساقين كما لو أني أقف عارياً في البرد. ظلوا يتفحّصونني صامتين، ثم ابتسم من بدا لي أكبرهم سناً، وكان ضخم الجثة، مربوع القامة، بأسنان مصفرة من كثرة التدخين، وبأنف ضخم، وعينين محمرتين وسترة عسكرية قذرة، وقال:

– نادية أبْلَغَتْنا أنك تكتب الشّعْر... أليس كذلك؟

– "هذا صحيح..." قلت.

– "إنه أمر جميل مفرح.." قال ثم التفت إلى رفاقه الآخرين، وقال بنبرة جادة:

– "بإمكاننا أن نواصل مناقشة الموضوع الذي بدأنا فيه..."

ولم يمض غير وقت قصير حتى أدركتُ أنني في حضرة خليّة ماركسية ثورية، تنشط في السرّ، وتوزع في الأحياء العمالية والشعبية والجامعية مناشير تندد بسياسة النظام، وتدعو فيها للثورة عليه. كما أدركتُ أن نادية تحظى بتقدير كبير داخل الخلية، وأنّ جميع آرائها تؤخذُ بعين الإعتبار دائماً وأبداً.

ومنذ تلك الليلة، وبالرغم من أنني كنتُ على يقين بأن العقوبات سوف تكون وخيمةً، سأواظبُ على حضور اجتماعات الخلية مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع الواحد. بل سوف أشارك في تحرير العديد من المناشير التي تقوم بتوزيعها. فإذا ما ترددتُ أو أبديتُ تقاعُساً عن القيام بشيء ما، اختلت بي نادية لتقول لي: "اسمع... أنا لم أرتبط بك لمتعة الفراش... وإنما لأنني لمستُ فيكَ نبل المثقف الإنساني المستعدّ لأن يهبَ حياتَهُ من أجل الآخرين... فلا تخيّب ظنّي فيكَ!" ولم تكن على حقّ، ذلك أنني لم أكن مستعدّاً أن أهب ولو ذرة واحدة من حياتي لأي أحد كان، إلا لها هي وحدها، ومع ذلك فإن كلماتها كانت تجعلني أتبعها صاغراً، مسلوب الإرادة والرأي. حتّى كانت تلك الليلة التي اتفقنا فيها على تحرير منشور

يوزع عشية الاحتفالات الضخمة التي ستقام بمناسبة مرور ٧٥ عاما على ميلاد الديكتاتور. في المطعم الجامعي، همست لي نادية: "الليلة عليكَ أن تذهبَ وحدكَ إلى هناك... أما أنا فسألتحق بكَ بعد ساعة أو ساعتين على أقصى تقدير لأن لي موعداً هاماً!" ذهبتُ وحدي إلى شارع ابن بطوطة (الشارع الذي تقع فيه العمارة حيث مقر الخليّة.) كان البرد شديداً والمطر يتهاطل بغزارة والسماء كأنها خيمة سوداء هائلة منتصبة فوق المدينة. عند وصولي إلى باب العمارة، كنت أقطر ماء كما لو أنني كنتُ واقفاً تحت ميزاب. طرقت الباب ثلاث طرقات مثلما اعتادت نادية أن تفعل. ولما انفتح، أطلّ منه رجل أربعيني فارع القامة، مفتول العضلات، بشَعَر كثيف، وشارب كثّ، جرّني إلى الداخل بقوة وهو يصيح:

- تعالَ هنا أيّها الوغد!

في الممرّ، كان هناك ثمانية رجال أشدّاء غلاظ ببدلات داكنة، وملامح قاسية، وعيون شرسة النظرات. ظلوا ينظرون إليّ باحتقار واشمئزاز كما لو أنني حشرة بشعة، ثم سدّد لي الرجل الذي جذبني إلى الداخل لكمةً أسقطتني على الأرض في الحين والدم يسيل من فمي بغزارة:

ما اسمك؟ صاح بي.

- ميلود...

- ميلود ماذا؟

- ميلود سعيدان.

بحركة سريعة، أوقفني على قدمي وراح يسدد لي لكمات سريعة متتالية إلى أن لم أعد أرى غير أشباح قاتمة تترنح أمامي على وقع اللكمات التي كنتُ أتلقّاها. ثمّ فجأة مادت الأرض تحت قدمي، وانفتحت تلك الهوّة التي طالَما حذرتني منها زهرة، فهويتُ فيها.

حين استعدت وعيي، وجدتُ نفسي في زنزانة متسخة الجدران، تفوح منها روائح البول والخراء. وكانت الأغطية التي وضعت على جسدي الملطخ بالدم، تقطر وسخاً. ألقيت بها بعيداً عني، ثم التففتُ بمعطفي الذي كان لا يزال مبللاً بمياه الأمطار، وقرفصت في أحد الأركان في انتظار الصباح وأنا أرجف مثل قصبة في الريح العاتية.

صبيحة اليوم التالي، تبيّن لي أنه تمّ إيقافُ جميع من كانوا يترددون على شارع

ابن بطوطة ما عدا نادية التي علمت عند إطلاق سراحي أنها تمكنت من الفرار إلى البلد المجاور عبر الحدود المتاخمة للجريد، مسقط رأسها، ومن هناك سافرت إلى بيروت لتنضمّ إلى الثورة الفلسطينية.

في تلك الزنزانة الكئيبة النتنة، حيث تعشش الجرذان، سوف أقضي شهراً كاملاً. وبالرغم من أنني اعترفت لهم بكل شيء منذ البداية، بل وعبرت لهم عن ندمي الشديد عما فعلتُ، محاولاً إقناعهم بأن الماركسية لا تعني لي شيئاً، فإنهم ظلوا يستجوبونني يومياً ولساعات طويلة تتخللها حصص تعذيب مروّعة، طالبين مني بالخصوص أن أدلّهم على المكان الذي يمكن أن تكون نادية متخفية فيه. وعندما أعود إلى الزنزانة غالباً ما أكون في حالة أخيّر فيها الموت على الحياة!

نهاية الشتاء، تمت محاكمتنا. ونال الجميع أحكاماً ثقيلة تتراوح بين عامين وخمسة أعوام سجناً. وحكم على نادية بعشرة أعوام غيابياً. أما أنا فحكم عليّ بستة أشهر فقط، الشيء الذي أفرحني كثيراً، غير أنّه نغّص حياتي في السجن إذ أن رفاق الخلية الذين أصبحتُ أنفر من رؤيتهم ومن التحدث إليهم، اتهموني بالجبن وبالتعامل مع الشرطة. بل وادّعوا أنني قد أكون الذي دللت على العمارة حيث كانوا يجتمعون! واجهتُ اتهاماتهم الخسيسة بصمت تام، متسلحاً بتلك اللامبالاة التي اكتسبتها عقب قراءتي لرواية "الغريب" والتي جردتني منها نادية لتبقيني عارياً أمام عواصف المفاجآت الهوجاء. وعندما أعياهم أمري، باتوا يعاملونني بخشونة، ويبصقون عليّ صباح مساء، بل إنهم اعتدوا عليّ بالضرب أكثر من مرة. ولما عاينت إدارة السجن ذلك، نقلتني إلى زنزانة منفردة.

يوم خروجي من السجن، توجهتُ رأساً إلى بار "برازيليا" فوجدتُ المكي هناك سكْران حزيناً. عانقَني بحرارة والدموع في عينيه.

– "آه.. يا صديقي العزيز..كَمْ أنا مشتاقٌ إليك.. منذ دخولك إلى السجن وأنا لا أفعل شيئاً آخر غير الشراب!!" قال.

عاد يعانقني من جديد، ثم أردف قائلا:

– "ولماذا فعلتَ بنفسكَ هذا... لماذا؟!"

– أوف..لقد كنتُ أحمق وغبياً!

– كنتُ على يقين أن العاقبة ستكون وخيمةً.. وقد حذّرتُكَ أكثر من مرة غير أنّكَ كنتَ أعمى وأصمّ تماماً!

– هذا صحيح...

– على أيّة حال، أنا سعيد جداً أن أراكَ!

– وأنا أيضاً!

طلب بيرة ثم قال:

– لا بُدَّ أن أصارِحَكَ أنَّ وقْعَ الخبر على العائلة كان مُدَمِّراً ومأساوياً إلى أبعد حدّ!

– "وكيف ذلك؟!" قلتُ وأنا أكادُ أختنق.

– لقد أخفيتُ الأمرَ عنها، غير أن أحد الجيران أخبرها بذلك، بعد أن نشرت الجرائدُ خبر المحاكمة..

ظل يتمعن فيّ لحين ثم أضاف:

– أبوك أُصيبَ بنوبة قلبية نُقلَ بسببها إلى المستشفى حيث أمضى ثلاثة أسابيع... وأمّك أُغْمِيَ عليها ولازَمَت الفراش أزيد من أسبوع... وقبل أسبوعين زُرتُهُمْ وجلستُ إليهم قرابةَ الساعتين محاولاً إقناعهم بأن ما حدث لا يعدو أن يكونَ سحابة عابرةً... وعندما تركتهم بدا لي أنّهم استعادوا أملَهُمْ فيك وباتوا أفضل من ذي قبل.. ورأيي أن أوّلَ شيء تقوم به هو زيارتهم.

– لا أستطيع!

– كيف لا تستطيع؟!

– ليست لديّ القدرة على مواجهتهم!

– لا بدّ أن تفعل ذلك.. سأرافقكَ إن شئتَ فلعلّ ذلك يخفف عنك وطأة المواجهة..

– لا أستطيع!

– "إنْ لن تفعل ذلك فإنك تكون قد اقترفتَ جريمتين بحقهم!" قال المكيّ بحدّة.

رميتُ بكأس البيرة كاملاً في جوفي محاولاً إطفاءَ الحريق الذي كان يأكل كياني ثم قلتُ:

– دعني أفكّرُ!

– لك كامل الظهيرة لكي تفكّر ملياً في الأمر.. وفي المساء حين نلتقي في مطعم "لاماما" حيث سأدعوكَ للعشاء، لابدّ أن تقول لي جوابَكَ قبل الشروع في الأكل...

– حسناً!

– والآن دعني أذهبُ.. وفي الساعة السابعة والنصف بالضبط نلتقي أمام "لاماما" متفقان؟

– متفقان...

بعد انصراف المكي، هتفتُ لزهرة فجاءتني وهي تختلجُ من شدّة التأثر. عانقتني باكيةً ثم قالت:

– لا أريدُ أن أبقى في هذا البار!

– وإلى أين تريدني أن أذهبَ؟

– إلى الضواحي الشمالية..ألَمْ تكن دائماً المكان المُفَضّل للحديث بالنسبة لنا؟

– اقتراح رائع!

ركبنا تاكسي وَضَعَتْنَا أمام البحر، رحنا نتمشّى بتؤدة تحت شمس الخريف الدافئة، بينما كانت طيورُ النورس البيضاء تمارس ألعابَهَا الجميلة فوق سطح الماء، والبحر يزفرُ زفرات خافتة. رويتُ لزهرة تفاصيل الأشهر الستّة التي أمضيتُها في السجن. أنصتتْ إليّ بانتباه شديد، متفرّسَة في ملامحي بين الحين والحين وكأنها تريدُ أن تتيقّنَ من صحة ما أقول. ولما انتهيتُ من ذلك، صاحت غاضبةً:

– تلك المجرمة هي السبب في كل ما حدث..أليسَ كذلك؟

– الحقيقة أني أنا المسؤول!

– هذا صحيح إلى حدّ ما... غير أن المسؤولية الحقيقية تقعُ على عاتقها هي. هي التي فرّت في النهاية لتترككَ أنتَ والبقية في الجحيم!

ظلت صامتة لحين، ثم همستْ:

– أما زلتَ تحبّها؟!

– لا... أبداً... لكأنها لم تكن في حياتي مطلقاً!

عانقتني بحرارة. ثمّ بصوت متهدّج، همست ثانية:

– الآن بإمكاني أن أقول إنني سعيدة بك رغم كل ما حدث!

غاب جبل طارق في الضباب وأخذت ملامحُ مدينة روزالي تتجلّى شيئاً فشيئاً. بينما انتصبت جبال الأطلس وهي أكثر شموخاً، وأوضح تضاريس من ذي قبل. نحن الآن نقتربُ من الخط الفاصل بين الشرق والغرب، ذلك الخط اللامرئي الذي كلّما تمكن الواحد منهما من اجتيازه إلاّ واكتسح الآخر، وأخضعه لنفوذه

وسلطته لقرون مديدة. وأنا كائن لا شرقي ولا غربي، فررت من الشرق فرفضني الغربُ فمكثتُ معلّقاً في الفراغ أنتظرُ ساعة الخلاص التي تأبى أن تأتي. أو بالأحرى أنا شرقي أردتُ أن أتملّصَ من الشرق لأتطبّعَ بطبائع الغرب، فخسرتُ الإثنين معاً: الشرق كما الغرب. وحدها روزالي قادرة أن تنقذني من هذا الوضع المضحك المبكي، وتوفّرَ لي مكاناً آمناً يعيد لي التوازن في النفس. أتدرون لماذا؟ لأن روزالي تعيشُ على الخطّ تماماً. ويعني ذلك أنها ليست معنيّة بما يجري على الجانبين. أو، وحتى أكون أكثر دقة وأمانة، لأقل إنها معنية لكنها ليست متشيّعة لا لهذا ولا لذاك. لذا هي تأخذُ من كلّ واحد منهما ما يروق لها، وينسجمُ مع ذوقها ومتطلبات حياتها، وترفضُ كلّ ما ليست له هذه المواصفات. إنه وضع مريحٌ للغاية لمن يريدُ أن يعيشَ في مأمن من الصراعات والحروب والأحقاد بين الجانبين والتي بسببها انهارت عروش، وتقوّضت ممالك وامبراطوريات، ونوتْ أمجاد. وأنا لم أنتبه إلى هذا إلاّ عندما جئتُ إلى مدينة روزالي هارباً من عتمة الغرب. ذلك الغرب الذي كنتُ قد اعتقدتُ في تلك الأيام الكالحة من حياتي التي أعقبت خروجي من السجن، أنه قد يكون خلاصي. نعم اعتقدتُ ذلك. أتذكرُ أنني كنتُ أتجوّلُ مع زهرة في المدينة العتيقة حين قلتُ لها:

– عليّ أن أرحل!

– إلى أين؟!

– إلى الغرب!

– ولماذا؟!

– أعتقدُ أن وجودي هنا خطأٌ!

– وهل تعتقدُ أن الغربَ يمكن أن يكون المكان المناسب لكَ؟

– أعتقد ذلك!

– أوف... ها أنتَ في طريق الضلال مرة أخرى..

– لا..أبداً..بل أنا على يقين من أنني في الطريق الصواب، وأن خلاصي الحقيقي لن يتحقق إلاّ في الغرب...

اغتاضت زهرة وصاحت فيّ:

– لتَعْلَمْ أن خلاصكَ ليس مرهوناً بالأمكنة وإنما بكَ أنتَ. أنتَ فقط. فاهم؟!

وما قالتْهُ كان معقولاً ومنطقياً للغاية غير أنني لم أخذْهُ بعين الإعتبار، ورحتُ

أخطّط للسفر باتجاه الغرب بالرغم من أنهم كانوا قد رفضوا للمرة الثالثة المطلب الذي تقدّمتُ به للحصول على جواز سفر. بل إنني كنتُ مصمّماً أن أفرّ عبر الحدود مثلما فعلت نادية إن اقتضى الأمر ذلك. ولابد أن أعترف أن أوضاعي ساءت كثيراً عقب خروجي من السجن، وأن حياتي قد فسدت وتعفنت حتى أضحتْ جحيماً لا يُطاق. فإثر الزيارة القصيرة التي أدّيتُها لعائلتي صحبة المكي، نما عندي شعور بأنني المسؤول الأول والأخير عن ذلك الشقاء الذي رأيته مرسوماً بخطوط غليظة على وجه أمّي وأبي وأختي حليمة. وقد حاولتُ أن أُواجهَ الأمر بفلسفتي، فلسفة اللامبالاة، غير أنّ ذلك الشعور ظلّ يتعاظمُ ويتعاظَمُ إلى أن أثقل روحي بعقدة ذنب أضحتْ مثل داء عُضال ينهشُ كياني. وبسبب الآلام والأوجاع التي ابتليتُ بها جرّاء ذلك، أُصبتُ بحالة من الإحباط الشديد جعلتني أنقطع نهائياً عن الدراسة وذلك قبل سنة واحدة من التخرّج. ولمّا وصلتني رسالة من الإدارة تعلمني فيها أنهه تمّ فصلي من الجامعة، لم أحزن ولم أكترث بل أحسستُ أنني تحررتُ من عبء ثقيل. ثم ازدادت أوضاعي سوءاً لما غادر المكّي إلى باريس لإنجاز رسالة دكتوراه عن الحركة السوريالية، وعينت زهرة مدرسة في قرية نائية بالجنوب فلمْ أعد ألتقي بها إلاّ لماماً. وهكذا وجدت نفسي بين عشية وضحاها وحيداً بلا أصدقاء في مدينة لم أعدْ أُطيقُها ولم تعدْ تطيقني. وباستثناء نجيب، لم يكن هناك كائن واحد بإمكاني أن أبوح له بخفايا حياتي التي أقفرت من جميع الأحلام والآمال، إلاّ من أمل واحد: السفر إلى الغرب، ذلك أنه كان يبدو لي الوحيد الكفيل بأن يبعد عن ذهني الصورة المرعبة لعائلتي الشقية والتي كانت تلاحقني في كل الأماكن وفي كل الأوقات، وينقذني من بقية المحن التي كنتُ أتخبّط فيها. وفي انتظار ما كنتُ أعتقد أنه الخلاص الحقيقي، كنتُ أقضي جلّ أوقاتي في بار" برازيليا "لا أغادرهُ إلاّ لكي أعود إلى بيت نجيب في "نهج الباشا" وخلال شتاء ١٩٧٧، وعلى مدى أسبوع كامل تهاطلت الأمطار بغزارة على العاصمة، فأصبح بيت نجيب مهدّداً بالسقوط فتَركَهُ ليسكن في شارع مجاور غرفة ضيقةً استعملها في نفس الوقت أتيليه ومكاناً للنوم. وعلى مدى عامين كاملين، ظلّ البحث عن مكان للنوم، المشكلة الأساسية واليومية التي تؤرّقني أكثر من غيرها... وفي تلك الليلة العاصفة من ليالي بدايات العام ١٩٧٩، بتُّ في شقّة سعيد الواقعة في نفس الحيّ الذي تمّ فيه اعتقالي. وسعيد من الرواد اليوميين لبار "برازيليا" وهو في الخمسين

من عمره، برأس ضخم، ووجه طويل تبدو التجاعيد التي تشقه طولاً وعرضاً، كما لو أنها لوحةٌ لآلامه وأوجاعه ومحنه الداخلية التي لا يبوح بها لأحد. وهو يرتدي دائماً بدلات رمادية كئيبة، ويضع رباط عنق أسود بنجوم بيضاء لا يتخلّى عنه أبداً. لَكأنّ حياتَهُ جنازةٌ دائمة. وقد درس سعيد في القاهرة وعاد من هناك وهو شديد الإعجاب بأدبائها وشعرائها وفنانيها ولياليها الراقصة. لذا هو لا يكاد ينقطع عن الحديث عن ذلك بزهو كبير. بل إنه ينسى نفسه أحياناً ويشرع في الحديث باللهجة المصرية، متخذاً هيئة أديب من أدبائها الكبار. وعند عودته إلى البلاد عُيِّنَ مدرّساً في المعاهد الثانوية. وفي الآن نفسه، دأب على نشر مقالات في الصحف والمجلاّت مقلّداً فيها أسلوب طه حسين والعقاد، أديبيه المُفضّلَين. وبالرغم من أنه منصرف إلى الشراب طول الوقت، ولا يؤدي الصلاة ولا يصوم رمضان، فإنه جدّ متزمّت دينياً، ومحافظ في سلوكه وأخلاقه. فإذا ما دار الحديث عن النساء، أو عن شيء من هذا القبيل، فرَّ إلى مكان بعيد، ليُكْمِلَ كأسَهُ وحيداً. ذلك أن الحديث عن النساء هو دائماً وأبداً من وحي الشيطان الرجيم كما قال ذات مرة. وبسبب حدة طبعه، وسلاطة لسانه، كان بلا أصدقاء تقريباً. وكان جل رواد بار" برازيليا "يتجنبون الحديث والجلوس إليه، بل إن البعض منهم كانوا يكرهونه كرهاً شديداً ويصفونه بـ"البغل" مرة وبـ"الجمل" مرة أخرى. ولستُ أدري لماذا كان يشفق عليّ من حين لآخر، فيدعوني للنوم في شقته. ومن جانبي، كان يحلو لي الحديث معه حول الأدب بالخصوص. وشيئاً فشيئاً، وبحكم معاشرتي اليومية له تقريباً، اكتشفت أنه كائن هشّ له قلب طفل. وربما لإخفاء ذلك، هو يحاول دائماً أن يظهر بمظهر الرجل الصلب، الصعب المراس، الذي يمقت العواطف معتبراً إياها عيباً من العيوب الكبيرة التي لا تليق بالرجال الحقيقيين...

وكانت شقّة سعيد وسخةً بدرجة لا تحتمل. فعلى الأرضية، وعلى الأثاث، وعلى الكتب والمجلات المكدّسة في كل مكان كتلٌ سميكة من الغبار. والأغطية نتنة. والمرحاض معطّل. والمطبخ في فوضى لا مثيل لها. والروائح تسبب الغثيان. والنوافذ دائما مغلقة. فإذا ما طلبتُ من أفتحها، اغتاض غيضاً شديداً وَصَاح بي: "إسمع... أنت هنا فقط لكي تنام، لا لكَي تتدخل في شؤوني الخاصة!" وبعد أن ينطفئ الضوء، تسرع الجرذان في الرقص من حولي رقصات مجنونة حارمةً إياي من النوم. وربما لكي أكون في مأمن منها، أحاولُ دائما أن أطيل السهرة مع سعيد

طالباً منه أن يحدّثني عن حياته في القاهرة. وكان ذلك يروق له كثيراً، فيشرعُ في الحديث، ولا ينتبه إلى نفسه إلاّ عندما يبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود... وتلك الليلة كان سعيد سكران حتى أنه لم يكن قادراً على الوقوف على قدميه. تَهَالَكَ على الفراش وفتح الراديو. أم كلثوم تغنّي "يا مسهرني..." جهزت مكاناً للنوم ورحت أقرأ عددا قديماً من مجلة "الرسالة" بينما كانت العاصفة في الخارج تهزّ الدنيا هزّاً عنيفاً. فجأةً تَنَاهى لي من غرفة سعيد نشيج سرعان ما تحوّلَ إلى بكاء بصوت عال غطّى على صوت أمّ كلثوم. فتحتُ باب غرفته فوجدتُهُ متربعاً على السرير ورأسه بين يديه ونصفه الأعلى ينتفض على وقع بكائه. لم أشأ الإقتراب منه، لذا ظللتُ واقفاً في الباب أنتظرُ. استمرّ يبكي لِمَا يزيد على العشر دقائق، ثم تناول منديلاً. مسح وجهه الطويل المبلّلَ بالدموع ثم قال دون أن ينظر إليّ:

– أنا إنسان شقيّ!

– كلنا أشقياء! قلتُ.

– ولكن أنا أشقى من الجميع.. بل لعلّي أشقى إنسان في الكون بأسره!

لم أشأ أن أسأله عن السبب الذي جعله يقول مثل ذلك الكلام إذ أني أعلم جيداً أن يكره الأسئلة، خصوصا تلك المتعلقة بحياته الشخصية. ومنذ تعارفنا لم أطرح عليه أي سؤال يتصل من قريب أو من بعيد بمثل هذه المسائل. وربما لهذا السبب أصبح يدعوني بدون أي تحفّظ للنوم ي شقّته الشيء الذي أثار دهشة الآخرين واستغرابهم...

– "نعم.. لعلّي أشقى إنسان في الكون بأسره!" عاد يقول.

ظللتُ صامتاً.

– "أتعرف لماذا؟!" سألني وعيناه في عيني لأول مرة.

– "لا.." قلتُ.

– أوف... إنها قصة مؤلمة. مؤلمة جداً. قصة لم أروِهَا لأحد من قبل أبداً... أتريدُ أن تسمعها؟

– "لِمَ لا إذا أردتَ أنتَ ذلك حقا!" قلت.

– إجلسْ! قال.

أخذتُ كرسياً وجلستُ قبالته بعد أن أطفأت الراديو بطلبٍ منه.

– "إنها قصة مؤلمة جداً يا صديقي..." عاد يقول.

أشعلَ سيجارة. ظلّ ساهماً لحين ثم قال بصوت مثقل بالهمّ والألم:

- "كل شقائي بسبب امرأة.. نعم بسبب امرأة. فعند عودتي من القاهرة، أحببتُ فتاة كانت تدرّسُ معي في نفس المعهد. أحببتُها كما لم أُحبّ امرأة في حياتي. وقد أحبتني هي أيضاً. وعقب مرور عام على تعارفنا، تزوجنا وعشنا حياة هانئة في شقة محترمة بقلب العاصمة. وقد كانت تعشق السفر، فأخذتها إلى القاهرة والإسكندرية وبيروت ودمشق واسطمبول وإلى روما ونابولي. ازدادت حياتُها هناء وسعادة بعد أن رُزِقنا بولد وبنت. لكن فجأة، وعقب مرور سبعة أعوام على زواجنا، بدأت أشعرُ بنفور من جانبها لم أجد له مبرراً أو تفسيراً. وأحياناً كان يمر أسبوع كاملٌ لا أسمع منها خلاله غير كلمات مقتضبة، جافة وباردة. وفي الفراش، أخذت تدير لي ظهرها، متعللة مرة بالتعب، ومرة بالمرض، ومرة بالعادة الشهرية... انتابتني الهواجسُ والشكوك، فقررت أن أراقبَ كل تحركاتها وسكناتها "...

صمتَ سعيد. أشعل سيجارة أخرى. أخذ منها أنفاساً متتالية ثم قال:

- أوه.. يبدو أنه من الأفضل ألاّ تسمع بقية القصّة، لأني لا أريدُ أن أفتحَ الجرح من جديد.

- "مثلما تشاء!" قلت.

لحين ظلّ ينظر إلى الفراغ بعينين زائغتين، ثم قال:

- "على أية حال، يمكن أن أقول لكَ يا صديقي بأن حياتي أصبحت بلا معنى بعد تلك القصة المؤلمة. وأصارحكَ أنني أحياناً أفكر في الإنتحار، وأحياناً أخرى أقول إنّه يتحتمّ عليّ أن أذهب إلى مكان بعيد، لكي أنسى ما حدث. لكن في النهاية يعتريني إحساسٌ بأنه لا فائدة تُرْجى من أيّ شيء وأُسارِع بالذهاب إلى بار "برازيليا" محاولا أن أطفئ نار أوجاعي بالشراب."

استمرت سهرتنا حتّى الفجر. لم أرغب في النوم بعد ذلك، فغسلتُ وجهي وخرجت إلى المدينة. كانت العاصفة قد هدأت، غير أن البرد كان لاذعاً، والسماء مغشاة بسحب دهماء. مشيت في الشوارع الفارغة بينما كانت المدينة تنهض بهدوء من نوم ليل الشتاء البارد الطويل. ولما طلع النهار رمادياً كئيباً، واشتدت الحركة والزحام في "باب البحر"، ركبت القطار إلى الضواحي الشمالية. أمام البحر الهائج، الغاضب، رحتُ أستعرض وقائع الليلة الماضية. وفي لحظة ما، اسودّت الدنيا في عيني، فأخذت أبكي بمرارة وبصوت عال، ذلك أنّ حياتي تبدّت

لي بلا معنى هي أيضاً، وداهمني شعورٌ بأنني خَسِرْتُ كل شيء وأنه يتحتّم عليّ الإعتراف بالخسارة، ثم وضع حدّ لحياتي. وفكرتُ في أن أفضل طريقة لذلك هي أن أُلْقي بنفسي في البحر الهائج، الغاضب، فيأخذني بعيداً، بعيداً حتى إذا ما لفظني، يلفظني جثة مشوّهةً، متورمة، بلون أزرق مائل إلى السواد، بحيث يعجز من يعثر عليها الكشف عن هوية صاحبها. لدقائق عدة، ظلّت الصورة البشعة لجثتي مستقرّة في ذهني، ثمّ استبدّ بي بسببها فزع شديد، فعجلت بالذهاب إلى المحطة عائداً إلى العاصمة.

أمام بار "برازيليا" اعترضني طالب في قسم التاريخ، يسكن في الشارع الموازي لشارعنا في مدينة "قاف."

– "منذ يومين وأنا أبحثُ عنك!" صاح حالما رآني .

– "تبحث عنّي؟!" قلت مدهوشاً، ذلك أن علاقتي به لم تكن تتعدّى تحيات المجاملة العادية.

– نعم... منذ يومين وأنا أبحث عنك!

– ولماذا؟!

– تعال وستعرف!

– إلى أين؟!

– عشر خطوات فقط بعيداً عن صخب البار وستعرف كلّ شيء...

– "حسناً!" قلتُ، ثم تبعته واجف القلب...

– "آسف أن أبلغكَ أن والدكَ توفي منذ ثلاثة أيام بالسكتة القلبية ودفن أول أمس!" قال.

– "مات؟!" صحتُ أنا.

– "نعم مات منذ ثلاثة أيام... وقد بحثتُ عنكَ بتكليف من أمك غير أنّ انني لم أعثر لكَ على أثر..."

دوار في رأسي. في ركبتي ماء. والدنيا من حولي تعتمت تماما. ظللتُ واقفاً ولا قدرة لي لا على الكلام ولا على الحركة.

– "أمّكَ تنتظركَ... لا بدّ أن تذهبَ إلى هناك!" قال الشابّ. ثم أضاف بعد قليل:

– هل تحتاج لشيء؟

– "لا... شكراً!" قلت.

تركته واقفاً ومضيت متثاقل الخطى باتجاة البار. كان نجيب على الكونتوار

– "هل حدث شيء؟" قال وهو يتمعن في ملامحي مرعوباً...

– لقد توفّي والدي!

– توفي والدكَ؟! ومتى كان ذلك؟

– منذ ثلاثة أيام.. وقد دفن أول أمس بدون حضوري... وعليّ أن أذهب الى حيّنا.

– "أوف... يا لَها من مصيبة!" قال نجيب. ثم أدخل يده في جيبه ومدّ لي عشرين ديناراً.

أردتُ أن أعترض على ذلك ليقيني أنه أعطاني كل ما عنده، غير أنه صاح فيّ بشيء من الحدّة:

– "لا تفتح فمكَ... أرجوك. أنتَ بحاجة ماسّة إلى هذا المبلغ التافه أكثر منّي، لذا خذه وانصرف حالاً!"

– "شكراً جزيلاً!" قلت. ثم شددت على يده مصافحاً وانصرفت.

وصلت إلى مدينة "قاف" في الساعة العاشرة ليلاً. البرد شديد والشوارع مقفرة تماما. عند وصولي إلى بيتنا، استبدت بي رغبة حارقة في أن أعود من حيث أتيت. ظللت واقفاً في البرد إلى أن تمكنتُ من كبح جماحها. ثم أخذت أطرق الباب طرقات قوية متتالية، كما لو أنني أخشى أن تستبدّ بي تلك الرغبة من جديد. ولما انفتح، أطلّ منه كائن غريب، رمادي، كأنه روح جاءت هائمة على وجهها من العالَم الآخر. ولم أميّز أن ذلك الكائن ليس سوى أمّي إلاّ بصعوبة كبيرة. ظلت هي تحدق فيّ بعينين محمرتين، مرتعبتين، ثم أطلقت صرخة مدويّة، ارتجّ لها الحيّ بأسره، وعلى إثرها جاءت خالتي محبوبة من بيتها المقابل لبيتنا وهي ترجف من البرد. احتضنتني باكية ثم قالت والدموع تخنق صوتها:

– لقد انتظرناكَ طويلاً... وأخيراً اضطررنا لدفن والدك بدون حضورك!

– "لم يبلغني الخبر إلاّ مساء هذا اليوم!" قلت.

– "تعال!" قالت.

جلسنا في الصالون. رائح والدي التي هي مزيج من رائحة الفرن والسجائر الرخيصة التي يدخنها لا زالت تملأ المكان.

– "أمكَ كادت تفقد صوابَها بسببك!" قالت خالتي محبوبة هامسة وكأنها لا

تريد أن تسمع أمي ما تقول.

– ولكن...

بنفس الصوت الهامس، قاطعتني بحدة:

– أوه يا ولدي! ما كان أحد يظنّ أنك ستخيّب ظننا إلى هذا الحدّ... حتّى والدك المسكين مات دون أن يتذوق شيئاً من الآمال التي علّقها عليك!

انغرس السكين عميقا في القلب، فلَذْتُ بالصمت. ظلّت أمي وأختي تبكيان بصوت عال في الباحة لمدة نصف ساعة تقريباً، ثم انسحبت كل واحدة منهما إلى حجرتها دون كلمة أو نظرة واحدة إليّ. لكأنهما أرادتا أن تشعراني أني مسؤول عن تلك المأساة الرهيبة التي ضربتْ عائلتنا الصغيرة والتي هي موت أبي. بعد ذلك بقليل همست خالتي محبوبة: "غداً سيكون لنا وقت أطول للحديث!" ثم انسحبت بدورها. بقيت في الصالون أدخّن إلى أن بان الفجر. ثم على أطراف أصابعي، انسللت من البيت لأركبَ أول حافلة متوجهة إلى العاصمة. وكان ذلك آخر عهد لي بعائلتي الصغيرة وبمدينة "قاف..."

رَسَت الباخرة في مدينة روزالي، وأنا غارق في ذكرياتي القديمة. أمام باب الخروج، اشتدّ الزحام وسط الهرج والصياح والفوضى وبكاء الأطفال. والشوق لرؤية روزالي الذي كان قد بلغ ذروته في ذلك الحين، جعلني أرجف كما لو أنني خرجت للتوّ من حوض ماء بارد، وبي رغبة في أن أجرف مثلما تفعل البلدوزارات الغاضبة أكواخ القصدير وأكوام الزبالة، كلّ أولئك الذين كانوا يقضون في الطابور الطويل في انتظار ختم جوازاتهم. أكثر من مرة، زفرت عجوز إسبانية شمطاء بأنف معقوف وشارب خفيف كانت تقف ورائي مباشرة تضايقاً وتبرماً من انعدام صبري الذي يبدو أنه كان واضحاً للعيان بالرغم من أنني كنتُ شديد الحرص على كتمه. ومحاولاً التخفيف من حدة شوقي لرؤية روزالي رحتُ أتأمل البواخر الراسية في الميناء، وحركة الناس على الرصيف، وطيور النورس التي كانت تحلّق لا مباليةً في سماء تتوزع على سطحها سحب بيضاء، كأنها كتل هائلة من رغوة الصابون، وطرف المدينة حيث القصبة والذي بدا لي شبيهاً بفرس بيضاء تتأهب للوثوب في البحر. غير أن كلّ ذلك لم يُجْدِ نفعاً، ولم يخفف من حدّة نار الشوق لروزالي التي كانت تكوي عظامي. ثم ازداد وضعي سوءاً حين قرصني البول فجأة بسبب الكميات الهائلة من البيرة التي شربتها اثناء الرحلة وأنا

أستعيدُ ذكريات الماضي البعيد. وعندئذ رحتُ أضرب الأرض بقدمي تماما مثلما تفعل الجياد الهائجة قبل السباق. وربما تكون العجوز الإسبانية الشمطاء قد قذفتني بشتائم مقذعة، ذلك أنني سمعتها تتلفّظ بكلمات غاب عنّي معناها، غير أنني لم أعبأ بها. لا فائدة، قلتُ. حتى وهي في القبر عظاماً نخرة سوف لن تكفّ عن التبرم والشكوى وسبّ العباد. قلتُ هذا وأنا أضرب الأرض بقدمي ولسعات البول تزداد ضراوة وصرخة ألَم توشك أن تندفع من فمي. وحين جاء دوري، ومددت جوازي للشرطيّ ذي الصلعة المنفرة، والوجه الطويل المكسوّ بالندوب والتآليل، كنتُ في حالة يُرثى لها، حتى أنه، أي الشرطي، الذي بدا مهزوماً ومغلوباً على أمره كما لو أنه عاد قبل قليل من حرب خاسرة، ألقى عليّ سؤاله أو أسئلته دون أن ينظر إليّ. لذا كان من الطبيعي ألاّ أفقهَ شيئاً، ذلك أن الحديث عيون، كما كانت تقول خالتي محبوبة، رحمها الله إن كانت ميتةً، وأطال في عمرها إن كانت لا تزال حيّة تُرْزق. ولم أتبيّن أن الشرطي مستاءٌ جداً من سلوكي، إلاّ عندما رفع رأسه ورأيتُ وجهه الطويل وقد أربد وانتفخ غيضاً، وعينيه الصغيرتين وقد اتّقَدَتَا شراً وانفعالاً. ولما هممت أن أعتذرَ له برغم اقتناعي بأني لم أرتكب أيّ ذنب يستوجبُ الإعتذار، لسعني البول لسَعات موجعة، وأحسستُ أن خصيتيّ توشكان على الإنفجار. ولو كنتُ غامرتُ ونطقتُ بكلمة واحدة فقط، لكانت حدثت كارثة. وهكذا فضلت أن أصمت. وكالأبله، ظللتُ واقفاً أمام الشرطيّ وفي نفسي ذلك الإنكسار الذي يشعر به عادة أولئك الذين يعجزون عن البوح بآلامهم الداخلية. وفجأة ارتفعت ضجّة هائلة. وبدا لي أن تلك العجوز الإسبانية الشمطاء الواقفة ورائي مباشرة أخذت تصرخ وتولول لاعنةً الذين يعطلون حركة الناس والكون. ثم دفعتني أياد كثيرة بقوة إلى الأمام، فإذا بي أجد نفسي في رمشة عين وجهاً لوجه مع شرطي أسود كالقطران. وقد فكرتُ، وأنا أنظر إليه، أنه قادرٌ بلكمة واحدة أن يهشّم عظامي. وبصوت أشدّ سواداً من لون بشرته، صاح في ذلك الشرطي": إفتح حقيبتكَ. "وكان باستطاعتي أن أسمعه بوضوح، ذلك أنه خاطبني وعيناه في عيني. وحين انحنيتُ لأفتح حقيبتي، بدأ البول يتقاطرُ مبلّلاً فخذي. عندئذ طفح الكيل، ولم يعد بوسعي أن أصبر أكثر مما صبرتُ، وأن أتحمّلَ أكثر مما تحمّلت. وفي الحال صحتُ في الشرطي الأسود كالقطران: "التواليت! أين التواليت؟!" وذهل هو ذهولاً من تلك الجرأة المفاجئة التي اكتسبتُها، أو هكذا خُيّل

إليّ. للحظات ظلّ يحدّق فيّ بعينيه المحمرتين المتعبتين، وهو في حيرة من أمري، ثمّ أشار بسبابته إلى باب أصفر قذر. جريتُ وجرى هو ورائي... آ آ آ آه... ما ألذّ أن يتبوّل الإنسان بعد انتظار طويل آ آ آ آه! !اللعنة على البيرة وعلى العجائز ورجال الشرطة. عليهم جميعا اللعنة، خصوصا العجائز ورجال الشرطة، ذلك أنهم يرتابون في كل شيء. حتى في دبيب النملة هم يرتابون. ظلّ البول يتدفّق مني بغزارة وأنا في غاية الراحة والإستمتاع، بينما كان الشرطي الأسود كالقطران واقفاً خلفي، يراقبني بانتباه شديد. لعله يخمن أنني أخفي كميات كبيرة من الهيروين أو وثائق خطيرة قادرة على إشعال فتنة جديدة بين الشرق والغرب. اللعنة على العجائز وعلى رجال الشرطة. الشكّ! دائما الشكّ!

حتى القطرة الأخيرة، ظلت عينا الشرطي مثبتتين عليّ ويده على مسدسه. ولو قمت بحركة مريبة، لكان أرداني قتيلا في الحين. ولما استدرتُ، صاح فيّ بنفس الصوت الأسود الغليظ: "تعال!" تبعته وأنا في غاية الإطمئنان. في مكتب رمادي عارٍ، أمرَني أن أفتحَ حقيبتي ففعلتُ. ارتمى عليها وراح يُفَتّشُها بعناية متناهية: معطف مطري، بلوفران. أربعة أقمصة. ملابس داخلية. خمسة جوارب. أدوات التنظيف والحلاقة. ثلاثة أربطة عنق. قارورة عطر اشتريتها من الباخرة هديّة لروزالي. زجاجتا ويسكي "بلاك لايبل." واحدة "أبسولوت فودكا." رزمة علب سجائر "الجيتان." أشعار لوركا. كتاب عن تاريخ البربر. رواية "المخطوط القرمزي" للكاتب الإسباني أنطونيو جالا. دفتر يومياتي، دفتر أشعاري... دفتر أشعاري! لسنوات طويلة لم أفتح هذا الدفتر ربما لأنني أخشى أن أُمْنى بخيبة مرة ويزداد إحساسي بالفشل الذريع الذي أصابني في مختلف مراحل حياتي جلاء ووضوحاً لذاتي المهشمة. ثم إنني أخشى أيضاً أن يداهمني شعور فظيع بالذنب بسبب عدم وفائي بالوعد الذي قطعته على نفسي أمام زهرة قبيل رحيلي باتجاه الغرب. فبعد مرور بضعة أشهر على وفاة والدي، حصل انفراج سياسي في البلاد، ومُنحتُ جواز سفر. كانت زهرة آنذاك في العاصمة. هتفتُ لها فجاءتني إلى مقهى "الأندلس" بالمدينة العتيقة. أمام كأسي شاي بالبندق، قلتُ لها وأنا في غاية الفرح والسعادة:

– لقد حصلتُ على جواز سفر!

– "صحيح!" صاحت، وقد أشرق وجهها ولمع في عينيها بريق السعادة

بالمفاجأة السارة.

– "ها هو!" قلت.

انتشلته من يدي. لبضعة ثوان ظلّت تتأمل صورتي ثم احتضنتني مهنئةً...

– "أنا سعيدة جداً!" قالت، وبعد أن أخذت رشفة من كأس الشاي، أضافت:

– ومتى تنوي السفر؟

– بعد أسبوع على أقصى تقدير!

– بعد أسبوع؟!

– نعم..بعد أسبوع..ذلك أنني لم أعدْ أحتمل البقاء هنا!

ظلت تنظر إليّ صامتة. ثمّ ظلّت وجهها سحابة حزن وفي عينيها العسليتين، انطفأ بريق السعادة.

– "ما لك؟!" سألتُها.

– "أنا خائفة عليكَ!" قالت.

– خائفة عليّ؟!

– نعم... خائفةٌ عليكَ... وأخشى أن تزداد حياتُكَ سوءاً هناكَ... فالغرب ليس سهلاً كما أنتَ تظنّ..وأعرف كثيرين انكسرت رقابهم هناك...

أمسكتُ بيدها اليمنى ثم قلتُ:

– هل تثقين فيّ؟

ظلت صامتة.

اقتربت منها أكثر وكررت سؤالي.

– "نعم أثقُ فيكَ..." قالت.

– "تأكدي أنني سأكون عند حسن ظنّك!" قلت .

ابتسمت.

– نعم سأكون عند حسن ظنّك يا أعزّ صديقة في حياتي!

وبحماس شديد، رحتُ أؤكّدُ لها أن حياتي ستأخذُ منعرجاً جديداً في الغرب، وأنني سأحقّقُ جميع طموحاتي، الأدبيّة بالخصوص...

– وهل ستكتب تلك الرواية عن مدينة "قاف" التي طالما حدثتني عنها؟ قالت.

– نعم... سأكتبها!

– وهل ستنشر أشعارَكَ؟

– سأفعل ذلك!

– أرجو ألاّ تخون الوعد الذي قطعْتَهُ على نفسك.

– مستحيل!

– وما هي محطتكَ الأولى عندما تسافر؟

– باريس...

– التذكرة عليّ!

– شكراً جزيلاً.. لن أنسى فضائلَك عليّ أبداً!

من الغرب، رحتُ أرسل الرسالة تلو الأخرى إلى زهرة مطنباً في الحديث عن مشاريعي الأدبية، مؤكداً لها أن روايتي عن مدينة "قاف" ستكون جاهزة خلال أشهر قليلة، مبلغا إياها أنني أتهيّأُ لنشر أشعاري في بيروت والقاهرة. بل وحدثتها بإسهاب عن مشروع رواية أنوي كتابَتَها عن تيهي بين مدن الغرب قائلاً لها بأنني أريدها أن تكون شبيهةً برواية" على الطريق "لجاك كيرواك. وفي الحقيقة انا لم أفعل شيئاً من ذلك. وكانت أوهامي هي وحدها التي توحي لقلمي بتسطير تلك الوعود الكاذبة. وها أنا أُطلُّ على هاوية الخمسين، ولا رصيد لي غير خيباتي وانكساراتي وفشلي.

– أهذا كلّ ما عندكَ؟! سألتني الشرطيّ الأسود كالقطران بعد أن فتّش حقيبتي بدقة متناهية...

– نعم.. هذا كل ما عندي!

– "غريب!" قال الشرطيّ. ثم من جديد راح يفتّشُ حقيبتي بنفس الدقّة المتناهية. بعدها طلب منّي أن أنزع ثيابي ففعلتُ.

– "غريب!" عاد يقول عندما وقفت أمامه عارياً تماماً. دار حولي مرتين ثم قال، وعدم الرضى بالنتيجة التي حصل عليها واضح في ملامحه: "بإمكانكَ أن تنصرف!" لبستُ ثيابي على عجل. أخذت حقيبتي وركضتُ باتجاه محطة التاكسيات...

والآن يبدو لي أن أفضل وسيلة لمعرفة تفاصيل ما حدث لي في مدينة روزالي طيلة الأيام التي أمضيتها فيها، هي يومياتي ذلك أني حرصتُ أن أسجّل فيها كلّ شيء بدقة وبعناية فائقة.

اليوم الأول: في محطة التاكسيات، فكرت بأن الذهاب رأساً إلى روزالي بعد تلك

البهذلة التي حصلت لي في مركز الشرطة بالميناء، وبوجه متعب، وبملابس نتنة بعرق السفر، وبفم تفوح منه رائحة البيرة، سيكون أمراً شائناً ومعيباً. بل لعله ينفر مني روزالي طيلة الفترة التي سأقضيها عندها، فلا أحصل على شيء من مبتغاي. لذا من الأفضل أن أقضي الليلة الأولى في مكان آخر. وغداً أذهبُ إليها نظيفاً، معطّراً، رائق المزاج، موفور الصحة، منطلق الأسارير. لسائق التاكسي الشاب الذي تشقّ فكه الأيمن ضربة سكين قلتُ: إلى "فندق أطلس." فندق هادئ بنجمتين قرب القصبة، يميل لونه إلى الأحمر مثل قصور أمراء مراكش الملثمين. وبه بار من الطراز القديم فيه جلستُ العديد من المرات عندما كنتُ هنا قبل خمسة أعوام، وفيه التقيتُ ذلك الكاتب الغريب الأطوار التي أمضى طفولته ومراهقتَهُ في المقابر والمزابل ومحلات الدعارة، ولم يتعلم القراءة والكتابة إلاّ عندما أشرف على سنّ العشرين. صاحب الفندق بشوش، طيب المزاج والقلب، يضحكُ دائماً ويستهويه أن يروي للنزلاء أحداثاً وطرائف من تاريخ المدينة القديم الذي يعرفه جيداً. عند وصولي إلى الفندق، وجدته جالساً في البهو يدخن نارجيلة، وأمامه كأس شاي منعنع. حالَما رآني ترك النارجيلة، وأقبل عليّ مرحباً:

– "أهلاً وسهلاً!" قال.

– "أتتذكرني؟" قلتُ.

– وكيف لا أتذكرك؟! ولكن يبدو أنكَ غبتَ طويلا عنا... أليسَ كذلك؟

– خمسة أعوام!

– "هذا كثير... أتعرفُ أن هناكَ مثلاً يقول بأن من يموتَ دون أن يزور مدينتنا يموت وفيه قلبه حسرة، وأن من يزورها مرة واحدة، يصبح من الصعب عليه الغياب عنها طويلاً!" قال.

– "من الآن فصاعداً سيأتي مرة أو مرتين في السنة..بل إنني أفكّر جدياً في الإقامة هنا..." قلتُ.

– "سيكون ذلك أمراً رائعاً!" قال...

سيكون أمراً رائعا بالفعل، قلتُ وأنا أصعد إلى غرفتي. وبالقرب من روزالي الجميلة، سأنجزُ جميع أحلامي ورغباتي وطموحاتي وسأتذوّق سعادة الحب الحقيقي وسأستعيد حيويتي ومواهبي التي دمرتها سنوات التيه والعتمة...

أخذتُ دُشّاً ثم نمت نوماً عميقاً حتى نهاية الظهيرة. بعدها خرجتُ أتفسّحُ في

المدينة العتيقة. انتعشت روحي منذ الخطوات الأولى. وأحسستُ أن تلك الهموم والهواجس السوداء التي كانت تعكّر حياتي في مدينة غربتي، انزاحت عني في رمشة عين..الشوارع الضيقة المتعانقة. الأبواب الزرقاء والخضراء والبنية. القطط الهائمة، الأطفال الفقراء الذين يلعبون بكرات من الخرق في الساحة الصغيرة. العجائز الجالسات أمام عتبات البيوت وأصابعهن النحيلة تعبث بحبات سبحاتهن. البنات المكحلات العيون في الجلابيات الملونة. روائح النعناع والزعتر. القطط الهائمة... كل هذا أبهج روحي وملأني بحيوية لمْ أعرفها طيلة السنوات التي أمضيتها في مدينة غربتي. عندما تعبتُ، جلست في مقهى صغير يجلس فيه شيوخ متعبون وصامتون. طلبتُ شاياً منعنعاً وكتبتُ مقطعاً من قصيد انقدح في ذهني أثناء تجوالي. عند هبوط الليل، عدتُ إلى الفندق. في البار الذي كان يعجّ بسياح إنجليز هرمين، شربت كأسي ويسكي على الكونتوار. سألت الجرسون الأهتم عن الكاتب فقال لي إنه لم يعد يأتي لسبب لا يعلمه. ثمّ أردف قائلاً: "لقد تبرجزَ... والمدينة العتيقة الوسخة لم تعد من مقامه!" في الساعة التاسعة ذهبتُ إلى مطعم "فلانسيا" الواقع في شارع صغير يتقاطع مع البولوفار حيث لا تهدأ الحركة حتى في الليل. أكلت سمكاً مشوياً لذيذاً وشربت زجاجة نبيذ أحمر. بعد العشاء تمشيتُ في البولوفار لمدة نصف ساعة تقريباً ثمّ اشتريت بعض الصحف والمجلات وقفلت عائداً إلى الفندق. في الطريق اقترب منّي شاب بشارب خفيف، ووجه شاحب، وعينين شرستين، يرتدي قميصاً بمربعات وبنطلون دجينز قذراً وهمس لي:

- "أتريدُ حشيشاً؟!"

- "لا.." قلت.

- أتريد شيئاً آخر؟

- "لا... شكراً"

بدا الإستياء على ملامحه فعجلت بالإبتعاد عنه. جلست في البار حتى الساعة الواحدة ثمّ صعدتُ إلى غرفتي لأغرقَ في النوم حتّى الساعة التاسعة صباحا...

اليوم الثاني: عندما استيقظتُ كانت الغرفة تسبح في ضوء الشمس. قفزت من الفراش وأنا في غبطة لا مثيل لها. صوت فيروز يأتي من مكان ما مردداً: "بحبّك يا لبنان... يا وطني." صوتها يعيد الحياة والأمل لذلك الشرق البديع الذي مات منذ

أمد بعيد، وخربت معالمه، وطمست آثاره، ومزقت أوصاله، وانتهكت قيمه ليتحوّل إلى مفازة موحشة يعشعش فيها الطغاة والمستبدون، وفيها يسام الناس أقسى أشكال الإهانة والعذاب. بعد الدشّ، طلبت فطور الصباح، ثم لبست أحسن ما عندي وانطلقت راجلاً إلى شارع قرطبة حيث بنسيون روزالي وقلبي يخفق سعادة وحباً وشوقاً. وقد كانت دهشتي شديدةً لما تبيّن لي عند وصولي إلى هناك أن البنسيون اختفى ومكانه انتصبت عمارة بشعة بخمسة طوابق. ومقنعاً نفسي بأنني قد أكون أخطأتُ في الرقم، رحتُ أذرع شارع قرطبة جيئة وذهاباً. لكن لا أثرَ ولو باهتاً لبنسيون روزالي. اكتأبت نفسي واجتاحني خوف غريب. اقتربت من العمارة. كان البواب العجوز جالساً عند المدخل. حييته وسألته:

– ألَمْ يكن هنا في نفس هذا المكان بنسيون اسمه بنسيون روزالي؟

– "بنسيون ماذا؟" ردّ هو مادّاً رأسه الضخم باتجاهي.

– بنسون روزالي...

نظر إليّ كما لو أنه ينظر إلى معتوه، ثم قال:

– لم أسمع بهذا الإسم أبداً في حياتي كلها...

– ولكن أنا سكنتُ في هذا البنسيون عندما جئتُ إلى هنا قبل خمسة أعوام..وأنا على يقين أنه يوجد في نفس المكان الذي توجد فيه هذه العمارة!

حدّق فيّ بعينيه المتعبتين وكأنه يريد أن يتأكد من صحة مداركي العقلية، ثم قال:

– "هذه العمارة بناها الإسبان قبل نحو ستين عاماً، أي عندما كنتُ أنا طفلاً صغيراً ألعب في الرمل... لذا أنصحكَ ألاّ تواصل البحث عن هذا البنسيون الغريب الإسم، لا في هذا الشارع ولا في أي مكان آخر من المدينة!

– "هذا غير ممكن!" قلتُ بحدّة.

أشاح عني بوجهه ملمّحاً من خلال ذلك أنه لا يرغب البتّة في مواصلة الحديث معي. ابتعدت مثقلاً بالخيبة والغيظ. إنه عجوز خرف وفقد الذاكرة، وإلاّ كيف يتفوه بكلام كهذا؟! خطئي أني سألته ناسياً أن الطاعنين في السنّ مختصون في قلب الحقائق، وتزوير التاريخ. ومن فرط الغضب الذي استبدّ بي، بسبب ذلك العجوز الفظّ، لم أنتبه إلى نفسي إلاّ وأنا في قلب البولوفار، وسط الجموع الغادية والرائحة، وزعيق السيارات وصياح باعة الجرائد والسجائر والساندويشات.

عدتُ أدراجي وفي نيتي أن أعود من جديد الى شارع قرطبة، غير أنّي سرعان ما عدلت عن ذلك مفضلاً الذهاب إلى بار "النجريسكو" الذي كنتُ ارتاده يوميا عندما جئتُ إلى هنا قبل خمسة أعوام. ففي هذا البار يعمل رشيد، وهو رجل مرح ولطيف، يعرف روزالي جيداً، وعنها كان يقول لي دائماً بأنها أفضل وأشرف امرأة في المدينة كلها. وكنت ألتذُّ كثيراً بحكاياته الكثيرة عن والده الذي حارب في جيش فرانكو. وقد ذكر لي أن والده ظلّ يعلّق صورة "الكوديليو" فوق سريره حتى وفاته. وكان يردّد دائماً أن العرب لن يصلح لهم حال إلاّ إذا ما حكمهم واحد مثل فرانكو...

دخلت بار "النجريسكو" فوجدته فارغاً إلاّ من كهلين كانا يشربان على الكونتوار، غاريقين في قراءة الجرائد. وكان الجرسون رشيد يدخّن ساهماً. من النظرة الأولى تبيّن لي أنه لم يتغيّر كثيراً. نفس تسريحة الشَعَر. نفس الوجه الشديد السمرة، الحاد القسمات. نفس الخدين الغائرين. نفس الأسنان التي صفرها التدخين. نفس العينين الصغيرتين الفطنتين. فقط الظهر احدودبَ قليلاً. تقدّمت منه باسماً:

– ألاَ تتذكّرني؟! قلتُ.

تمعن فيّ طويلاً ثم قال وعلى ملامحه شيء من الحرج:

– المعذرة، لا أتذكرك!

– قبل خمسة أعوام كنتُ أمضيت خمسة أسابيع هنا، وكنت أجيء إلى هذا البار يومياً.. وأنتَ كنتَ تحدّثني عن والدك الذي حاربَ في جيش فرانكو..

– أنا؟!

– نعم، أنت!

– أبي لم يحارب في جيش فرانكو، وأنا لم أبدأ العمل في هذا البار إلاّ قبل عام واحد فقط. وقبل ذلك كنتُ في إسبانيا...

– ألستَ رشيد؟!

– "لا... انا حسن!" ثم أضاف باسماً:

– وأصدقائي يسمونني أبو الحسن، ربما لظرافتي وحبي المفرط للحياة...

وغير قادر على كبح انفعالي، صحت فيه:

– هذا لا يعقل!!

تفرّسَ فيّ وقد تغضّنَ جبينه، ثم قال بهدوء:

– ولِمَ لا يُعْقلُ يا سيدي؟!

– لأني متأكد تمام التأكد أنك تدعى رشيد، وأن والدك حارب في جيش فرانكو وأنك تعرف جيداً روزالي!

– اسمي رشيد؟! ووالدي حارب في جيش فرانكو؟! وأنا أعرف جيدا روزادي؟!

– "لا... روزالي!" قلت بصوت عال مشدّداً على حرف اللام.

– روزالي... ومن تكون روزالي هذه؟!

– تلك المرأة الجميلة التي تملك بنسيونا في شارع قرطبة، والتي كنتَ تقول لي عنها دائما بأنها أفضل وأشرف امرأة في المدينة كلّها!

– أنا قلتُ لكَ هذا الكلام؟!

– نعم، أنتَ!

– ولكن أنا لم أعرف في حياتي كلها امرأة بهذا الإسم... وفي شارع قرطبة، ومنذ أن فتحت عيني على العالَم في هذه المدينة قبل أربعين عاماً، لم يسبق لي أن رأيت بنسيوناً باسم روزالي، ولا سمعت عن وجوده، لا في ذلك الشارع ولا في أي مكان آخر من المدينة!

– "بلى!" صحتُ أنا.

للَحَظات، ظلّ ينظر إليّ مدهوشاً، ثم انخرط في ضحك عال. رفع الكهلان رأسيهما عن جريدتيهما وشرعا ينظران إليّ من فوق إلى تحت، ومن تحت إلى فوق. ثم لم يلبثا أن غرقا من جديد في قراءة جريدتيهما. وبعد أن كفّ عن الضحك، قال لي الجرسون رشيد:

– "جميل أن يكون للإنسان خيال بديع مثل خيالك.. ولكن اسمح لي يا سيدي أن اقول لكَ أنّكَ مخطئ على طول الخطّ!!"

أسْقط في يدي، فصمت. أما الجرسون رشيد فقد انصرف لخدمة زبائن كانوا قد دخلوا للتوّ وطلبوا زجاجة شمبانيا، لأن واحداً منهم، لم أتمكن من أن أميّزه، نجا بأعجوبة صباح ذلك اليوم ذاته من حادث خطير. أشعلتُ سيجارة وطلبت بيرة. رحت أردد: "لا بُدّ أن أهدأ!" مرات عديدة إلى أن هدأت قليلاً وخفّ انفعالي إلى حدّ ما. ولما وضع الجرسون رشيد زجاجة البيرة الثانية أمامي، قلت له، وأنا أحاول أن أرسم على وجهي ابتسامة لطيفة:

– إسمع يا عزيزي أبو الحسن... أنتَ حقاً رجل طيب وذكيّ وظريف... لذا أسمح لنفسي أن أطلب منك شيئاً!

– وما هو؟!

– أن تكفّ عن ممارسة لعبتك المؤذية معي!

– وما هي هذه اللعبة المؤذية؟!

– لقد أخفيتَ عنّي الحقيقة!

حقيقة ماذا؟!

– حقيقة هويّتكَ!

بنفس الهدوء، ومن دون أي نبرة إستياء في صوته، ردّ هو قائلاً:

– "إسمع يا سيدي... لقد قلتُ لك الحقيقة كاملة..وإذا ما أردتَ التأكد من ذلك فأنا مستعدّ أن أقدّم لك بطاقة هويتي. كما أنه بإمكانك أن تسأل هؤلاء الزبناء الذين على الكونتوار فهم يعرفونني جيداً!"

الوغد! إنه أشدّ حيلة ومكراً من ذلك البواب العجوز. الجرسونات لا يمكن الوثوق فيهم ولا الإعتماد عليهم أبداً لأنهم متقلّبُو الأطوار، بلا ضمير، ولا صديق لهم إلا من يدفع جيّداً. وحتى ذاك الذي يدفع جيداً هو صديقهم فقط عندما يكون أمامهم. فإذا ما اختفى إغتابوه، وحوله روّجوا أشنع الشائعات وأغرب الحكايات، ويبدو أن الجرسون رشيد متمرّس بمثل هذه الألاعيب. وبمهارة فائقة، وراحة بال لا مثيل لها، هو يمارسها. ومن المؤكد أنه أخفى هويّته عني مدعياً أنه لم يسبق له أن سمع باسم روزالي، طمعاً في الفوز بحبّها. وأنا كنتُ انتبهت إلى أنه يسعى إلى ذلك في المرة الماضية، عندما جئت إلى هنا قبل خمسة أعوام. وروزالي قالت لي اكثر من مرة بأنه يغار منّي، وبأنه لمّح لها أنني لا أستحقها، غير أنّي لم أعرْ مثل هذه الأمور اهتماماً كبيراً ليقيني بأن حبّ روزالي لي أقوى من كل المؤامرات الدنيئة. الوغد! ما كان عليّ أن أقترب منه وأسأله. ولكن... سأعثر على روزالي. حتماً سأعثر على روزالي أحبّ ذلك أم كره. ومتأبّطاً ذراعَها، سأمُرُّ معها أمام بار "النجريسكو" حتى أُثبتَ له أن حبال الكذب قصيرة. وربما أدعوها إلى كأس هنا... آه... ولكن هي تكره البارات مثلما تكره المقابر، ولا تشرب إلاّ قليلاً. كأساً أو كأسين نزولاً عند رغبتي، تحت القمر الناعس على برزخ البحرين، والبواخر تروح وتجيء بين العدوتين، وصوت تلك المغنية الشرقية يترنّح حزيناً كأنه مركب ضائع فوق مياه

دفعتُ ثم خرجت دون أن أحيي. في الشارع اشتدّ وجع رأسي واعترتني حالة من الغثيان، ربما بسبب البيرات الستّ التي شربتها دفعة واحدة دون أن أتناول شيئاً معها. حتى حبّات الزيتون التي وضعَهَا أمامي ذلك الجرسون الوغد رشيد لم ألمسها. من البولوفار، اشتريت سندويتشاً خفيفاً ثم توجهت إلى فندق "أطلس." حال وصولي إلى الغرفة، ارتميت على الفراش وغرقت في النوم حتى نهاية الظهيرة. وبعد أن أخذت دوشاً، انتعشت قليلاً، واستعدتُ شيئاً من حيويتي التي فقدتها في الشطر الأول من النهار، فقررت أن أتفسّح في المدينة العتيقة مثلما فعلت بالأمس. أسلمت نفسي إلى الشوارع الفارغة متوقفاً عند كل شيء يثير انتباهي: باب قديم. جدار مشقق. مسجد. ضريح وليّ. صبية تنشر الغسيل على السطح. قبل هبوط الليل بقليل، جلستُ في نفس المقهى الذي جلست فيه البارحة. كان هناك نفس الشيوخ الصامتين المتعبين. طلبتُ شاياً وحاولت أن أكمل القصيد الذي بدأته غير أني لم أستطع أن أكتبَ ولو بيتاً واحداً. في الساعة الثامنة والنصف عدتُ إلى الفندق عازما على أن لا أشرب كحولاً حتى أكون على أتمّ استعداد غدا لمواصلة البحث عن روزالي وأنا صافي الذهن. لكن في البار، لم أستطع مقاومة الرغبة في شرب كأسي ويسكي. بعدها تناولت حساء خضار في المطعم الشعبي الصغير المواجه للفندق. ثم صعدتُ إلى غرفتي راغباً في النوم مبكراً. غير أنّ النوم هجرني فظللت أتقلب ضجراً، مثقلا بالأسى حتى الساعة الثالثة صباحا. بعدها نمت نوماً عميقاً حتى الساعة العاشرة صباحا.

اليوم الثالث: وأنا أتناول فطور الصباح، تذكرت الحاج ميمون البقال الذي يقع دكانه على بعد بضعة أمتار من بنسيون روزالي. كما تذكرت أن روزالي تشتري منه دائماً كل حاجياتها. ودائما تقول لي إن الحاج ميمون رجل فاضل، لا يأتيه الشرّ لا من الخلف ولا من الأمام. وهو من عائلة ريفية أصيلة لها صلة قربى بعبد الكريم الخطابي، قائد ثورة الريف الشهير. وقد فكرت وأنا أحاول أن أنهي فطور الصباح بأقصى سرعة ممكنة أن الحاجّ ميمون هو المفتاح الأمثل للوصول إلى روزالي، إذ أنه ليس حقوداً مثل ذلك البواب العجوز الذي ينتقم من الشيخوخة بحرمان الآخرين من الحبّ، ولا مريضاً بالحسد والغيرة مثل ذلك الجرسون الوغد رشيد. الشيء الوحيد الذي يبتغيه الحاج ميمون، وهو في هذه المرحلة من العمر التي بات

فيها على بعد بضعة أشبار من القبر، هو كسب رضا الله ورسوله، ما عدا ذلك هو لا يبتغي شيئاً...

حالما انتهيت من فطور الصباح، توجهتُ إلى شارع قرطبة. وجدت الحاج ميمون واقفاً وراء الكونتوار وقد ارتدى جلابية بيضاء، ووضعَ على رأسه طاقية بيضاء أيضاً، وعلى صدره تدلّت لحيته التي ازدادت بياضاً. وسط الجبهة العريضة، اتسعت تلك البقعة السوداء الشاهدة على مواظبته الدائمة على الصلوات الخمس. أما الوجه فقد أشعّ بذلك النور الخفيّ. نور التقوى والرضى بما حققته النفس تجاه الحياة الدنيا وتجاه الآخرة...

سلمت عليه بحرارة، فردّ عليّ السلام بحرارة أيضاً.

– "أتذكرني يا حاج؟" قلتُ.

ومن دون أن يتمعن فيّ مثلما فعل بعض الآخرين، عندما طرحت عليهم هذا السؤال، ردّ قائلاً:

– "والله يا ولدي... في هذه المرحلة من العمر، لم يعد باستطاعتي أن أتذكّر حتى أقرب الناس إليّ... وذلك اليوم لم أتعرف على أحفادي إلاّ بمشقة كبيرة!

– "أنا صديق روزالي!" قلتُ.

– صديق من؟! (قال وهو يمدّ أذنه اليسرى باتجاهي)

– صديق روزالي!

– ومن تكون روزالي هذه؟!

– جارتك التي كانت تملك بنسيونا يحمل اسمها، ويقع على مائتي متر تقريباً من دكانك!

مذهولاً ظلّ ينظر إليّ، ثم قال، وطيف ابتسامة على شفتيه الغليظتين الرماديتين:

– إسمع يا ولدي... أنا لا أعرف امرأة بهذا الإسم. ولا أعتقد أن هناك بنسيونا بهذا الإسم أيضاً، على الأقل في هذا الشارع الذي أعرفه جيدا منذ ما يقارب الثلاثين عاما!

– ولكن أنا متأكد من أن روزالي كانت تملك بنسيونا في هذا الشارع، ذلك أنني سكنتُ فيه عندما جئتُ إلى هنا قبل خمسة أعوام. وكانت روزالي تحترمك كثيراً وتشتري منك جميع حاجياتها.

- عجبا!!

- حاول أن تتذكّر يا حاج... أرجوكَ!

قطب جبينه. أطرق إطراقة طويلة، ثم رفع رأسه وقال:

- لعلّك تقصد تلك الإسبانية التي كانت تملك هنا في هذا الشارع محلاً لبيع الزهور، والتي كانت تدعى... تدعى... تدعى... تدعى آه... تذكرت... تدعى مارسيدس... ولكن هذه السيدة ماتت قبل أزيد من عشر سنوات، وهي في أرذل العمر... أما أنتَ فتتحدث عن امرأة عرفتها قبل خمسة أعوام، وتملك بنسيونا، وليس محلاً لبيع الزهور... أليس كذلك؟!

- نعم يا حاج، واسمها روزالي وليس مارسيدس!

بنبرة المغلوب على أمره، ردّ قائلاً:

- يا ولدي... أنا أعرف فقط هذه السيدة التي تدعى مارسيدس..وقد كانت امرأة طيبة فرّت إلى هنا من فرانكو أيام الحرب..أما المرأة التي أنت تتحدث عنها فلا أعلم شيئاً عنها، ولم يسبق لي أن سمعت باسمها قطّ!

- "لا يمكن أن تكون أنت أيضاً قاسيا معي يا حاج!" قلتُ وأنا على وشك أن انفجر باكياً.

نظر إلي هو بشيء من الشفقة، ثم رفع سبابته إلى السماء وقال:

- الله شاهد على أنني قلت لك الحقيقة... ثم أية مصلحة لي في أن أكون قاسياً معك؟!

- لستُ أدري... ولكن أنا توسمت فيكَ الخير، وها أنتَ تخيب ظنّي مثل حارس العمارة، ومثل ذاك الجرسون الوغد رشيد!

تراجع الحاج ميمون بجذعه إلى الوراء مستاء، ثم قال بنبرة من يريد أن يؤكد لمخاطبه أن النقاش لم يعد مجديا معه:

- "إسمع يا ولدي... أعتقد أنه من الأفضل لكَ أن تبحث عن آخرين يساعدونك على العثور على هذه المرأة التي أنت تبحث عنها..أما أنا فلا حول لي ولا قوة... مع السلامة!"

- "مع السلامة!" قلت. ثم خرجت من هناك وأنا على أسوء حال. إنه عجوز متعب، وذاكرته لم تعد تتسع إلاّ للأموات. وعليّ ألاّ ألومه لأنه اعترف منذ البداية أنه لم يتمكن من التعرف على أحد أحفاده إلاّ بصعوبة. ولكن روزالي كانت تأتي إلى

دكانه يومياً لقضاء حاجياتها. وكانت تقدّره كثيراً. وهو أيضا. وأنا رافقتها العديد من المرات. وكان هو يطيل الحديث معها مهملا ومتناسيا الزبائن الآخرين. ودائما كان يقول لها إنّ الحيّ بدونها سيكون موحشاً وكئيباً. وكانت هي تلتذّ بسماع ذلك الكلام، خصوصا وأنه صادر عن الحاج ميمون، الرجل الصادق حسب رأيها، والذي لا يمكن أن يكذب أبداً. ولكن ها هو يكذب عليّ أنا مدعياً بدون أن يرف له جفن أنه لم يسمع باسم روزالي قط. إنه الجحود في أقبح مظاهره، ونكران الجميل في أبشع صورة له، وعدم الوفاء في أشنع شكل له. وعلى أية حال، ليس هذا أمرا غريباً ولا مفاجئاً. فالشيوخ الذين يبالغون في العبادة والتقوى ويحرصون على إبراز ذلك للناس، عادة ما يكونون مراوغين، ومحتالين، وناكرين للجميل، ومحترفي أكاذيب من الصنف الوضيع، ومقترفي ذنوب لا تحصى ولا تعدّ. وقد يكون الحاج ميمون راود روزالي عن نفسها، فلما صدّته، تآمر مع الآخرين لطردها من الحيّ، وربما من المدينة بأسرها. محتمل. كل هذا محتمل. وأنا لا بدّ أن أهدأ. لابدّ. وإلا فإني سأخسرُ المعركة مرة أخرى، وأعود مهزوماً، مثقلاً بالهموم إلى مدينة غربتي. ثمّ عليّ أن أخفّف من الشراب، لأنه أصبح يفقدني القدرة على التركيز، ويغلف ذاكرتي بسحابة قاتمة تجعلني عاجزاً عن التمييز بين الأزمنة، وبين من أعرف ومن لا أعرفُ من الناس، ويوتر أعصابي حدّ أنني أجد نفسي أحياناً مندفعاً لخوض معارك لا طائل من ورائها. وكنت أمشي على غير هدى بعد تركي لدكان الحاجّ ميمون حين انتبهتُ إلى أنني على بضع خطوات فقط من "أعمدة هرقل"، المكتبة التي تقتني منها روزالي مجلات الموضة والروايات البوليسية التي لا تمل من قراءتها أبداً، خصوصا روايات أغاثا كريستي ورايمون شاندلير وجورج سيمنون. وتحت تأثيرها، أحببتُ أنا أيضاً الروايات البوليسية، وصرتُ التهمها بمتعة لا مثيل لها. وأحياناً، تحت القمر، على سطح البنسيون، يقصّ كل واحد منا للآخر ما قرأه. وكانت روزالي تفعل ذلك بكفاءة مدهشة تبقي المستمع إليها مشدوداً من البداية إلى النهاية إلى كل كلمة تقولها. أما أنا فكنتُ أتلكّأ وأضطربُ، خالطاً بين الأحداث والشخصيات، الشيء الذي كان يثير سخطَ روزالي فتصيح فيّ غاضبةً: "يكفي... أنا لا أريد أن أذهب إلى الفراش وأنا مشوشة الذهن بهذه البلبلة!" تقول ذلك، ثم تمضي إلى غرفة نومها، وأظلّ أنا ألوك خيبتي وحزني على السطح، تحت القمر، ذلك أنّ الزمن وربما الشراب أيضاً فتّكا بواحدة

من أعظم طاقاتي، ألاَ وهي القدرة على القصّ والتي كنتُ أملكها امتلاكاً عجيباً في سنوات الطفولة والمراهقة في مدينة "قاف." وصاحبة مكتبة "أعمدة هرقل" سيدة فرنسية تُدعى صوفي جاءت، وهي في سنّ الخامسة عشر إلى مدينة روزالي التي كانت آنذاك منطقةً حرّةً فيها يتعايشُ فرنسيون وإسبان وطليان ويهود وبريطانيون وألمان وأمريكان. ومنذ البداية أحبّت المدينة، فلم تشأ تركَهَا بعد ذلك أبداً. وفي سنّ الثلاثين، فتحت السيدة صوفي مكتبة "أعمدة هرقل" التي أصبحت مع مرور الأيام أشهرَ وأفضل مكتبة في المدينة بأسرها. منها يمكن اقتناء كتب ومجلاّت باللغات الثلاث: الفرنسية والإسبانية والإنجليزية. وقد حرصت السيدة صوفي على تزيين جدران مكتبتها بصور لكُتّاب وشعراء زاروا مدينة روزالي أيام كانت منطقة حرّة أو بعدها، أو هم اختاروا الإقامة فيها هرباً من مدن الغرب الكبيرة، ومن العائلات المتزمتة، أو بحثاً عن المغامرة والمتعة في شتّى أشكالها وألوانها. ويحلو للسيدة صوفي أن تروي لزائري مكتبتها البعض من طرائف هؤلاء الكُتّاب والشعراء. تقول مثلاً إنّ صموئيل بيكيت كان يتناول فطور الصباح بصحبة زوجته سوزان في مقهى "الروكسي" لكن شرط أن يجلس كل واحد منهما بعيداً عن الآخر. ولا يقترب الواحد من الآخر إلاّ بعد أن يكونا قد أكملاَ الأكل وقراءة الصحف. وأما جان جينيه فكان يظهر فجأة في المدينة، ثمّ يختفي بنفس الطريقة التي ظهرَ بها، دون أن يتمكن أحدٌ من معرفة سرّ ظهوره واختفائه بمثل تلك السرعة. وكان حريصاً على أن يقيم دائماً في فندق "المنزه" الذي لا يرتاده إلاّ أصحابُ الجيوب الممتلئة. وعندما سأله أحدهم عن سبب اختياره لذلك الفندق، هو الذي عاش في الحضيض بين المحرومين والأشقياء، أجاب قائلاً: "أحبّ الإقامة في الفنادق الفخمة لكي أتسلّى بمشاهدة الأمريكيين والأمريكيات وهم يأكلون بصخب، كما لو أنهم يأكلون طائراتهم العملاقة!" وشوهدت جين بوولز في حيّ "القصبة" تركض تحت المطر باكية خلف عشيقتها البدوية مستعطفة إياها أن تعود، وإلا وضعتْ حداً لحياتها في الحين. وكان ويليام بوروز بقبعته الرمادية، ومعطفه المطري، ووجهه المسكون بالألغاز، يبدو شبيهاً بمفتش سري في الأفلام البوليسية القديمة. وكان يسير دائماً ملتصقاً بالحائط كما لو أنّه لصّ يختلس الخطى باتجاه الغنيمة. والبعض كانوا يسمونه "الرجل اللامرئي" لأنه كان لامرئياً بالفعل، إذ أنه بإمكان البعض أن يروه في الساعة الواحدة صباحاً في

"السوق الداخل" وبعد خمس دقائق فقط، يشاهده آخرون في "البولوفار"، وقد وقف مسنداً ظهره لأحد الجدران، يراقب حركة الناس والسيارات بعينيه الخاليتين من أي تعبير...

دخلت مكتبة "أعمدة هرقل" فاقبلت نحوي السيدة صوفي مرحّبةً:

- آ... أنتَ... أهلاً وسهلاً... لقد غبتَ طويلاً... !

- هل تتذكرينني؟!

- وكيف لا أتذكركَ؟!

أسعدني أن اسمع ذلك، فانحنيتُ في الحين لأطبع على يدها قبلة حارة طويلة...

- "أنا سعيد جداً أن أراكِ يا سيدة صوفي!" قلتُ.

- "وأنا أيضاً!" ردت هي.

تأملتها. لم تتغيّر البتة. لكأني رأيتها البارحة. دائماً أنيقة ومبتهجة بالحياة. وفي عينيها الزرقاوين يومض الحبّ. روزالي قالت لي إنّ عشاقها كثيرون وإنها تغيرهم مثلما تغير أحذيتها وفساتينها. وقد تكون على حقّ، ذلك أن الرجال لا يؤتمنون، مثلما قالت روزالي...

- "أنتَ تكتبُ أشعاراً... أليسَ كذلك؟" سألتني السيدة صوفي.

- نعم!

- وأظنّ أنّكَ حدثتني أيضاً عن مشروع رواية حول تيهك الطويل بين مدن الغرب...

- هذا صحيح!

- وهل انتهيتَ من كتابتها؟

- سأنتهي من ذلك عما قريب! (قلت ذلك وغصّة الكذب تكاد تخنق صوتي)

- هذا شيء بديع! سأكون سعيدة جداً أن أقرأ لكَ شيئاً ما ذات يوم!

- وأنا سأكون سعيداً جداً بسماع رأيكِ في ما أكتبُ!

- "أحدس أنه سيكون إيجابياً!" قالت باسمة، ثم أردفت:

- ألا زلتَ تعيش في تلك المدينة الألمانية؟

- نعم...

- لقد أطلتَ الإقامة فيها، أليسَ كذلك؟

- أنا مقيم فيها منذ عشر سنوات!

– أووه... هذا كثير!! وكيف استطعتَ أن تتحمل العيش بين قوم غلاظ شداد مثل الألمان؟! (قالت ذلك وهي تغضن وجهها تقززاً)

– أنا نفسي لم أجد تفسيراً لذلك!

– ربما لأنّ الأدبَ ينسيكَ كل شيء ويجعلكَ قادراً أن تصنع عالمكَ الخاص بكَ حتى عندما تكون بين أناس ترفضهم ويرفضونكَ...

– "ربما" قلتُ كاذباً بطبيعة الحال. وكان عليّ أن أقول لها إنني جئتُ فاراً من هناكَ، أملاً أن تنسيني روزالي الجميلة عتمة الغربة وجراحها وأوجاعها، وكان عليّ أيضاً أن أعترف لها بأن الأدب حلم يراودني منذ الطفولة غير أنه لم يتحقق، ولعله لن يتحقق أبداً، وإن الإشعار التي كتبتها على مدى الثلاثين عاماً التي مرّت قد تكون صالحة فقط لأن تُرْمى في صندوق الزبالة. لا. ليس في صندوق الزبالة لأنه من المحتمل أن يعثر عليها أحد المغرمين بنبش القبور وأكداس الزبالة ويحاسبني عليها حساباً عسيراً. ولكن تحرق حتى تصير رماداً فأنساها وتنساني. نعم. كان عليّ أن أقول لها هذا، غير أنني كذبتُ عليها مثلما تعودتُ أن أكذب على زهرة البريئة المسكينة مؤكداً لها في كل رسالة أبعث بها إليها أنني على وشك وضع نقطة النهاية للرواية التي أكتبها عن تيهي بين مدن الغرب. أما الرواية التي عن مدينة "قاف" فقد انتهيتُ منها. فقط بعض الرتوشات الطفيفة ثم أبعث بها إلى أحد الناشرين في القاهرة أو بيروت. وهي تكتب لي الرسالة تلو الأخرى مشجعةً إياي على مواصلة العمل لإنجاز أحلامي الأدبية الكثيرة التي طالَمَا حدثتها عنها سواء على شواطئ الضواحي الشمالية، أو في أزقة المدينة العتيقة. ومرات عديدة، طلبت مني أن أرسل لها فصولاً من الرواية لتقرأها وتعطيني رأيها فيها غير أنني لم أستجبْ لطلبها، وظللتُ أكرر الوعود الكاذبة إلى ما لا نهاية...

دخل فوجٌ من السياح الإسبان، فاعتذرتْ مني السيدة صوفي، ثم انصرفت لتلبية مطالبهم. رحتُ أطوف بين مختلف رفوف المكتبة، متوقفاً طويلاً أمام الكتب الجديدة، متصفحاً البعض منها، قاضماً من البعض الآخر فقرةً من هنا، وفقرة من هناك، متحيّناً الفرصةَ المناسبة للتحدث من جديد مع السيدة صوفي. غير أن المكتبة كانت تفرغ لتمتلئ من جديد. مكثتُ هناك قرابة الأربعين دقيقة. ولما تيقنتُ أنه يستحيل عليّ بسط موضوع روزالي على السيدة صوفي في وضع كذاك، حييتها مودّعاً، واعداً إياها بالعودة ثمّ انصرفتُ مصفراً لحناً جميلاً لفيروز، وبي رغبة في

أن أرقص هكذا في الشارع أمام الناس، لأن موجة عارمة من السعادة غمرتني فجأة، جارفة كل الهموم وكل الهواجس التي تراكمت عليّ خلال اليومين الأولين والنصف الأول من اليوم الثالث. رحتُ ألوم نفسي لأنني لم آتِ منذ البداية إلى مكتبة "أعمدة هرقل." ولو كنتُ فعلتُ ذلك منذ اللحظة التي تبيّن لي فيها أن بنسيون روزالي اختفى من الوجود، ومكانه انتصبت عمارة بشعة بشاعة الحداثة المزيفة لبلدان الجنوب، لكنتُ تجنبتُ كلّ ما حصل لي من متاعب وهموم. نعم كان عليّ أن أفعل ذلك عوض أن أضيعَ وقتي مع أناس تعوّدوا على الكذب والنفاق والتدليس وتزوير الحقائق جاعلين من الحبة قبّة، ومن القبة حبّة. وروزالي كانت تحذرني منهم دائماً وأبداً مؤكدةً لي أن ألسنتهم لا تنطق بالحقّ أبداً. وكيف تريدهم أن ينطقوا بالحق ما داموا قد فطموا على الكذب؟! كانت تقول. وهي على حقّ، ذلك أن كل واحد منهم يكذب على الآخر دونما حياء أو خجل أو تحفّظ. الأب على ابنه، والإبن على أبيه. الجدّ على أحفاده. والأحفاد على جدهم. الزوج على زوجته. والزوجة على زوجها. المعشوق على معشوقته. والمعشوقة على معشوقها. الإمام على المصلّين. والمصلون على الإمام. الحاكم على الرعيّة. والرعيّة على الحاكم. والكذب هو الفنّ الوحيد الذي لا يعرف الكساد أبداً في بلاد الشرق كلّها. وفي القرآن يتكرر فعل كذب ومشتقاته ٢٢٣ مرة! وإن كنت أحصيت ذلك عندما كنتُ أتردّد على الجامع الكبير في مدينة "قاف." والذي لا يتقن فنّ الكذب في بلاد الشرق يلقى به خارج القطيع، ويفرد إفراد البعير المعبد وذلك الجرسون الوغد رشيد اباح له الكذب الذي فطم عليه أن ينكر هويته. والشيخ ميمون يظهر الوقار والتقوى، ويحجّ العام تلو العام لإخفاء دجله على الناس. وروزالي التي لها قلب ملاك انخدعت به. وقد تكون دفعت الثمن باهضاً بسبب ذلك. وحارس العمارة العجوز؟ اخ!! إنه لا يستحقّ أن يذكر حتى ولو بسوء! أما السيدة صوفي فقد أقبلت نحوي هاشّةً باشّةً حالَما دخلت المكتبة. وبالرغم من أنها لم ترني منذ خمسة أعوام، فإنها احتفظتْ في ذاكرتها ببعض من خفايا حياتي. ومن المؤكد أنها ستبوح لي بسرّ روزالي دون أي تحفّظ واحتراز. ذلك أنها تعزّ روزالي كثيراً. وحين تراها، وعادة ما يحدث ذلك يومياً تقريباً، ترتمي في أحضانها كما لو أنها لم ترَهَا منذ زمن بعيد. وللسيدة صوفي مكانة خاصّة في قلب روزالي. ودائماً كانت روزالي تقول لي إنّ الحياة في المدينة تصبح بدونها غير محتملة...

بإمكاني أن أطمئنّ الآن!

وعليّ مستقبلاً أن أتحاشى الإقتراب من أولئك الذين لا يفلحون في شيء إلاّ في تعتيم طريق الخلاص والحبّ أمامي!

اليوم الرابع: في الساعة التاسعة والنصف صباحاً، كنتُ أمام مكتبة "أعمدة هرقل." مرّت أزيد من نصف ساعة دون أن تفتح. استغربتُ الأمر وخشيتُ أن تكون السيدة صوفي قد سافرتْ إلى مكان بعيد، أو أُصيبتْ بوعكة صحيّة أجبرتها على المكوث في الفراش. غير أنّ البابين المغلقين للبنكين الواقعين بمواجهة المكتبة نبهاني إلى أن اليوم قد يكون يوم أحد... آ.... منذ أن غادرت مدينة غربتي وأنا لا أعير أيّ اهتمام يذكر للأيام وللتواريخ، ولا أشعر بأدنى ضرورة لذلك. وحتى في مدينة غربتي، يحدث أحياناً أن أنتزع من ذهني الأيام والشهور والساعات، وأبقى هكذا ساكنا خامداً مثل ساعة معطلة...

ذهبتُ إلى "السوق الداخل." الإزدحام شديد وأصوات الباعة تملأ الفضاء. أصوات مفعمة بذلك التفاؤل الذي يحتفظ به فقراء الناس حتى في أحلك الساعات والظروف. شققت طريقي بصعوبة وسط الجموع الغادية والرائحة ساعياً لنيل شيء من المتعة من خلال الإلتصاق أكثر ما يمكن بأجساد النساء المترجرجة في الجلابيات الملونة. ثم لم ألبث أن تخليت عن ذلك خشية أن تفاجئني روزالي التي تعشق الطواف في "السوق الداخل" أيام الأحد، وأنا في ذلك الوضع المشين فتُوصدُ أبواب قلبها دوني وأموت حسرةً ويأساً. عند دخولي إلى سوق الخضار، انتبهت إلى أن فتى مراهقاً، قوي العضلات، يرتدي أسمالاً بالية وقذرة، يتبعني وعيناه على جيبي. وأنا أشتري بعض الفواكه، همس لي البائع محذّراً: "دير بالك! فالنشالون تكاثروا مثل الذباب هذه الأيام!" بعدها جلست في مقهى بمواجهة ساحة صغيرة تحيط بها محلاّت بائسة للوجبات السريعة. في وسطها وقف أطفال وفتيان مراهقون ينظرون إلى الساندويشات المعروضة وإلى الذين يأكلون، بعيون كبر فيها الجوع واتسع حتى غدا صورة للجسد كله، لحماً وروحاً. في الأركان تكدّس آخرون هكذا على الأرض متوسّدين أذرعتهم وعلى وجوههم الوسخة آثار التعب والحرمان. تذكرت الكاتب العاري الذي تعلّم القراءة والكتابة وهو على عتبة سن العشرين، هو أيضاً عاش مثل هؤلاء المراهقين. في الفجر، يهرع إلى الميناء أملاً في

الحصول على بضعة دراهم من خلال مساعدة المسافرين على حمل أمتعتهم. غير انّه لكثرة الفتيان الذين يمتهنون نفس المهنة، كان أحياناً يمضي النهار بطوله دون أن يضع درهماً واحداً في جيبه. بداية الليل، يطوف في الأحياء الراقية باحثاً في مزابلها عما يمكن أن يسدّ الرمق. وعندما تهجع المدينة، يأوي إلى مقبرة أو إلى ساحة صغيرة مثل هذه الساحة أو إلى رصيف مقهى أو إلى محطة القطارات أو إلى الشاطئ عندما يكون الطقسُ دافئاً لينام. وكثيراً ما استيقظ مرعوباً ليجدَ فوقه شخصاً خشناً يحاول اغتصابه. وفي سنوات المجاعة الكبرى التي ضربت البلاد قبيل الحربِ العالمية الثانية، والتي لم يكن فيها الإنسان يتورع عن قتل إنسان آخر بنفس البساطة التي يقتل بها نبابة من أجل قطعة خبز يابسة، عثر على دجاجة ميتة. أخفاها تحت أسماله، وانسلّ إلى مكان في أقصى المدينة خال تماماً من البشر. وهناك أوقد ناراً، ووضع عليها الدجاجة بعد أن نتفَ ريشها ثم قعد يراقبها وهو في غاية السرور والسعادة. فجأة أحاط به أربعة فتيان أشداء وهددوه بالذبح إنْ هو لم يترك المكان حيناً. وكان عليه أن ينصاع إلى أمرهم. من بعيد، وقف يراقبهم وهم يلتهمون الدجاجة وفي نفسه مرارة لا تضاهيها غير تلك التي أحسّ بها يوم مات أخوه الأصغر أمام عينيه جوعاً. وكان ذلك قبل بضعة أشهر. وفي نهاية الحكاية قال لي وطيف ابتسامة شاحبة على شفتيه: "قد يكون ذلك اليوم أشقى أيام حياتي كلها!" آه... الكاتب العاري! هكذا أنا أحبّ أن أسميه. إنه شخص مثير للاهتمام حقاً. وأنا أحببت جميع ما كتبَ عن سنوات جوعه وتشرده. كل كلمة من كلماته تبدو وكما لو أنها مجترحة من ألمه ومن عذابه ومن جسده الذي أنهكه الجوع والشقاء. قليلون في بلاد الشرق من هم قادرون أن يكونوا صادقين مثله. أغلبهم تجار كلام، وبائعو شعارات. وحين أقرأ ما يكتبون، أجد لغتهم مزيفة وكاذبة ومحنّطة مثل خطب حكام الشرق المستبدين. والكاتب العاري ارتاح كثيراً عندما قلت له إن تقارير الشرطة في بلاد الشرق أهمّ وأنفع وأصدق من مؤلفات كتابها وقصائد شعرائها. لا بدّ أن التقي الكاتب العاري. ولكن ليس الآن. عندما أعثر على روزالي سأدعوه للعشاء في مطعم "فالانسيا" الذي يحبه كثيراً. نعم... سأفعل ذلك وستكون روزالي جدّ سعيدة بلقائه، وبطرح أسئلتها الذكية عليه، مثلما اعتادت أن تفعل في المرات التي التقيته فيها قبل خمسة أعوام. وبالرغم من انه تربّى على الأرصفة وفي الشوارع الخلفية، فإن الكاتب العاري يمتلك كياسة

وظرافة من تربوا في ريش النعام. فهو يقبل يد روزالي في بداية اللقاء وفي نهايته، ويجيب على أسئلتها بلباقة الأمراء وخفة روحهم...

آخر الظهيرة، توجهت إلى الشاطئ. الطقس جميل. العدوة الأندلسية واضحة للعيان. على الرمال يلهو أطفال وفتيان مراهقون، وثمة كهول وشيوخ يتمشون بتأدة، وهم مستغرقون في التأمل. جلست على الرمل. ظللت هناك إلى أن اختفت الشمس خلف العدوة الأندلسية. بعدها، على مهل، تمشيت قليلاً في البولوفار الذي كان مزدحماً بالمارة ثم توجهتُ إلى المطعم الشعبي الصغير المواجه للفندق حيث تناولت طاجين سمك لذيذاً جداً. وكان في نيتي أن أصعد إلى غرفتي لأقرأ قليلاً ثم أنام، غير أن صاحب الفندق الذي وجدته يدخن نارجيلة في البهو، دعاني للجلوس فجلست قدامه. طلب لي شاياً منعنعاً، ثم بدأ يدردش. قال لي إنه يعتقد أنني أحسن حالاً من الأيام الماضية، ثم سألني :

– ما الذي كان يشغلكَ خلال الأيام الماضية؟

– لقد كنتُ متعباً من السفر. قلت.

– هواء مدينتنا صحي للغاية..وهذا ما أكده لي طبيب صديق... وبعد أسبوع سوف تلمس النتيجة بنفسك..حاول أن تستمتع بوقتك كما ينبغي حتى إذا ما عدتَ إلى هناك عدتَ وأنتَ في صحة جيدة، ومعنويات مرتفعة "!قال.

– "سأفعل ذلك!" قلت...

بعدها شرع يحدّثني عن أحوال المدينة. قال لي إنّ عدد السياح تراجع بنسبة مخيفة خلال الأعوام القليلة الماضية. والسبب..؟ كل حرب تشتعل في أي مكان من بلاد الشرق، ندفع نحن ثمنها.. أمس حرب الخليج.. واليوم حرب الأشقاء في البلد المجاور الذي يذبحون بعضهم بعضاً باسم القرآن، في حين تزداد أحوالنا نحن سوءاً يوماً بعد يوم، دون أن نعرف ماذا علينا أن نفعل والحكام يقولون لنا اصبروا وستنفرج الأحوال. غير أنّ الأحوال لا تنفرج.. وعدد الفقراء والعاطلين عن العمل يزداد ارتفاعاً بشكل مرعب. والناس أصبحوا يلقون بأنفسهم في البحر كلّ يوم أملاً في الوصول إلى العدوة الأخرى التي تبدو لهم وكأنها الجنة الموعودة. وجرائم القتل والسرقة والإغتصاب أصبحت أمراً مألوفاً كما لو أننا في صقلية أو شيكاجو. المستفيدون الوحيدون من هذا الوضع هم تجار المخدرات. الفيلات الأنيقة التي تنتصبُ في الأحياء الجديدة والفنادق والمطاعم والمراقص الفخمة التي

على طول الشاطئ، أو داخل المدينة أصبحتْ ملكهم. وأنا لا أستبعد أن تصبح كل مفاتيح المدينة في أيديهم بعد سنوات قليلة... أما نحن فلا نملك غير الصبر!

ثم روى لي صاحب الفندق قصة جريمة غريبة اقترفت قبل سنوات، غير أنه لم يتمّ الكشف عن مرتكبها إلا قبل بضعة أسابيع. ومنذ وصولي إلى المدينة لاحظتُ أنّ الناس في جميع الأماكن التي ترددت عليها أو مررت بها، يستفيضون في الحديث عنها... مراد شاب وسيم، أنيق، ذكي، يتمتع بمواهب متعددة ويمتلك ثقافة عالية ورِثَها عن والده الذي كان شاعراً مجيداً مقرباً من البلاط الملكي. وخلال العشرة أعوام الماضية، أصبح مراد من أشهر وألمع المذيعين والمنشطين الإذاعيين في البلاد كلها، وبات المعجبون والمعجبات به يعدّون بالملايين. وقد تزوج مراد من فتاة فائقة الجمال من عائلة ميسورة، تدعى سامية، كانت قد درست في باريس وعادت لتشغل وظيفة مرموقة في إحدى المؤسسات. وفي البداية، عاش الزوجان حياة هانئة لا يعكر صفوها أي خلاف. وكانا يحضران الإحتفالات والسهرات التي تقام في المدينة وعلى ملامحهما ألقُ السعادة والهناء. ومعا كانا يسافران إلى باريس وروما ومدريد ولندن وإلى العديد من المدن الكبيرة الأخرى. وعندما أنجبا بنتاً وولداً ظنّ الناس أن سعادتهما اكتملت بذلك. لكن فجأة، تحولت حياتهما إلى جحيم لا يُطاق. فقد أصبحت سامية تخون زوجها في وَضَح النهار، وتسهر حتى الصباح في الفنادق والمراقص غير عابئة به. وفي إحدى الحفلات صاحت فيه أمام الجميع: "أنتَ لستَ رجلاً حقيقياً، ولابدّ أن تخجل من ذلك!" وزملاؤه في العمل ذكروا أنها كانت تضربه في الليل، ذلك أنه جاء إلى مكتبه أكثر من مرّة، بخدوش في وجهه، وببقع زرقاء حول عينيه. ولم تكتف سامية بذلك، بل سافرت مع أحد عشاقها إلى جزيرة إيبيزا ومكثت هناك أزيد من أسبوعين دون أن تهتف سائلة عن حال زوجها أو عن حال ابنيهما. ولأنه يحبها حبّاً جنونياً، فإن مراد ظلّ يتحمّل كل ذلك مدة ثلاث سنوات تقريباً. وفي بارات المدينة التي أصبح يكثر من التردد عليها، شاهده الناس يبكي بكاء الأطفال بسبب القهر والإهانات التي كان يتعرّض لها يومياً نتيجة سلوك زوجته. ذات ليلة عاصفة عاد إلى شقته وهو فاقد الصواب من شدّة السكر، ليجدَ زوجته بين أحضان أحد عشاقها. وقبل أن يفتح فمه للإحتجاج على ذلك، تركته وانصرفت لتكمل السهرة في مكان آخر. مرّ يومان. عاد مراد إلى الشقّة متأخراً وسكران كعادته، فوجدها نائمة وعلى

الطاولة ورقة صغيرة تقول فيها إنها تعتزم السفر صبيحة اليوم التالي إلى لشبونة لقضاء أسبوع هناك. وببرودة دم لم يعهدها من قبل، أخذ سكيناً من المطبخ، ونبحها من الوريد إلى الوريد، ثم قطعها إلى أجزاء، ودفنها في حوض الزهور الكبير الموجود في البلكون. ومنذ اليوم التالي، بدأ يُشيعُ أنّ زوجته سافرت إلى أوربا لمدة غير معلومة. ولكي يسكت السنة المتشككين، كان يبرز بين وقت وآخر رسالة عليها طابع بريد أجنبي ليقول إن زوجته أرسلتها إليه من باريس أو من جنيف أو من فلورنسا أو من أي مكان آخر. والشيء الذي دعم أقواله تلك، وجعل أغلب الناس بما في ذلك رجال الشرطة يصدقونه هو أن المؤسسة التي تعمل فيها سامية أكدت أن هذه الأخيرة طلبت قبل أسبوعين من اختفائها إجازة بسنة، وأن الإدارة قبلت طلبها. كما أن مراد بدا هادئاً، واثقاً من نفسه تمام الوثوق. بل إنه قلّل من الشراب مستعيداً تلك الحيوية التي فقدها في فترة انطفاء السعادة الزوجية حتى ان أغلب الناس ظنوا أن الوئام بينه وبين سامية قد عاد على أفضل ما يكون. في الليل، خصوصاً في الأوقات الدافئة، يجلس مراد في البلكون أمام حوض الزهور حيث ترقد زوجته القتيلة، ثم يشرع في الغناء والعزف على العود. ويظل على هذا الحال حتى ساعة متأخرة من الليل. والذين سمعوا تلك الأغاني، لمسوا في صوت صاحبها حزناً عميقاً، وجرحا مفتوحاً، وروحاً معذّبة، ونفسا قلقة. وإذا ما كان أغلب الناس ورجال الشرطة قد صدقوا مراد وظنوا أن سامية قد تكون ابتعدت بحثاً عن المسافة اللازمة لاستعادة حبها لزوجها، فإن مفتشاً في قسم الإجرام بدائرة الأمن العام استقبل أقواله وتصريحاته بكثير من الشك والريبة. ومن دون أن يخبر أحداً بالأمر، شرع يراقب حركاته وسكناته مستعيناً بالخادمة التي كانت تعمل عنده. وذات يوم أخبرته الخادمة أنّ مراد عند جلوسه في البلكون، يأخذ أحياناً في لوم زوجته، مؤنباً إياها على خياناتها المتكررة له، مؤكداً لها أنه لم يكن ينوي أن يفعل شرّاً، غير أنها هي التي أجبرته على ذلك. بعدها ينخرط في البكاء. وأكدت الخادمة أنها استيقظت أكثر من مرة بسبب ذلك، ظانّة أن سامية موجودة بالفعل في البلكون! ليلة اليوم ذاته، مصحوباً بمساعدين له، طرق المفتش باب شقة مراد فاستقبلهم بترحاب كبير وقدم لهم القهوة والحلويات. ولما سألوه عن أحوال سامية أخبرهم أنها بخير وأنها أرسلت له رسالة قبل ثلاثة أيام فقط. طلبوا منه الإطلاع على الرسالة فشرَعَ يبحث عنها هنا وهناك مضطرب

الحركات، شاحب الوجه، ثم اعتذر قائلاً بأنه قد يكون أضاعها وأنه ليس من عادته الإحتفاظ بالرسائل.

– "هل بإمكاننا أن نطلع ولو على رسالة واحدة من رسائلها السابقة؟" قالوا.

– "نعم... نعم... بإمكانكم ذلك!" قال وقد ازداد شحوباً واضطراباً، ثم أضاف قائلاً:

– ولكن يبدو أنه من الصعب العثور عليها، لأنني لا أعرف بالضبط أين وضعتها..وأعتقد أن البحث عنها سوف يستغرق وقتاً طويلاً!

– "بإمكاننا أن ننتظر الليل كلّه!" قالوا .

– "طيب... طيب!" قال مراد، ثم شرَعَ يبحث في جميع أنحاء الشقة. في الصالون. في المكتبة. في غرفة النوم، وفي بقية الغرف الأخرى. وحتى في المطبخ. بعدها عاد ليقول:

– المعذرة... يبدو أنني أضعتها جميعاً!

عندئذ قال المفتّش:

– إسمع يا مراد... الأفضل لكَ أن تعترف!

ظلّ مراد جامداً لحين، ثم قال بصوت منطفئ:

– أعترف بماذا؟!

– "بأنّكَ أنتَ الذي قتلتَ زوجتَكَ!" ردّ المفتّش.

– "أنا الذي قتلتُ زوجتي؟!" صاح مراد، وهو يرجف.

– "نعم..أنتَ الذي قتلتَ زوجتَكَ!" قال المفتّش.

– "هذا هراء!" صاح مراد ثانية.

– "ليس هراء يا سيّد مراد... وإنما هي الحقيقة بعينها. وإذا ما أردتَ دليلاً أكثر وضوحاً فإنه بإمكاننا أن نقول لكَ أين دفنتها!" ولم يكن المفتش يعرف ذلك، لكنه قرر أن يغامر بكل شيء..

ظلّ مراد شاخصاً، وقد خلا وجهه من أي تعبير، حتى بدا شبيهاً بقناع، ثمّ انهار على الكرسي، وهو يقول:

– تعرفون حقاً أين دفنتَها؟!

– "نعم..نعرف جيداً ذلك!" ردّ المفتش .

انخرط مراد في بكاء طويل... بعدها أدلى باعترافاته كاملةً...

صمتَ صاحب الفندق. أخذَ نَفَسَين من نارجيلته، ثم قال:

– إنّ كيد النساء عظيمٌ يا سيد ميلود... أليسَ كذلك؟!

– "ليس كلهن!" قلت.

– "لا، كلهن.. وكلهن قحاب!" ردّ بنبرة قاطعة.

أوشكتُ أن أسأله: "بما في ذلك زوجتك؟!" غير أنني أمسكتُ لساني، إذ أنني تذكرتُ أن الرجال في الشرق يعتقدون أن كلّ النساء قحاب، ما عدا زوجاتهم وجداتهم وأمهاتهم وبناتهم وعماتهم وخالاتهم. أليسَ الأقربون أوْلَى بالمعروف دائماً وأبداً؟! كما جاء في الحديث.

اليوم الخامس: كنتُ أول من دخل مكتبة "أعمدة هرقل." لم تكن السيدة صوفي هناك. سألت عنها مُساعدتَها، وهي امرأة سمينة، صارمة الملامح، قصيرة القامة، فأخبرتني أنها سافرت إلى الدار البيضاء، وأنها لن تستأنف العمل إلاّ بعد يومين، أي صبيحة يوم الخميس. اشتريت جرائد وجلستُ في مقهى "باريس" الواقعة على الخط الفاصل بين المدينة العتيقة والمدينة العصرية. طلبت عصير برتقال، ثم غرقت في قراءة الجرائد. أتيت على أهمّ المقالات فيها. توقفت طويلاً عند مقال يتحدث عن الحرب الدائرة في البلد المجاور بين الجيش والملتحين. ويقول صاحب المقال إن المثقفين يُقتلون هناك بالعشرات، ويعترف أنه لم يفهم سبب ذلك خصوصاً وأن المثقفين، حسب رأيه، لا مسؤولية لهم في الكارثة التي حدثت في البلاد. بل لعلهم كانوا أول من حذّر من إمكانية وقوعها. وبسبب ذلك هم دفعوا الثمن غالياً، سجناً ومنفى وقهراً وملاحقات. وكان على صاحب المقال أن يدرك أن قتل المثقفين ليس ظاهرة جديدة ولا مفاجئة، وإنما هي خاصية أساسية في تاريخ الشرق القديم والحديث على حدّ السواء. وقائمة الذين شنقوا وصلبوا ومُثّلَ بهم وضربت أعناقهم بالسيف وفجرت رؤوسهم بالرصاص، وأحرقوا هم ومؤلفاتهم، طويلة جداً. ونهر الدم أطول مسافة من نهر النيل... السيف... السيف... لا تتركوا أحداً..! كان ذلك الحاكم يقول. وحدث شاعر في عصر ما قائلاً: "نتفوا شعري. نهبوا بيتي. حتى زوج حمام كان يروّح عني، أخذوه مني!" و"أحمى سفيان تنّوراً كي يطعم لَحْمَ الكاتب للجمر اللاّهب: قطّعه إرباً إرباً ورماه فيه." وشبه أحد الرواة أيامَ الشرق بأفراس تائهة بين رؤوس القتلى... وبعد كل هذا، يزعم صاحب المقال أنه لم يفهم سبب إصرار الملتحين على سفك دماء المثقفين في البلد المجاور.!!

تركتُ مقهى "باريس" ونزلتُ المدارج الحجرية التي تفضي إلى "السوق الداخل." وهناك حدث ما يلي: شيخ وقورٌ بجلابية بيضاء من الصنف الرفيع في حوالي السبعين من العمر، واقف يشتري فواكه. ولمّا مدّ للبائع ورقة بمائتي درهم، برزت من وسط الجموع الغفيرة مراهقة بشَعَر جعد قصير، وعينين مغوليتين، وشفتين غليظتين مشققتين، ووجه مدوّر مرتسمة عليه تلك الوقاحة التي تطبع وجوه الأشقياء والمجرمين، وهجمت عليه شاهرة سكيناً. وبسرعة فائقة، اختطفت منه ورقة المائتي درهم. ودائماً شاهرة سكينها، لانت بالفرار غير أن المارة تمكنوا من القبض عليها وتجريدها من السكين قبل أن تقطع مسافة خمسين متراً، ثم راحوا يضربونها ويبصقون عليها ويركلونها بأحذيتهم إلى أن جاءت سيارة الشرطة وأخذتها. راقب الشيخ الوقور المشهد من البداية إلى النهاية بلامبالاة تامة، وكأن الأمر لا يعنيه. ولما طلب منه أحد رجال الشرطة مرافقته إلى المركز للإدلاء بشهادته، اعترض على ذلك قائلاً: "بإمكانكَ أن تسأل كل هؤلاء الذين حولكَ عما حدث، فهم ملمون بجميع تفاصيله. أما أنا فلم يعدْ في عمري وقت أضيعه في الإدلاء بشهادات ضد المجرمين والمجرمات!" ثم انصرف بهدوء. أما بائع الفواكه فقد علّق على ماَ حدثَ قائلاً: "إنها علامةَ من علامات الساعة أن نرى البنات يهجمن على الرجال بالسكاكين في الشارع العام، وعلى مرأى ومسمع من الجميع!"

بعد الغداء، نمت قرابة الساعتين، ثم أخذت دشّاً ونزلت إلى بار الفندق. وجدته فارغاً إلاّ من الجرسون الأهتم الذي أخبرني أن الكاتب جاء إلى هناك في الصباح مصحوباً بسيدة إسبانية. شربت كأس ويسكي، ثم توجهتُ إلى الشاطئ عبر شارع متعرج كان يمكن أن يكون جميلا غير أنه كان وسخاً، مشوه الملامح بشكل يثير السّخط والقرف. قطط ميتة. زبالة مكدسة هنا وهناك. زجاجات بلاستيك ملقاة على الرصيف. روائح نتنة. جدران مشققة. وقد لاحظتُ أن أغلب شوارع المدينة على مثل هذا الحال تقريباً. أهل الشرق يتلفون كل ما هو نبيل في قيمهم وتقاليدهم. وها هم يغتالون ويفسدون ويشوهون أجمل مدنهم وأكثرها عراقة. تكدرت نفسي وفكرت أن روزالي قد تكون تركت المدينة بسبب ذلك. خطأي هو أنني لم أكتب لها ولو رسالة واحدة. ولو كنتُ فعلت ذلك، لتجنبت هذه البلبلة. وقبل أن أغادرها، كنتُ وعدتها بأنني سأواظب على كتابة رسائل لها، وإحاطتها علما بكل

ما يطرأ على حياتي. ولكن أنا صاحب الوعود الكاذبة، لم أف بالوعد، وظللت أؤجل الأمر على مدى خمسة أعوام كاملة محاولاً أن أقنع نفسي بأن الرسائل إلى روزالي لا تفيد وأن ما هو مفيد حقاً هو الذهاب إليها، واحتضانها تحت القمر على الخط الفاصل بين الشرق والغرب... غير أني أعتقد أن السيدة صوفي سوف تزيل هذا الغمام المتراكم من حولي، وسوف تهديني إلى روزالي. نعم. ستفعل. لا ريب في ذلك! وأنا سأهديها هذا القصيد الذي يأبى أن يكتمل، غير أنه سيكتمل حقاً حينما أكون بين أحضان روزالي...

قرب الشاطئ، اطلع عليّ شاب في ملامحه الشرّ:

– "هل أنتَ ليبيّ؟" سألني.

حدجتُهُ بنظرة قاسية فابتعد على عجل. ليبي؟! ولماذا يظنّ أنني ليبي...؟! تذكرت أحد أصدقاء الكاتب العاري قال لي المرة الماضية عندما كنتُ هنا قبل خمسة أعوام أن الليبيين أصبحوا يكثرون من المجيء إلى المدينة بسبب كثرة المومسات فيها. وقال لي أيضاً إن الليبيين يأتون جياعاً إلى الجنس ظامئين إلى الشراب، لأن حاكمهم لا يقدم لهم شيئاً غير شعارات الوحدة العربية مرة، والوحدة الأفريقية مرة أخرى، في حين اختار هو أجمل عذراوات البلاد ليكُنّ حرسه الشخصي. أوف..إنه كارثة حقيقية هذا الحاكم!! ولكن ما شأني أنا بكل هذا؟! ما يهمني هو العثور على روزالي في أقرب وقت ممكن حتى تستقيم أحوالي وتنتهي هذه الكوابيس التي تعذبني وتنهش روحي. أما تلك الشعوب التي حكم عليها أن تعيش ذليلة مقهورة حتى النهاية، فأنا لا أتمنى لها غير المزيد من الذل والقهر. أليس هذا مبدئي منذ أن خدعتني نادية الجميلة وفرت إلى بيروت؟!

دخلت بار "لابارجولا" بار جميل جئته العديد من المرات بصحبة الكاتب العاري عندما كنت هنا قبل خمسة أعوام. صاحبه رجل ظريف، فقد كل أسنانه بسبب الحشيش والشراب. وهو لا يتعب من سماع عبد الوهاب وأسمهان وأم كلثوم. سألت عنه الجرسون الذي استقبلني فقال لي إنه مزكوم. ثم سألني:

– أنت صديق الأستاذ... أليسَ كذلك؟

– الأستاذ؟! أي أستاذ؟! قلتُ.

– الأستاذ... الأستاذ... أنسيته؟! ردّ هو وعلى وجهه ملامح الإستغراب. عندئذ تذكرت أن "الأستاذ" هو لقبٌ من ألقاب الكاتب العاري. وهو يلقب أيضاً

بـ"الشحرور الأبيض..." آ... القابه كثيرة الكاتب العاري. وجميعها تناسبه. وفي البداية كنت أعتقد أن "الأستاذ" لقب لا ينسجم معه. وعندما قلت ذلك لأحد أصدقائه، ردّ قائلاً: "ولِمَ لا..أليس أستاذا في تجارب الحياة الشقية؟!" وكان على حقّ. أما أنا فأفضل أن أسميه الكاتب العاري لأنه لا يشبه كتاب الشرق في شيء.. لا في السلوك ولا في الكتابة. الآخرون ديكة تنتف ريش بعضها بعضاً، وتتقاتل من أجل الشهرة. أما هو فمتوحد بذاته هنا على الخط الفاصل بين الشرق والغرب، قانعاً بحياته البسيطة في تلك الشقة الصغيرة التي على سطح عمارة في شارع "تولستوي.."

طلبت ويسكي. العدوة الأندلسية واضحة للعيان مثل أمس. طيور النوارس تحلق على صفحة الماء. البواخر تروح وتجيء... إنها لسعادة حقيقية أن يجلس الإنسان أمام البحر. أما سعادتي أنا فلن تكتمل إلا بالعثور على روزالي...

حول الطاولة التي على يميني خمسة كهول كأنهم ثيران متخمة يأكلون ويشربون ويدخنون بنهم. معهم مومسات سمينات بشعات كوّمن على وجوههنّ المتورمة كميات هائلة من المساحيق. بين الحين والحين، يغني لهم ذلك المغني الذي ذكر لي الكاتب العاري المرة الماضية أنه كان صديقه في أيام التشرد والجوع، أغنية لعبد الوهاب أو أم كلثوم أو فريد الأطرش فيرتفع ضجيجهم، ويكثر زعيقهم وصخبهم، ويأخذون في التصفيق مرددين معه مقاطع من الأغنية التي يغنيها، محركين رؤوسهم الصلعاء الضخمة ذات اليمين وذات الشمال. ولما رقصت إحدى المومسات ازداد هيجانهم، وانغرست عيونهم المحمرة بسبب الشراب على نصفها الأسفل. الكاتب العاري حدثني كثيراً عن المغنّي. قال لي إنه تعرّف عليه في سنة المجاعة الكبرى، ومعه نام في المقابر وعلى الأرصفة وأكل من المزابل. وعندما اكتشف أن له صوتاً جميلاً، أخذ يطوف بين المقاهي مردداً الأغاني المشهورة في ذلك الوقت، فيكسب ما يسدّ الرمق ويستر الحال. وعند بلوغه سن الثانية عشر، عشقته عجوز إسبانية في حوالي الستين من عمرها، فأخذ ينكحها مقابل ما يكفيه لمدة أسبوعين أو أكثر. وقد ذكر لي الكاتب العاري أن المغني كان كريما جداً معه، وأنه أنقذه من الجوع أكثر من مرة. كما ذكر لي أنه كان وسيماً حتى أن البعض كانوا يسمونه "جيمس دين." أما الآن فقد فَقَدَ أسنانه وَشَعَرَه وأضحى جلداً على عظم. وفي المرة الماضية لاحظت أن الكاتب العاري لا يتبادل الحديث أبداً مع

المغني. ولما سألته عن سبب ذلك، قال لي: "لقد تحدثنا كثيراً في طفولتنا وشبابنا... أما الآن فأعتقد أنه لم يعد للواحد منا ما يقوله للآخر!"

عدت إلى الفندق في الساعة الحادية عشر ليلا. دردشت قليلاً مع صاحبه ثم صعدتُ إلى غرفتي، وظللتُ أقرأ حتى الساعة الثانية والنصف صباحاً...

اليوم السادس: لا أخفي أنني شعرتُ وأنا أسير باتجاه "السوق الداخل" عبر الأزقة الملتوية برغبة جامحة في أن يتكرر حادث الأمس شرط أن يسيل الدم ولو قليلاً! إنني إنسان مسالم. مع ذلك أعترف أن مشاهد العنف تثيرني وتمتعني. لذلك أنا أعشق كل الأفلام العنيفة خصوصا أفلام "مارتين سكورسيزي." وأعتقد أنني شاهدت فيلم "كازينو" أزيد من عشر مرات، ودائما بنفس المتعة. ليس فقط بسبب كثرة القتلى والدماء المراقة، وإنما كذلك بسبب "شارون ستون" التي تثيرني حدّ الحمى خصوصاً عندما تُنكحُ من الخلف وهي منحنية. أفلام الويسترن تروق لي كثيراً هي أيضاً. والشيء الذي أبهجني غاية الإبتهاج هو أنني قرأتُ ذات مرة أن بورخيس، وهو واحد من أحبّ الكتاب إلى نفسي، كان مفتوناً بأفلام الويسترن. وقد ظل مفتوناً بها حتى بعد أن فقد بصره. وربما هي التي أوحت له بتأليف كتابه الرائع "التاريخ الكوني للجريمة الفظيعة." وما أظن أنه بإمكاني أن أحصي عدد المرات التي شاهدت فيها فيلم "حدث ذات مرة في الغرب" للإيطالي سارجيو ليوني. المؤكد أن ذلك يتجاوز العشرين مرة. ودائماً بنفس الشوق واللهفة خصوصا للمشهد الأول... مشهد انتظار الرجال الخمسة بقبعات ومعاطف ترابية اللون تصل إلى الكاحلين في محطة مهملة وسط العراء لرجل غامض يصل في القطار الذي كان على وشك القدوم. هم ينتظرون صامتين تحت الشمس اللاهبة. لا أحد يكلم الآخر. والتعابير التي على وجه كل واحد منهم تجعل المتفرجين يحبسون أنفاسهم في انتظار ما سيقع. والذبابة التي تطنّ حول وجه أحدهم توحي بِقُرب تعفن جثث في ذلك العراء الرهيب. ثم يبرز القطار من بعيد. ويظل يقترب ببطء مُطْلقاً زعيقاً مرعباً، وكأنه يحذر من فاجعة وشيكة الوقوع. وعندما يتوقف القطار، لا ينزل منه الرجل الغامض ولا أي أحد آخر، فيمتطي الرجال الخمسة جيادهم ويتأهّبون للإنطلاق، غير أنّ نغمات هارمونيكا تسمرهم في أماكنهم. يستديرون فيرون في الجانب الآخر من السكة، رجلاً بثياب بلون العراء المحيط به، وبقميص أحمر باهت اللون، ينفخ في هارمونيكا صغيرة الحجم، وقد غطت قبعته

نصف وجهه. ثم يتوقف الرجل الغامض عن النفخ في الهارمونيكا. وبعد حوار مقضب مع الرجال الخمسة يقول لهم: "أرى جياداً خمسةً تمضي بدون فرسانها.!" وفي الحين تمتدّ الأيدي إلى المسدسات، غير أن الرجل الغامض يكون أسرع منهم جميعاً، ويرديهم قتلى في ذلك العراء المخيف، وتحت تلك الشمس الحارقة... أوف... كم هو رائع ذلك المشهد! لعله أروع مشهد في تاريخ السينما العالمية كلها...

أجد متعة في التجول في "السوق الداخل" غير أن العدد الهائل للنشالين والمتسولين يعكر مزاجي، ويثير قرفي واشمئزازي. في كل خطوة أخطوها، نشال يترصّدني أو متسول يتشبث بي ولا يتركني إلا عندما أرمي له درهماً أو درهمين. وثمة متسولون يتفننون في إبراز عاهاتهم حتى أنك غالباً ما تجد نفسكَ مجبراً على السير مطأطأ الرأس تجنباً لرؤية تلك المشاهد الفظيعة...

في سوق الخضار، شاهدت امرأة تكاد تكون توأماً لصفيّة: نفس الأنوثة المثيرة. نفس العينين الدعجاوين. نفس المشية. تبعتها فإذا بها تستدير وتبتسمُ لي. تسارعت دقّات قلبي واشتعلتْ في جسدي نفسُ تلك الرغبة التي حَرَمْتُ منها نفسي يوم اختلت بي صفية قبل ثلاثين عاماً. وما أن اشترت خضراوات ولحماً، ابتسمت لي ثانية، ثمّ مرقت من السوق مسرعة. تبعتها. في شارع ضيق، خال من المارة، وقفت تنتظرني. اقتربت منها.

- "أهلاً وسهلاً!" قالت باسمة .

- "أهلاً وسهلاً!" قلتُ.

- "أنتَ غريب... أليْسَ كذلك؟!"

- نعم...

- "أحبُّ الغرباء!" قالت هي، ثمّ أردفت وهي تغمز بعينها اليمنى:

- وماذا تريد منّي؟

- "أنت جميلة وأنا أبغيكَ!" قلتُ لها، ولهبُ الرغبة يحرق جسدي من الرأس حتى الساقِ..

- "اتبعني!" قالت هي.

تبعتُها. توغلَتْ في المدينة العتيقة وأنا وراءها، محافظاً على نفس المسافة بيني وبينها. عند اقترابها من "القصبة" عرجت يميناً، لتدخل شارعاً ضيقاً لا يكاد

يتسع لشخصين. عند وصولها أمام باب بُنّي، أشارت عليّ بغمزة من عينها أن أدخل وراءها ففعلت من دون أي خوف أو تردد...

- "تعال!" قالت.

أدخلتني حجرة صغيرة فيها فراش وطاولة مستديرة ومنها تفوح رائحة البخور. أتتني بشاي وببعض الحلويات ثم جلست بجانبي. أمسكت بيدي. وضعتها على فخذها الحار ثم همست:

- هل أعجبتك حقاً؟

- "كثيراً!" قلت، وأنا مبهور الأنفاس.

- "وأنتَ أيضاً... أعجبتني كثيراً!" قالت، ثم ازدادت اقتراباً مني فارتميت عليها وأخذت أقبلها بنهم. ولما هممتُ بها، همستْ:

- "لابدّ من الدفع أولاً... تلك هي القاعدة مع الجميع!" قالت.

مددتُ لها ثلاثمائة درهم، فهمست باسمة:

- الآن بإمكانكَ أن تفعل بي ما تشاءُ!

حين أولَجْتُهُ فيها، تذكرت صفيّة، وإذا بي أشعرُ كما لو أنني أضاجعها هي، فاشتدت رغبتي، ورحتُ أنتفض فوقها انتفاضات محمومة بينما هي تصرخ عالياً. وكان شيئاً بديعاً لما جاءتنا الحالة في نفس الوقت، حتى أنه بدا لي أن جسدينا ذابا ذوباناً تاماً، ولم نعد نحن غير قطرات من اللذة تنهال على جسد الكون...

لعدة دقائق، ظللت ألهث فوقها، ثمّ ارتميتُ إلى جانبها غاطساً في العرق:

مرت أزيد من عشر دقائق ونحن هامدان صامتان. ثم احتضنتني وهمستْ:

- لقد كنتَ رائعاً!

- وأنت أيضاً!

وكنتُ صادقاً في ما قلتُ، ذلك أنني منذ فترة طويلة لم أتذوق مع امرأة لذة كمثل تلك اللذة. أشعلتُ سيجارة.

- هل تعيشين وحدك؟

- "لا، مع أطفالي!" قالَتْ.

- مع أطفالك؟!

- نعم، مع أطفالي الثلاثة. ولدان وبنت. أكبرهم في السابعة من عمره. وهم الآن

عند أمّي.

– وزوجك؟

– آه... زوجي... مسكين... الله يرحمه. ماتَ قبل عامين. كان يريد أن يقطع البحرإلى إسبانيا سرّاً مثلما يفعل كثيرون هنا غير أن المركب غرقَ به وبِمَنْ معه في عرض المضيق في ليلة عاصفة..

صمتتْ قليلاً ثم أضافتْ:

– مات المسكين تاركاً ثلاثة أطفال في رقبتي. والحاجة هي وحدها التي دفعتني أن أكون كما أنتَ ترى. والحقيقة أنني من عائلة شريفة. وما خطر ببالي يوماً من الأيام أن أجد نفسي مضطرة ذات يوم لبيع جسدي للرجال... ولكن ماذا تريد أن أفعل وأطفال ثلاثة زغب الحواصل في رقبتي؟! أحياناً أعمل في بيوت المترفين..لكن ما يعطونه لي لا يكفيني حتى لأيام قليلة...

جرحتني قصتها فاحتضنتها بحنان.

– "أنتَ رجل لطيفٌ جداً" قالت هي، ثم راحت تقبلني وتداعبني إلى أن انعظت من جديد، شهقت قائلة:

– أوه... يبدو أنكَ لا تشبع من هذا الشيء!

ضاجعتُها ثانية. غير أن اللذة التي حصلت عليها لم تكن بمستوى المرة الأولى.

أعطتني عنوانها وألحّتْ عليّ في العودة ثانية.

– "أنا لكَ متى تريدُ..لكن بشرط أن تحذر من العيون قبل أن تطرق الباب "! قالت.

وَعَدْتُها بالعودة ثانية. قبلتها ثم انصرفت. في الشارع قرصني الندم، غير أنه سرعان ما تلاشى إذ تذكرتُ أن روزالي تكنّ احتراما كبيراً للمومسات. وقد قالت لي ذات مرة بأنهن– أي المومسات – مثل الممرضات يخففن من آلام البشر ومن وحدتهم.

اليوم السابع: إنني هادئ، ومطمئن، ومتيقن أن السيّدة صوفي ستضع حداً للبلبلة التي عشتها على مدى الأيام الخمسة الأولى. أمضيتُ النهار في التجول. في الصباح ذهبتُ إلى "القصبة." شربتُ شاياً في مقهى يطلّ على البحر ومنه يمكن الإستمتاع برؤية المشهد العامّ للمدينة بجزئيها العصري والعتيق، وأيضا جميع الروابي المحيطة بها. وكان في نيتي أن أزور ضريح ابن بطوطة، غير أني وجدته

مغلقاً. المرة الماضية حدث لي الشيء ذاته. الأطفال الذين يلعبون في الشارع الضيق قالوا لي إن الحارس لا يأتي إلا لماماً. نفس الكلام الذي قاله لي أطفال آخرون قبل خمسة أعوام. العالَم كان رحباً عند ابن بطوطة، هذا الرجل الذي كان السفر بالنسبة له متعة ومعرفة ومغامرة بالمعنى الحقيقي للكلمة. أما الآن فقد تقلّصَ إلى ضريح صغير يقع في شارع ضيق لا يهتدي إليه الإنسان إلاّ بصعوبة. شبر من الأرض... ذاك ما يحصل عليه الإنسان في النهاية! ذلك ما كانت تقوله خالتي محبوبة عندما تريد أن تطرح شبَحَ الفقر من ذهنها ومن أذهاننا...

عند الظهر ذهبتُ إلى "دينيس بار" الواقع على الخط الفاصل بين المدينة العتيقة والمدينة العصرية، وعلى بعد أمتار من "السوق الداخل." وقد كان هذا البار المكان المفضل لجماعة "البيتنيكس." أما الآن فهو بار عادي خال تماماً من تلك الإثارة التي تحدثوا هم عنها في رسائلهم وفي كتبهم. والصور بالأبيض والأسود لعشاقه القدامى تبدو غير منسجمة كلياً مع زبنائه الجدد الذين هم خليط من هواة كرم القدم ولاعبي أوراق اليانصيب وتجار السلع المهرّبة والمثقفين الفاشلين. من "دينيس بار" طرد ويليام بوروز أكثر من مرة لأن صاحبه كان يعتقد أنه شخص خطير، يجلب النحس. وقبل يومين مررت أمام فندق "المونيرية" حيث كان يقيم وحيث كتبَ مؤلفه الشهير "الغذاء العاري" وهو شبه غائب عن الوعي بسبب الكميات الهائلة من المخدرات التي كان يتناولها. رغبتُ في زيارة الفندق فضغطتُ على الزر أكثر من مرة غير أنّ الصمتَ ظلّ مطبقاً على المكان حتى أن الفندق اتخذ أمامي هيئة قبر منسي منذ أمد طويل. وفيه دفنتُ كذلك الأحلام والنزوات والرغبات والأوهام والإستيهامات التي عاشتها جماعة "البيتنيكس." جميع عشاق هذه المدينة التي شبّهَها ويليام بوروز بـ"حلم يمتد من الماضي إلى الحاضر، وبخط فاصل بين حلم وواقع" رحلوا عن العالَم، أو هم غادروها إلى غير رجعة. الوحيد الذي تبقى فيها هو ذلك الكاتب الأمريكي الذي جاءها في ريعان الشباب وفي رأسه أحلام وطموحات موسيقية غير أنه سرعان ما تخلّى عنها ليمتهنَ الكتابة. المرة الماضية، وبتحريض من الكاتب العاري، أديت له زيارة استمرت أزيد من ساعة. أدخلني خادمه إلى شقته المتواضعة المعتمة والتي كانت تفوح منها رائحة الحشيش. وجدته ممدّداً على أريكة وقد ارتدى "روب دي شامبر" زرقاء منقّطة بنجوم بيضاء، ووضعَ يديه خلف رأسه وعلى وجهه التعابر الحادّة والبشعة

للمرض والشيخوخة. قال لي إنه لم يعد يخرج ولا يرغب في ذلك البتّة. حتّى الشمس لا يريد أن يراها، لذا أوصى الخادم أن يبقي الشقّة معتّمة دائماً. وفكرت أنه قد يكون فعل ذلك حتى يتعود على ظلمة القبر الذي لم يعد يرى أمامه شيئاً غيره. ولما سألته عن جماعة "البيتنيكس" قال لي إنه لم يكن منهم، وإنه لم يكن متفقاً مع طريقتهم في الحياة، خصوصاً مع جاك كيروك الذي فجّر كبده بالشراب، ولما قلت له إنّ ويليام بوروز كان هو أيضاً يكثر من الشراب ومن تناول المخدرات غير أنه لا يزال على قيد الحياة حتى هذه الساعة رغم تجاوزه سنّ الثمانين. نظر إليّ طويلاً بعينيه الميتتين ثم ردّ وطيف ابتسامة ساخرة على شفتيه: "ربما لأن الله لا يريد أن يراه!" بعد ذلك سألته عن سبب اختياره البقاء والعيش في هذه المدينة. فعاد ينظر إليّ بعينيه الميتتين ثم قال، وقد بدا عليه التعب أكثر من ذي قبل: "ربما لأنني أصبحت مثل أهل هذه المدينة أومنّ بالمكتوب، فإني أعتقد أنه كان مكتوباً عليّ أن أجيء إلى هذه المدينة، وأن أستقرّ فيها كلّ هذا الوقت الطويل، وأن أكتبَ ما كتبتُ وأن أعيشَ التجارب التي عشتُ. لذا أنا لستُ نادماً على شيء!" وكنتُ أرغب في مواصلة الحديث معه، غير أن الخادم هجم عليّ فجأةً وصاح فيّ: "يكفي.. لقد نبّهتُكَ منذ البداية أن المسيو لا يحتمل الأحاديث المطوّلة!" ولم يعلق الكاتب على ذلك بشيء،بل بدا راضخاً تمام الرضوخ لأوامر خادمه..

اليوم التاسع: لم أكتب شيئاً بالأمس بسبب الحالة النفسية الرهيبة التي كنتُ عليها. كان يوماً أسود بحقّ، فيه انهارت أحلامي، وتلاشى أملي في العثور على روزالي التي يبدو أن حياتي بدونها، خصوصا منذ وصولي إلى هنا، أصبحت مستحيلة. وحتى إذا ما كانت ممكنة فإنها ستكون حتماً بلا معنى. نعم... كان يوماً أسود بالفعل حتى أني فكرت أن ألقي بنفسي في المضيق من أعلى شناخ. فقد ذهبت إلى مكتبة "أعمدة هرقل" في الساعة العاشرة صباحاً، وجدتها فارغة فسررت بذلك كثيراً. رحبّت بي السيدة صوفي بحرارة كما هي عادتها دائماً. اخترت أنا ثلاث روايات بوليسية لباتريسيا هايشميث ثم وقفت أمامها قصد الدفع فقالت لي باسمة:

– آ... ألا زلتَ تعشقُ الروايات البوليسية؟

– نعم..كثيراً.. بل إنني أصبحت مدمناً على قراءتها مثل صديقتنا روزالي!

وبدت هي وكما لو أنها لم تسمع الشطر الثاني من كلامي، غير أنني لم أهتمّ

كثيراً بالأمر، خصوصاً وانني ظننتُ أنه قد يكون ناتجاً عن انشغالاتها بعملية الحساب. ولما مدّت لي الحقيبة البلاستيكية حيث الكتب الثلاثة، فكرت بأنها فرصة لا تعوّض فقلتُ لها بكلّ أدب ولطف:

– سيدة صوفي... هل بإمكاني أن أطلبَ منكِ مساعدتي في أمر ما؟

باسمةً ردّت هي:

– إذا ما كان بإمكاني ذلك، فكن على يقين أنني لن أبخلَ عليكَ بشيء!

ترددتُ قليلاً، ثمّ قلتُ لها:

– أريدُ أن أعرفَ أين روزالي يا سيدة صوفي...

– روزالي... ومنْ تكون روزالي هذه؟! ردّت هي مقطبةً جبينَهَا.

صعقني جوابُها، فانعقد لساني غير انني تمكنتُ أخيراً من أن أتحامل على نفسي، وقلتُ لها، وأنا في أقصى حالات الإرتباك:

– روزالي... روزالي... روزالي صاحبة البنسيون الذي في شارع قرطبة والتي تأتي دائماً إلى المكتبة لاقتناء مجلات الموضة أو الروايات البوليسية...

– "لا أعرف امرأة بهذا الاسم! قالت هي بصوت جافّ.

– "كيف لا تعرفينها يا سيدة صوفي، في حين أنها كانت تتردد يومياً تقريباً على مكتبتك... وكانت تحترمُكِ وتحبُّكِ كثيراً... وأنتِ، أيضاً، على ما أظنُّ؟!" قلتُ وفي صوتي نبرة لوم.

فكّرَتْ قليلاً، ثم قالتْ بنفس الصوت الجافّ:

– يا سيد ميلود... أنا لا أتذكّرُ امرأة بهذا الاسم في حياتي كلها! قالت ذلك، ثم انصرفت لخدمة زبائن كانوا قد دخلوا للتوّ. ظللت واقفاً أنتظر، بينما كان العَرَقُ يتصبّبُ منّي غزيراً حاراً. حالَما انصرف الزبائن، أسرعت نحو السيدة صوفي غير أنها أوقفتني بحركة رادعة من يدها قائلة:

– "أعتقد يا سيد مولود أنه ليس بإمكاني مساعدَتَكَ!" ثم أشاحتْ عني بوجهها، وكأنها تريد أن تبلغني أنني أصبحتُ شخصاً غير مرغوب فيه في ذلك المكان...

خرجتُ إلى الشارع وأنا أترنّحُ من هول الصدمة. لا أثرَ للنهار الربيعي المضيء بل ظلام فوق ظلام. رحتُ أتنقّل بين البارات. أخرج من هذا البار، لأدخل أول بار يعترضني في طريقي. وأعتقد انني كنتُ أهذي وأتحدث عن روزالي، ذلك أن كهلاً

بهيئة شريرة، وبأسنان مسوّسة، وشارب كثّ اقترب منّي وقال بصوت أجشّ:

– ومَنْ تكون روزالي التي أفقدَتْكَ صوابَكَ؟!

ولما قلت له إن روزالي هي أجمل امرأة في الكون كلّه، قهقه عالياً ثم قال بنبرة جادّة:

– أعرف هذه المرأة... أعرفها جيداً!

– تعرفها جيداً؟! صحت فيه.

– "أعرفها جيداً... وباستطاعتي أن آخذكَ إليها!" ردَّ بنفس النبرة الجادّة...

رحتُ أستعطفه أن يفعل ذلك حيناً، فقهقهَ عالياً مرة أخرى، ثم قال:

– سآخذكَ إليها عندما تكون في وضع لائق!

غاب الآن من ذهني ما قلتُ. الشيء الذي أتذكره جيداً هو أن الكهل دفعني بقوّة، بحركة من يده حتى كدتُ أسقطُ على الأرض، هكذا على وجهي، ثم اختفى ولم أعد أرى أمامي غير ضباب وأشباح تتراقص. ركضتُ إلى الشارع فلم أعثر للكهل على أثر. واصلتُ الطواف بين البارات لأجد نفسي أخيراً في بار "بارجولا." كان هناك نفس الكهول ونفس المومسات يشربون ويدخنون في صخب. وكان المغني يردد على مسامعهم ما يطلبونه من أغان. بين الحين والحين تأخذ إحدى المومسات في الرقص فيعلو الضجيج والصخب وتجحظ العيون. أخيراً همدوا. ونام ثلاثة منهم على أكتاف المومسات. راح المغني يردد بصوت متعب وحزين: "أنا منْ ضيّع في الأوهام عمره..." وجدتني أستعذب هذه الأغنية التي لم أسمعها منذ أمد بعيد. ذلك أنني وجدتها منسجمةً تمام الإنسجام مع حالتي إثر ذلك الطواف الطويل بين البارات...

ما يتوجّب عليّ أن أفعله هو أن أهدأ. لابدّ أن أهدأ. صحيح أن صدمة الأمس كانت موجعة وقاسية إلى أبعد حدّ. مع ذلك لابدّ أن أهدأ. كما يتوجّبُ عليّ ألاّ أفقد الأمل في العثور على روزالي. وابتداء من هذه اللحظة سوف أعول على نفسي ولن أفاتح أحداً بخصوص موضوعها. يبدو أنّ هناك مؤامرة دنيئة حيكتْ في العتمة مثل كل المؤامرات التي تُحاكُ في بلاد الشرق لقطع علاقة الحبّ الكبير بيني وبين روزالي، وإلاّ لِمَ كلُّ هذه الألغاز؟! ولِمَ كلُّ هذا الإصرار من جانب الجميع لإنكار معرفتها بل حتّى وجودها؟! وقد تكون السيدة صوفي خائفة من العواقب التي يمكن أن تنجم عن مساعدتها للعثور على روزالي، لذا تصرفت معي بمثل ذلك

الجفاء وبمثل تلك القسوة واضعةً حداً للنقاش بشكل حازم وصارم. موقف كهذا لا يمكن أن يتخذه إلاّ من يخشى عاقبة ما، لذا هو يعجل بسدّ الطريق منذ البداية، قاطعاً كل بصيص أمل في البوح بما يمكن أن يفيد أو ينفعَ ضالاً مثلي. ثم إن السيدة صوفي أجنبية. والإضرار بها وبمصالحها أمرٌ في غاية اليسر والسهولة. يكفي أن يدفع واحدٌ من المتآمرين بضعة دراهم لفتيان أشقياء لكي يحطموا واجهة مكتبتها، أو يشعلوا فيها النار، فتضحى أثراً بعد عين ويشرب الأعداء نخبَ ذلك العديد من زجاجات الشمبانيا، بينما السيدة صوفي تنتحب ولا حول لها ولا قوة ولا سند. أو يمكن أن يدفع متآمرٌ آخر ثمن عشاء لواحد من أولئك الفتيان الذين ينامون في العراء، لكي يهاجمها وهي عائدة ليلاً إلى بيتها ويغرس سكيناً في قلبها. بل لعله يتسلل إلى غرفة نومها، ويذبحها من الوريد إلى الوريد، أو يشنقها بحبل من مسد فتتحول إلى قصة يتسلّى بها أهل المدينة على مدى أشهر عدة.كل هذا محتمل، وصاحب فندق "أطلس" ذكر لي أن الجرائم تكاثرت في المدينة بشكل مرعب وأنه لم يعد هناك أمان مثلما كان الحال عندما جئتُ إلى هنا قبل خمسة أعوام. من حقّ السيدة صوفي أن ترفض مساعدتي، إنن خصوصا وأن المسألة أصبحتْ بالنسبة لها مسألة حياة أو موت. وقد أكون أخطأتُ حينما طلبتُ مساعدتها. غير أنه لم يكن لي أي خيار آخر، خصوصاً بعد أن انسدت كلّ الأبواب أمامي، ورفض الجميع الجهر بالحقيقة. بل إنهم عاملوني كما لو أنني أبله أو معتوه أوفاقد للذاكرة!! وقد يكون من الأفضل أن أكتب رسالة اعتذار للسيدة صوفي لأنني لا أرغب في فقدان علاقتي بها. نعم..سأفعل ذلك اليوم أو غداً. أما الآن فيتحتّم عليّ أن أهدأ. لابدّ..! الشيء المؤكد هو أن ذلك الجرسون الوغد رشيد هو الذي دبّر المؤامرة لأنه يغار منّي. ولأن روزالي رفضت حبّهُ، فإنه التجأ إلى الإنتقام. تُرى ماذا فعلَ لها؟! الأشرار لا يعجزون في العثور على الأفعال الشريرة. يختطفها مثلاً أو يحبسها في خربة في المدينة العتيقة. وبما أنها بلا عائلة وبلا وطن. فإن أحداً لن يسأل عنها. أمّا الأصدقاء والمعارف فيمكنُ إسكاتُهم وردعهم بالتهديد والوعيد. وماذا باستطاعتهم أن يفعلوا إذا ما وجدوا أنفسهم أمام واحد مثل ذلك الجرسون الوغد رشيدالذي يرتبط بعلاقات جدّ وثيقة مع المجرمين ومروّجي المخدرات وعصابات الخلع والنهب. وقد يكون شدّد عليها الخناق لما رفضت التجاوب مع حبّه لها، ففرّت إلى واحدة من تلك الجزر المتوسطية التي طالَما حدثتني

عنها، والتي حرزت أنها سوف تلجأ لها في يوم من الأيام إذا ما ضاق بها العيشُ في هذه المدينة. كل هذه الإفتراضات محتملة. وأكيد أن الحاجّ ميمون باركَ كل أفعال ذلك الجرسون الوغد رشيد لأنه لا يرغبُ في وجود أجانب وغرباء في المدينة. ومرّة قال لي: "جميعهم رحلوا... وهذا شيء جيد للغاية!" ولما سألته عمن يعني بذلك، أجاب بأنه يقصد أولئك الأجانب الذين غزوا المدينة أيامَ كانت منطقة حرّة وعاشوا فيها مثل السلاطين في حين عشنا نحن مثل العبيد! نعم قال هذا. ولكن روزالي لا تنتمي لا إلى جنسه ولا إلى جنسهم. إنها زهرة نادرة نبتتْ على الخطّ الفاصل بين الشرق والغرب. وعندما حاولت أن أعرف شيئاً عن حياتها قالت لي كلاما شبيهاً بذلك الذي نطقت به مريم العذراء لما سُئلتْ كيف حملت بالمسيح فازداد حبي لها لأني أميل إلى النساء المسربلات بالألغاز والغموض... ما هو ضروري الآن هو أن أهدأ. لابدّ أن أهدأ. وألا أنساق إلى الشراب بشكل جنونيّ مثلما كان الحالُ بالأمس. كما أنه من الضروري مواصلة البحث عن روزالي وفضح المؤامرة التي دبرت ضدي وضدها في الخفاء، حتى ولو تَطَلَّبَ مني ذلك تمديد إقامتي. وإذا ما احتجت إلى شيء من المال، فسأرسل برقية عاجلة إلى رئيس تحرير المجلة المهاجرة التي أتعامل معها لأطلب منه ذلك مقابل إجراء حوار مع الكاتب الأمريكي العجوز، وكتابة تحقيق عن حياة "البيتنيكس" في هذه المدينة. إنه شابّ رائع ولطيف وكريم جداً معي... رئيس التحرير! لكأنه لا ينتسب إلى الشرق البائد المليء بالنفاق والأكاذيب. ولولاه لكنتُ هلكتُ جوعاً وبرداً في مدينة غربتي. وبالرغم من أني لم ألتقِ به سوى مرتين، ولوقت قصير، فإنه يكنّ لي مودةً لم أستطع تفسيرَها حتى هذه الساعة. وقد أبلغني أحدهم بأن ذلك قد يكون عائداً إلى أنه شديد الميل للأشخاص الغريبيّ الأطوار مثلي. ولكن هل أنا غريب الأطوار حقاً؟! لا أعتقد ذلك. الشخص الوحيد الجدير بهذا الوصف هو هذا الكاتب الجالس مثل روزالي على الخط الفاصل بين الشرق والغرب. أما أنا فشخص كسول وفاشل. وأكثر من مرة نصحني رئيس التحرير الشاب أن أجتهد أكثر حتى يقنع الإدارة برفع راتبي، غير أنني لم أستجبْ لنصيحته، وظللتُ أعمل بنفس الوتيرة السلحفاتية. مع ذلك لم يغضب هو ولم يقطع راتبي. لابدّ أن أردّ له الجميل ذات يوم. لكن كيف؟! هذا ما لا يمكنني أن أعرفه راهنا.

اليوم العاشر: لم أكن أبتغيه أن يكون يوماً عاصفاً غير أنه كان على هذه

الصورة، ذلك أنني أردتُ أن أثبتَ لهم، خصوصاً لذلك الجرسون الوغد رشيد، أنني لستُ لا جباناً ولا أبله ولا فاقداً للذاكرة، كما هم يتوهّمون...

الشطر الأول من النهار أمضيتُهُ في الفندق أقرأ وأفكّرُ في ما يتوجّبُ القيام به. كما أنني كتبت رسالة مطولة إلى زهرة، رويت لها فيها بعض الأحداث التي حصلت لي هنا في هذه المدينة. بعد الغداء، استرحتُ قليلاً في الفندق، ثم انطلقتُ إلى بار "الدركان" الذي كنتُ ارتدتُهُ مرات عديدة عندما جئتُ إلى هنا قبل خمسة أعوام. وهو يقع في شارع صغير، غير بعيد عن شارع "قرطبة." زبائنُهُ مشردون وصيادو أسماك ومحتالون وهامشيون، وأثمانه بخسة جداً. أما صاحبه فملاكم قديم، فارع القامة، ضخم الجثّة والرأس، يشربُ ويدخن طول الوقت بالرغم من أنه تجاوز سنّ الثمانين. على جدران البار القذرة، صور عديدة له أيام كان شاباً قوياً ووسيماً، وأيضاً صور لعبد الوهاب وأم كلثوم وأسمهان وصليحة وسيد درويش، مطربيه المفضلين. كان البار فارغاً إلاّ من ثلاثة شبان ظلوا طول الوقت الذي أمضيتهُ هناك يضحكون بشكل هستيري لسبب لم استطع إدراكه. أما صاحب البار فكان واقفاً وراء الكونطوار مثل أسد عجوز، وأمامه بيرة. ولأنه فقد النطقَ إثر عملية جراحية أجريت له على الحنجرة، كما أعلمني بذلك الجرسون، فإنه كان يتخاطبُ معي ومع الآخرين بالإشارات. وكان في نيتي أن أشربَ كأسين أو ثلاثة ثم أمضي في حال سبيلي غير أن صوت عبد الوهاب الذي أعشقه مثل صوت فيروز أطربني كثيراً حتى أنني نسيت نفسي والوقت وظللت أشربُ متهادياً على نغمات أجمل صوت في بلاد النيل. آخر الظهيرة غادرت بار "الدركان" عازما على شرب كأس في بار "النجريسكو" الذي وجدته مليئاً بالزبائن. وقفتُ على الكونطوار وطلبت بيرة فوضعها ذلك الجرسون الوغد رشيد أمامي ثم انصرف إلى الطرف الآخر من الكونطوار وراح يراقبني بقلق واضح... الحقير! لابدّ أن القنّه درساً لن ينساه أبداً! ولابدّ أن أفعل ذلك الآن، الآن وليس غداً حتى يعلم أن هناكَ حدوداً للجريمة والنفاق والكذب. بعد البيرة الثانية، صحتُ فيه:

- تعال!

- "ولماذا؟!" ردّ هو باستنكار واضح..

- "لي طلب بسيط!" قلت.

اقترب منّي:

- "وما هو هذا الطلب؟!" قال.

أريد أن أرى بطاقة هويّتكَ!

- بطاقة هويتي؟! ولماذا؟!

- لكي أتأكدَ أنكَ بالفعل رشيد وليس حسن كما أنتَ تدّعي!

- ليس بإمكاني أن أقدم لكَ بطاقة هويتي... غير أنه بإمكانكَ أن تسألَ الناس الموجودين هنا فهم يعرفونني جيداً!

- ولكن ذلك اليوم..أي قبل تسعة أيام بالضبط، أنتَ كنتَ مستعداً لأن تقدّمَ لي بطاقة هويّتكَ حتى تثبتَ صحة أقوالك... فلِمَ تتراجع الآن عن ذلك؟!

- "أنا حرٌّ!" قال هازّاً كتفيه تأكيداً على استهانته بي...

- "أنتَ كذّاب!" صحت فيه.

- "لا أسمح لكَ بالتلفظ بهذا الكلام!" صاح وهو يرجفُ.

- "أنتَ كذّابٌ ووغد ومجرم!" صحت مرة أخرى وبأعلى صوتي وكأني أريدُ أن يسمع الجميع بما في ذلك الناس الذين في الشارع العام.

استدار إليّ الزبائنُ وقد بدا على وجوههم الإستغراب والإمتعاض. من الركن المقابل، صاح أحدهم وكان شبيهاً بالكهل ذي الهيئة الشريرة الذي قال لي إنه يعرف روزالي جيداً عندما كنتُ سكران قبل يومين:

- ماذا يريد هذا الرجل يا حسن؟!

- إنه يقول إن إسمي رشيد ليس حسن، ويدعي أنني أعرف امرأة إسمها..إسمها... إسمها... روزادي على ما أظنّ!

- يقول إنك تدعى رشيد وليس حسن؟!

- نعم... هو يقول ذلك... ويطلب مني بطاقة هويتي للتأكد من الأمر...

- "لابدّ أن يكون مجنوناً!!" قال الآخر.

- "أنتَ كذّاب وسافل ووقح ودنيء ومنحط ومجرم!" صحتُ مرة أخرى مادّاً رأسي نحوه.

- "عليكَ أن تخرج حيناً وإلاّ فإني سأضطرُّ لإبلاغ البوليس!" صاح هو وقد جحظت عيناهُ من فرط الغضب.

- "ولماذا البوليس... دعني أنا أتكفّلُ به!" صاح الآخر الشبيه بالكهل ذي الهيئة الشريرة الذي ادعى أنه قادر أن يأخذني إلى روزالي شرط أن أكون في وضع

لائق، ثم اندفع نحوي مثل ثور هائج. وبيديه الغليظتين المكسوتين بالشَّعَر دفعني بقوة، فإذا بي أجدُ نفسي في الشارع محاطاً بجمع من الفضوليين.

- "ستدفع الثمن غالياً أيها الوغد!" صحت وسبابتي مصوبة نحو ذلك الجرسون الوغد رشيد.

- "إذا لم تذهب من هنا حيناً فسوف أكسر خلقتَكَ!" صاح الرجل الشبيه بالكهل ذي الهيئة الشريرة.

ابتعدتُ وأنا ألهثُ بينما أولئك الفضوليون واقفون ينظرون إليَّ وفي عيونهم شيء من الشفقة. اتجهت نحو حانوت الحاج ميمون فوجدته واقفاً عند العتبة، وإلى جانبه صبية في حوالي الثامنة من عمرها كانت تمسكُ بدمية وتنظر حولها بعينين مُفعمتين بالبراءة والفرح. وأنا لا أتذكر جيداً ما قلت للحاج ميمون غير أن المؤكد أنني أغلظت له في القول ذلك أنه احمرّ واصفرّ واخضرّ واسودّ وابيضّ، ثم شرع يصيح طالباً النجدة، بينما كانت تلك الصبية الجميلة تنتحب مذعورة، وقد تشبثتْ بأطراف جلابيته. وفي الحين جاء أربعة أو خمسة أو ستة رجال على ما أظنّ وجروني بعيداً عنه، بينما أنا أقذفه بالسباب والشتائم. بعدها ركضت إلى العمارة البشعة التي انتصبت مكان بنسيون روزالي. لعنتُ شيب الحارس، وشتمت أصله وفصله، ثم بصقت عليه بصقات متتالية إلى أن امتلأ وجهه بالبصاق وانصرفت مرتاح البال والضمير. مكثتُ في بار" بارجولا "حتى منتصف الليل، ثم عدتُ إلى الفندق وأنا جدّ سعيد بإنجازات ذلك اليوم...

اليوم الحادي عشر: كنتُ بين النوم واليقظة، حين سمعت طرقات عنيفة على الباب.

- "منْ؟!" صحتُ.

- "إفتح!" ردَّ صوت غليظ وغريب.

قفزت من الفراش، وبدأت ألبس ثيابي.

- "إفتح حالاً!" صاح الصوت الغليظ والغريب ثانية.

فتحت الباب، فإذا بي أجدُ نفسي أمام ثلاثة رجال ببدلات داكنة. ومعهم صاحب الفندق. وقبل أن أفتحَ فمي مستفسراً عن هويّة الرجال الثلاثة، قال الواقف في الوسط والذي كان أمرد الوجه، في حين كان للآخَرَيْنِ شاربان كثان تتخللهما بعض الشعيرات البيضاء.

- نحن من الأمن العامّ، ولابدّ أن تأتي معنا حالاً!

- ولماذا؟!

- "ستعرفُ ذلك هناك، في دائرة الأمن العامّ!" قال.

ظلّ صاحب الفندق صامتاً. وكان يرمقني بنظرات اختلط فيها القلق بالإستنكار. في دائرة الأمن العام، أدخلني رجال الأمن إلى مكتب رمادي عار ثم انصرفوا بعد أن أغلقوا عليّ الباب. بقيت هناك قرابة الساعة وأنا لا أسمع شيئا غير وقع أحذية رجال الأمن وهم يتنقلون بين المكاتب. ثم انفتحَ الباب، وأطلّ منه رجل الأمن الأمرليطلب مني أن أتبعه ففعلتُ. سرنا في ممرّ طويل، ثمّ دخلنا مكتباً أنيقاً كان يجلس فيه صاحبا الشاربين الكثين، ورجل آخر بدا لي من النظرة الأولى أنه رئيسهم. أشار عليّ هذا الأخيرُ أن أجلسَ فجلستُ قبالتَهُ، في حين جلس الرجل الأمرد على يميني.

- "الجواز من فضلكَ!" قال الرئيس بلطف شديد.

مددتُ له الجوازَ فراحَ يتصفحه ببطء، متوقفاً طويلاً عند الصورة والمعلومات الخاصة بي، ثم رفع رأسه وقال:

- أنتَ من بلد شقيق، ونحن نرحب بكَ في بلادنا يا سيد ميلود!

- "شكراً!" قلتُ.

سحب علبة سجائر من نوع "مالبورو." مدّهَا مفتوحة إليّ وقال ودائماً بنفس اللطف الشديد.

- سيجارة؟

- لا.. شكراً... أنا لا أدخن إلا" الجيتان "قلت.

- "بإمكانكَ أن تدخّنَ!" قال.

سحبتُ سيجارة فأسرع صاحب الوجه الأمرد بإشعالها لي.

لحظات من الصمت التام المشوب بالقلق، ثم قال لي الرئيس:

- هناك أمرٌ هامّ لابدّ أن نبلغكَ به يا سيد ميلود!

- وما هو؟! قلتُ.

حدّق فيّ طويلاً، ثم قال:

- لقد بلَغَتْنا شكاوي كثيرة، ومن أناس مختلفين بشأن سلوكك!

- سلوكي؟!

– نعم.. سلوكك... فأمس أنتَ هدّدْتَ الجرسون حسن الذي يعمل في بار "النجريسكو" وشتمته شتماً مقذعاً، وقلت كلاماً قبيحاً لعطار طاعن في السنّ، وبصقت على حارس عمارة طاعن في السنّ هو أيضاً. وكنتَ سكران حدّ فقدان الوعي فوق ذلك. وهناك شهود كثيرون ضدّكَ!

– لم أفعل ذلك إلاّ لأنهم أساؤوا إليّ، سيد الضابط!

– وكيف أساؤوا لكَ؟!

– لقد أنكروا معرفة روزالي في حين أني متأكد تمام التأكد من أنهم يعرفونها جيداً!

– ومن تكون روزالي هذه؟!

– هي صديقة رائعة... تعرفت عليها عندما جئتُ إلى هنا قبل خمسة أعوام، وسكنت في البنسيون الذي يحمل اسمها والموجود في شارع قرطبة...

تمعنوا فيّ طويلاً من جديد. تبادلوا نظرات سريعة، مثلما فعلوا قبل ثوان، ثم قال الرئيس، بينما كانت سيارة إسعاف تزعق في الشارع:

– يؤسفنا يا سيد ميلود أن نقول لكَ إن السيدة التي أنتَ تتحدث عنها والتي تُدْعى روزالي حسب ما أنتَ تدّعي لا توجدُ ولم توجد في هذه المدينة على مدى المائة عام الماضية على الأقلّ. كما نؤكد لكَ أيضاً أنه لم يوجد على مدى المائة عام الماضية على الأقلّ بنسيون في شارع قرطبة أو في أي شارع آخر من المدينة يحمل اسم هذه السيدة!

– ولكن...

قاطعني الرئيس بشيء من الحدّة:

– إسمع يا سيد ميلود... بحكم مهنتنا كرجال أمن نحن نعرف المدينة أكثر من غيرنا. ونعرف أهلها جيداً بما في ذلك الأجانب المقيمين فيها. وبإمكاننا إنْ شئتَ أن نمدك بالوثائق اللازمة لكي تتأكد من صحة ما نقول..ألا يكفيك هذا؟!

– "يكفيني!" قلتُ ذلك ليس على قناعة، وإنما لكي أضع حداً لنقاش بيزنطي... وسيصبح بالتأكيد أكثر بيزنطية إذا ما تَواصلَ. ثمّ إنه لا يجبُ الوثوق في رجال الأمن بأي حال من الأحوال. فهم دائماً ضدّكَ حتى ولو كنتَ على الصراط المستقيم. كما أنهم على يقين دائماً بأنهم على صواب، أما أنتَ فعلى خطأ. وباستثناء كل هذا، أنا أكرههم كرها شديداً وأكره أسئلتهم وشكوكهم وثقتهم

العالية بأنفسهم. لذا كان من الأفضل أن أصمتَ وأن أُبدي اقتناعاً بما قالوا...

– "سيد ميلود.. كُنْ على يقين أنه لو كان واحدٌ آخر فعلَ ما أنتَ فعلتَ لكُنّا أحلناهُ إلى المحكمة دون أي تردد.. ولكن أنتَ ضيفنا..ونحن سعداء بوجودكَ في بلادنا. ونرجو أن تكونَ أنتَ أيضاً سعيداً بذلك!" قال الرئيس .

– "أنا جدّ سعيد!" قلتُ.

– "والآن بإمكانكَ أن تنصرف" قال الرئيس.

صافحتهم ومضيتُ رأساً إلى الفندق لأقضي اليوم بكامله في القراءة وكتابة رسائل إلى بعض الأصدقاء المُشتتين هنا وهناكَ. في الليل تعشيتُ في المطعم الشعبي المواجه للفندق، ثم عدتُ إلى غرفتي لأواصل القراءة حتى ساعة متأخرة. وكنتُ جدّ راضٍ عن نفسي لأني لم أشرب ولو قطرة واحدة من النبيذ أو من البيرة في ذلك اليوم. وقبل أن أنام، قطعتُ عهدا على نفسي بألاّ أفاتح أحداً بموضوع روزالي مستقبلاً، وأن أواصل البحث عنها في سريّة مطلقة ...

اليوم الثاني عشر: جالساً في بار "بارجولا" آخر الظهيرة، اجتاحني حنين جارفٌ إلى مدينة غربتي، وتبيّنَ لي أني لا أكرهها، ولست شقياً فيها كما أنا أدّعي، وأؤكّدُ على ذلك. وربما لهَذا السبب أطللت الإقامة فيها. وعندما حفرتُ في الذاكرة، تراءى لي أني عشتُ أوقاتاً بهيجة فيها... جولاتي الطويلة في "الحديقة الإنجليزية" في الخريف وسط مهرجان من الألوان المختلفة. الشتاء بثلوجه وعتمته وشموعه وصمته الأبيض في الصباحات. الربيع الذي ينفجر فجأة متحدّياً الصقيع الطويل. الصيف وحدائق البيرة والبنات الجميلات العاريات الممددات فوق عشب الحدائق وزرقة السماء البافارية التي لا مثيل لفتنتها، ربما في العالَم كله. مرح إدوار التّيرولي في السهرات الرائقة وحفلات رأس السنة. السمفونيات الكلاسيكية وأنا ممدد على الفراش مغمض العينين والستائر مسدلةٌ. وطالبة الفلسفة أيناس التي أحبتني لسبب لا أدريه ونامت في أحضاني أسبوعاً كاملاً ثم اختفت تاركةً في القلب جمرة لم يهدأ أوارُها حتى هذه الساعة. والآن أنا نادم جداً لأني لم أستغل الوقت في مدينة غربتي بدراية وحكمة. ولو كنت فعلت ذلك، لكنت أنجزتُ كل المشاريع التي بدأت أخطط لها منذ أن دخلت العاصمة من بابها الجنوبي. ولكن يبدو أنني إنسان فاشل وكسول وعدو لنفسي. وحتى لا أقرّ بذلك، ألقيت بتبعات كل شيء على مدينة غربتي، ناسياً ما قالته لي زهرة ذات يوم، وكانت

على حق، بأن خلاص الإنسان ليس مرهوناً بالأمكنة، وإنما به هو وحده، ولا شريكَ لهُ في ذلك أحد.

اليوم الثالث عشر: في سوق السمك، رأيتُ زمردة وقد ارتدت جلابية خضراء بلون العشب. وكانت تمازح بائع سمك عجوز. خفق قلبي بشدة. انتظرت إلى أن انتهت من شراء السمك، ثم تبعتها. حال خروجها من السوق، لم أعد قادراً على ضبط نفسي فصحتُ فيها:

- زمردة!

- استدارت. حدقت فيّ طويلاً، ثم قالت:

- ألستَ ميلود؟!

- نعم..أنا ميلود...

- يا لَها من صدفة سارّة!

- أنا سعيد جداً بلقائك يا زمردة العزيزة!

- وأنا أيضاً يا عزيزي ميلود! ومتى وصلتَ؟

- قبل أزيد من عشرة أيام..

- وهل ستطول إقامتكَ؟

- نعم... ربما ثلاثة أسابيع أخرى...

- هذا شيء جميلٌ... بإمكاننا أن نلتقي إذن؟

- طبعاً لابدّ أن نلتقي!

- اسمع، لقد تغيّر عنواني..لَمْ أعُدْ أسكن في شارع قرطبة، وإنما في شارع فاس، رقم٢٤، الطابق الثالث. الشقة التي على اليمين... بإمكانك أن تزورني متى شئتَ!

- ربما غداً...

- تعالَ غداً ظهراً..ثم باسمةً، غمزت بعينيها وهمست:

- تعالَ وستَجدُ عندي ما يرضيكَ ويسرُكَ!

- شكراً جزيلاً يا زمردة... أنت دائماً رائعة!

- وأنتَ أيضاً يا ميلود..!إلى اللقاء..غداً ظهراً!

- إلى اللقاء!

أكره عبارة "طِرتُ من الفرح" غير أني أقدرُ إني طرتُ فعلاً من شدّة الفرح،

وبجناحين من نور، حلّقت فوق مدينة روزالي ذلك أن جميع متاعبي انتهت وبتّ متيقناً أنني سألتقي بروزالي غداً، وإلاّ ما معنى هذ الكلمات: "تعالَ وستجد عندي كلّ ما يرضيكَ ويسرُكَ!" التي قالتها لي زمردة...

اليوم الرابع عشر: من البولفار اشتريتُ باقة زهور وتوجهتُ إلى شارع فاس. مبهور الأنفاس صعدتُ الطوابق الثلاثة ثم طرقتُ باب الشقّة التي على اليمين، ففتحت لي زمردة وصاحت والبِشْر على وجهها العريض:

– تفضل يا عزيزي ميلود... تفضّل!

مددتُ لها باقة الورود، فاحتضنتني.

– "أنتَ دائماً لطيفٌ وكريم يا ميلود!" قالت .

الشقة مرتبة ترتيباً رائعاً. رائحة بخور. زرابي ومرايا كثيرة. أثاث من الطراز العتيق. في قاعة الجلوس، كانت هناك ثلاث فتيات في حوالي العشرين من عمرهن بجلابيات زاهية الألوان. سمراوات. رشيقات. جميلات، خصوصا البنت التي في الوسط والتي كان لها الجمال المتوحش للبدويات.

– "التي على اليمين عائشة، والتي في الوسط فاطمة، والتي إلى جانبها خديجة." قالت، ثم أشارتْ إليّ وأضافت:

– "وهذا ميلود الذي حدثتكم عنه..وهو شاعر يعيش في ألمانيا... ولعله سيكتب عن الأجمل بينكنّ قصيدة... أليس كذلك يا ميلود؟!" ثم أطلقت ضحكة عالية.

جلستُ. أتت زمردة بالشاي والحلويات ورحنا ندردشُ حول مسائل شتى. تكلمت زمردة أكثر منا جميعاً. أما الفتيات فبدون خجولات ولم يتلفظن إلاّ ببعض الجمل المقتضبة. في لحظة ما، انحنت زمردة عليّ وهمست في أنني:

– منِ التي أعجبتكَ؟

– التي في الوسط..

– "تعال!" قالت.

تبعتُها. أدخلتني غرفة فيها سرير عريض وخزانة:

– "ستلتحقُ بكَ بعد قليل!" قالت.

نزعتُ ثيابي وتمددتُ على الفراش. جاءت فاطمة. نزعت هي أيضاً ثيابَها، وتمددت بجانبي. أثارتني شفتاها الغليظتان فوضعتُهُ في فمها. لم تعترض على ذلك

وراحت تمصه وتلحسه وتلعب به بلسانها حتى إذا ما جاءتني... لم أتمكن من كتم صرخة عالية...

عدنا إلى قاعة الجلوس فوجدنا زمردة لوحدها ولا أثر للفتاتين..

- "هل أعجبتْكَ؟!" همست لي زمردة .

- "جداً!" همستُ أنا أيضاً.

- "ثمنها خمسمائة درهم!" همست هي مرة أخرى.

مددتُ لها ما طلبتْ فدسّت شيئاً منه لفاطمة، ثم قالت لها:

- "بإمكانك أن تعودي غداً في مثل هذه الساعة، لأن هناك من يبغيك!"

انصرفت فاطمة.

- "هي جميلة... أليسَ كذلك؟!" قالت زمردة.

- "جميلة جداً!" قلت.

- بل يمكن القول إنها أجمل وأكثر أنوثة من ربيعة المراكشية.

- ومن ربيعة المراكشية؟!

بدا عليها الإستغراب:

- ربيعة المراكشية... أنسيتَها؟! تلك التي تولهتَ بها المرة الماضية حتى أنك على مدى الأسابيع الخمسة التي قضيتها هنا لم تقبل امرأة أخرى غيرها...

- هذا أمر محيّر!

- ولماذا محيّر؟!

- لأني لا أتذكّرُ امرأة بهذا الإسم أبداً!

- يبدو أن ذاكرتكَ ضعفتْ بشكل مخيف يا عزيزي ميلود... أو ربما لأنك عرفت كثيراً من النساء، ومن مختلف الأجناس فإنكَ أصبحتَ تخلط بينهنّ... أما أنا فباستطاعتي أن أقسم بالكتاب وبرأس سيدي عبد السلام بن مشيش أنك قلتَ لي إن ربيعة المراكشية هي أفضل امرأة في الفراش عرفتها في حياتك كلها...

لبضعة ثوان، ظللت صامتاً ثم قلت لها وقد ارتأيتُ أن الفرصة باتت سانحةً لمفاتحتها بالموضوع.

- ولكن يا زمردة العزيزة... المرة الماضية أنا تولهتُ بروزالي وليس بأي امرأة أخرى، ومن أجلها فقط عدت!

- روزالي؟! ومن تكون روزالي هذه؟!

– صديقتُكَ وجارتُكَ التي تملك بنسيوناً في شارع قرطبة حيث تنتصب عمارة بشعة الآن، والتي كانت تحبّك كثيراً، وتعجبها كثيراً حكاياتُكِ عن البربر خصوصاً عن زينب النفزاوية..

لثوان ظلتْ شاخصة ببصرها ثم قالت:

– لا أتذكّر امرأة بهذا الإسم أبداً!

– يبدو أن ذاكرتكِ هي التي ضعفت يا عزيزتي زمردة!

– هذا مستحيل! وإذا ما أردتَ الدليل على ذلك فإنه بإمكاني أن أسرد عليكَ دون أي تلعثم أسماء جميع النساء اللائي عرفتهن، ومن جميع الأجناس... عربيات وبربريات وأجنبيات... أما هذه المرأة التي تتحدث عنها فأنا على يقين بأنه لا وجود لها على الإطلاق. وأنا التي أنتسب إلى هذه المدينة أباً عن جدّ، وعشتُ الجزء الأكبر من حياتي كلها في شارع قرطبة، لا أتذكر أن هناك امرأة بهذا الإسم كانت تملك بنسيوناً فيه!

– هذا عجيب وغريب!

– "عجيب وغريب بالنسبة لكَ... أما بالنسبة لي فالموضوع واضح ومحسوم!" قالت. ثم نظرت إلى الساعة الكبيرة المعلقة عند مدخل قاعة الجلوس، وصاحت:

– أوه... لابدّ أن أهيء نفسي لأني مدعوة لحضور حفل زفاف هذا المساء!

عند الباب احتضنتني:

– "أنتَ عزيز عليّ كثيراً يا ميلود... وبإمكانكَ أن تعود متى تشاء.. وسوف تجد دائما ما يرضيك ويسرك!" قالت .

لقد اتفقوا جميعاً على إيذائي وإيذاء روزالي. هذا أمر لم يعد يحتاجُ إلى أي دليل. وعلى أية حال لا يمكن لزمردة إلاّ أن تخون وإلاّ فإن مصالحها ستضرب في رمشة عين، وستساق إلى المحكمة بتهمة إعداد وكر للفساد والرذيلة، وبأشياء أخرى كثيرة تعرفها الشرطة جيداً، ويعرفها أيضاً ذلك الجرسون الخبيث رشيد وحلفاؤه. وهكذا خيّرت المصلحة على الصداقة. ومن المؤكد أن هذا الأمرَ عذب روزالي أكثر من أي شيء غيره، لأنها تحب زمردة ولا تطيق فراقها. أه... لقد اعتقدت أن نفاق الشرق يمكن أن يبطل مفعوله عند الخط الفاصل بين الشرق والغرب. ولكن يبدو أن هذا هو أيضاً وهم مثل أوهامي الكثيرة الأخرى التي أجرها منذ أيامي في مدينة "قاف" والتي ظلت تفضي بي من خسران إلى خسران...

اليوم الخامس عشر: البارحة حلمت الحلم التالي: رأيت نفسي أسير في أزقة المدينة العتيقة التي كانت فارغة كلياً من البشر. وكانت الدنيا معتمة قليلاً كما لو أنه وقت السحر أو وقت الغروب. فجأة برزت روزالي من منعرج أحد الأزقة، وكانت حزينة، معفرة الوجه بالتراب، وشعرها وسخ ومنفوش كما لو أنها تعاركت مع أحد ما. ناديتها فلم يخرج الصوت مني. أردتُ أن أسرع للإلتحاق بها غير أن رجلي كانتا ثقيلتين مثل كرتين من حديد. تألمتُ لذلك شديد الألم ورحتُ أجاهد في السير بغية إدراكها، بينما كانت هي تسرع في سيرها وكأنها هاربة من خطر ما، ثم رأيتها تدخل خربة كئيبة ومظلمة. فلما اقتربت من تلك الخربة، طلعت عليّ عفاريت سوداء، واندفعت نحوي فاتحة أفواهها. وفي تلك اللحظة بالذات، استيقظت ...

أحزنني الحلم كثيراً، ذلك أنّه بدا وكأنه إشارة تأكيد على أن روزالي محبوسة في إحدى خرب المدينة العتيقة، وأنها تعاني الأمرّين من ذلك. كما أنه قد يكون تلميحاً على أن البحث عن روزالي سيكون عسيراً ومحفوفاً بالمخاطر. مع ذلك لن أتخاذلَ عنه وسأواصله حتى النهاية للكشف عن خفايا المؤامرة القذرة التي دبرت ضدّي وضدّها...

عند دخولي إلى مطعم "فوانتاس" الإسباني لتناول طعام الغداء، وجدت الكاتب العاري، جالساً وحيداً في الركن...

- "آ... أنتَ!" صاح ثم نهضَ ليُعانقني بحرارة.

- متى وصلتَ؟! قال.

- منذ أسبوعين!

- منذ أسبوعين ولم تتصل بي؟! هذا عيب كبير!

- كنتُ مشغولاً!

- وبماذا كنتَ مشغولاً؟

- بأشياء كثيرة!

- كل هذا هراء... كان عليكَ أن تتصل بي منذ اليوم الأول لوصولكَ لأنكَ تعلم جيداً أن لكَ مكانة خاصة في قلبي... !

أسعدني جداً أن اسمعه يقول ذلك الكلام، خصوصاً وأني أعلم أنه يمقت المجاملة التي يتقنها أهل الشرق وبخاصّة سياسيوهم ومثقفوهم الذين

يصافحون باليد اليمنى وفي اليد اليسرى الخنجر الذي يطعنونكَ به بعد حين طعنة الموت...

– "أما زلتَ تشربُ؟!" قلتُ له مستغرباً لما رأيت أمامه زجاجة نبيذ أحمر.

– ولِمَ لا؟ !

– لقد مَنَعَكَ الأطبّاءُ من ذلك على ما أظنّ...

– "هذا صحيح... وقد انقطعت بالفعل عن الشراب لمُدّة أربعة أشهر تقريباً... بعدها لم أستطع المقاومة... والآن أنا أشربُ أقلّ من السابق بكثير وأعتقد أن لي جسداً لا يخون، ذلك أنه لو كان واحد آخر غيري أدمنَ على التدخين والشراب منذ سن الثالثة عشر لكان هلَكَ منذ أمد بعيد!"

قبل عامين سافر الكاتب العاريّ إلى ألمانيا لتقديم كتاب له كانت قد صدر للتوّ. وخلال جولاته بين المدن سقط مريضاً. وبعد فحوص دقيقة أُخضِعَ لها، نصحه الأطباءُ بالكفّ نهائياً عن الشراب وإلاّ فإن العواقب سوف تكون وخيمةً. وعندما جاء إلى مدينة غربتي قال لي ونحن في بار "جوزيفين" بأنه لن يشرب قطرة واحدة مستقبلاً...

أخذ الكاتب العاري رشفة من كأسه ثم قال:

– أنا الآن في الرابعة والستين من عمري... وما عشته كاف على ما أظنّ... ولا أريدُ أن أمنع نفسي في اللحظات الأخيرة من حياتي من الأشياء التي أحبها، ثم إنني لا أريد أن أعيشَ حتى ذلك اليوم الذي لا أقدر فيه أن أمنع نفسي من البول في سروالي!

– "يبدو أنّكَ أقلعتَ عن ارتياد الأماكن المفضلة لديك سابقاً..." قلت.

– "هذا غير صحيح... فقد تغيّرت هذه المدينة خلال السنوات القليلة الماضية بشكل مخيف، وكثرت حوادث العنف والقتل والنهب..والبارحة فقط قرأتُ خبراً يقول إنه تمّ العثور على جثث خمس فتيات قاصرات، اغتُصِبْنَ ومُثّلَ بهنّ قبل أن يُذْبَحْنَ من الوريد إلى الوريد، ويُلْقَى بهنّ في مغارة في الجبل. وقبل عام، كنتُ عائداً إلى شقّتي حوالي الساعة الواحدة صباحاً، وإذا بخمسة شبان يهجمون عليّ ويضعون سكيناً على رقبتي طالبين منّي أن أسلّمهم كلّ ما عندي. سلبوني ساعة أهدتها لي صديقة إسبانية وخمسمائة درهم وحتى علبة السجائر، ثم لانوا بالفرار! ومنذ ذلك الحين، لم أعد أسهر، وحتى إذا ما سهرتُ، فإنّي أطلبُ من

أصدقائي أو من مضيفي أن يرافقوني إلى باب العمارة، وألاّ ينصرفوا إلاّ عندما أحكم باب العمارة!" ثم أخرج الكاتب العاري سكّيناً وقال:

– "هذا السكين لم يعد يفارقني لأني لا أرغب أن أموتَ ميتةً قذرة مذبوحاً على الرصيف من الوريد إلى الوريد من قبل أوغاد يبحثون عن ثمن زطلة!"

سكتَ قليلاً ثمّ أضافَ:

– حتى العلاقات قللتُ منها. حين يرنّ ناقوس الباب، أنظرُ من خلال الكوّة. فإذا ما كان الشخصُ الذي ضغط على الناقوس غير مرغوب فيه رفضتُ أن أفتَحَ لهُ. قبل، كنتُ أستقبل الجميعَ بما في ذلك اللصوص والقحاب الوضيعات والمثقفين التفهاء،... أما الآن فلن أفعل ذلك البتّة، لأن شقتي الصغيرة ليست محلاً عمومياً!"

تذكرتُ جملة وردتْ في كتابه الأخير، وفيها يقول": صمتك. صمت سقفك. صمت الصمت. السقف الذي لا يقاسمك أحد حتى في النظر إليه. أنتَ تكون ما أنتَ عندما تنتهي من عملك. كم أكره من تستمرّ معه مهنته أينما حلّ! أن تجرّدَ نفسك. أن تتمرد على ربّ عملك. ألاّ يزاحمكَ أحدٌ في وحدة سقفكَ. ألاّ نزاحم حتى أنفسنا. أن نعزل حتى أنفسنا. أن نغلق أبوابنا حتى في وجه أعزّ من نحبّهُ ويحبُّنا. فليصمد من هو أكثر صمتاً ووحدةً!"

بعد الغداء، طلبَ مني الكاتبُ العاري مرافقته إلى شقته في شارع "تولستوي" لشرب كأس آخر. صعدنا الطوابق الخمسة. وكان هو يتوقف من حين لآخر لاسترداد أنفاسه. وعندما وضعَ المفتاحَ في القفل قال وهو يلهثُ:

– محتمل أن يكون صعود هذه المدارج مرات عديدة في اليوم الواحد هو الذي أطالَ في عمري!

الشقة المتواضعة مرتبة ونظيفة كما كان حالها المرة الماضية. صور أصدقاء الكاتب العاري تزين الجدران. في الشرفة زهور ونباتات مختلفة. ولا أثر للكلب "جوبا."

– "أين جوبا؟" سألت.

– "آ..جوبا... رحمه الله.. لقد ماتَ قبل عامين. كان أعزّ رفيق لي في هذه المدينة على مدى خمسة عشر عاماً. وذات صباح شتائي بارد، وجدته ميّتاً في الشرفة... تألمت كثيراً.. غير أنّ المؤلم لم يكن فقط موتهُ، وإنما شيخوخته. كل يوم كنت أراقبُ ماذا الزمن يفعل به.. وفي النهاية لم أعد أطيق النظر إليه. ولأني رأيتُ صورتي فيه،

فإني أقسمتُ بألاّ أربّي حيواناً آخر بعده. والآن ليس عندي سوى كناري يطربني في الصباح..."

جالسين في الشرفة والليل ينتشر بنفسجياً على المدينة. الكاتب العاري مغرمٌ بموسيقى بلادي القديمة، ومدمن على الاستماع إلى صليحة والهادي الجويني وعلي الرياحي والشيخ العفريت. وفي مكتبته الموسيقية هو يمتلك البعض من أغانيهم النادرة التي لم يعد يتذكرها أحد. وفي المرة الماضية، استمتعتُ بسماع أغانٍ ردمها النسيان. مرة أسمعني برنامجاً أعدّه عن صليحة، مطربتي المفضّلة، لإذاعة المدينة أيام كان يتعاون معها، فلم أستطعْ أن أحبسَ دموعي من فرط التأثر. وقد اكتشفتُ أن الكاتب الغريب الأطوار يعرفُ أدقّ التفاصيل عن حياة هذه المغنية التي قتلَها التدخين والشرابُ وهي في أعزّ الشباب.

الليل مستمرّ في الإنتشار وصليحة تغنّي:

خالي بَدّلْني وَاش عليكم فيهْ
هو يغضبْ وانا نْرَضّيهْ
آه يا ماما آه يَا حنّا خالك جَا
عرْضيلُو بالحَمْلاَ...

ولأنه بدا رائق المزاج، فإني أوشكتُ أكثر من مرة أن أسأل الكاتب العاري عن روزالي، غير أني تخلّيتُ عن ذلك في النهاية، ليقيني بأنه لو كان يعرف شيئاً عنها لكان أبلغني به قبل أن أفتحَ فمي بشأنه إذ أنه يتمتع بحدس هائل، وبقدرة خارقة على سبر أغوار الآخرين...

اليوم السادس عشر: دعاني الكاتب العاري إلى العشاء في شقته. معاً ذهبنا إلى السوق واشترينا سمكاً. طلبَ الفتى المراهق الذي قام بتنظيف أسماكنا من الكاتب سيجارة، فأعطاه ثلاثاً. عند خروجنا من السوق، انتبه الكاتب العاري إلى أن علبة السجائر اختفت. ضحكَ بمرارة، وقال:

- "حتى عندما تكون طيّباً مع هؤلاء الناس فإنهم يخونونكَ ويسيؤون إليكَ!"

- "هذا صحيح!" قلتُ بحماس. وفي ذهني كل أولئك الذين كنت أعتقد أنهم طيبون ومسالمون وأبرياء، غير أن الأحداث والأيام أثبتت أنهم ذئاب شرسة وطيور كاسرة تفتكُ اللقمة من فمك!

عند مرورنا من "السوق الداخل" قال لي الكاتب العاري: "لقد انقطعت نهائياً،

تقريباً، عن الذهاب إلى المدينة العتيقة..أتدري لماذا؟ لأنني التقي فيها بأغلب أولئك الذين عشتُ معهم سنوات الجوع والتشرّد. ولأنهم جميعا يعتقدون أنني أصبحتُ صاحب مال وجاه، فإنهم أصبحوا يحسدونني، ويحقدون عليّ حقداً شديداً.. بل إن أحدهم هجم عليّ ذات يوم بسكين متهماً إياي بأنني خنتُ إخوتي الفقراء،وأصبحت أتاجر بعذاباتهم وبمصائبهم وجوعهم! لهذا السبب لم أعد أذهب إلى المدينة العتيقة رغم حبي الشديد لها!"

أعدّ الكاتب العاري العشاء، فكان لذيذاً مثل كتاباته. رحنا نشرب وندردش مستمعين إلى الأغاني، وجلها كانت من بلادي. آخر الليل حدثني الكاتب العاري عن النساء وقال لي: "لم أعد أتذكّر ولا واحدة من النساء اللائي عرفت، ولا أبتغي ذلك لأني أكره البكاء على الأطلال. كل صباح، أنظرُ من النافذة فأرى نهاراً جديداً يطلع فأقول إن هناك مغامرات وتجارب جديدة تنتظرني!" صمتَ قليلاً ثم أضافَ:

– "وعلى أيّة حال، في النهاية أعتقدُ أن أجمل حياة هي تلك التي لم نعشها، وأفضل كتاب ذلك الذي لم نكتبه، وأروع امرأة تلك التي لم نَرَها ولم نلمسها، ومثل السراب هي تبتعد كلما اقتربنا منها!"

عدتُ إلى الفندق وأنا أحاول فكّ رموز تلك الكلمات التي قالها لي الكاتب العاري آخر الليل... ترى هل هو حدس الآلام التي أتجرعها بسبب عدم عثوري على روزالي؟ !

اليوم الأخير: لا أدري كم يوم مرّ دون أن أكتب ولو سطراً واحداً في هذه اليوميات. قد تكون عشرة أيام. وقد تكون أكثر من ذلك بكثير. أقول هذا لأنني منذ فترة لم أعُدْ أتذكّرُ جيدا الأحداث والتواريخ وأسماء الأيام والشهور. لكأني تلقيت ضربة قويةً على دماغي هشمت ذاكرتي. وأحياناً تلفني عتمة ثقيلة، فأفقد القدرة على التمييز بين الأشياء، ويتحول الكون إلى متاهة تمتد أمامي رمادية قاحلة ويتراءى لي البشر أشباحاً قاتمةً تتحرّك في اضطراب وفوضى. ويبدو أن هناك أحداثاً كثيرة وقعت خلال الأيام التي انقضت غير أني لا أتذكرها جيداً. فقد أكون ذهبتُ إلى المدينة العتيقة قصد العثور على بيت تلك المرأة التي تشبه صفية غير أنّ فتياناً اعترضوا سبيلي وضربوني ضرباً مبرّحاً، الشيء الذي أجبرني على البقاء في الفندق فترة ليس بإمكاني تحديدها بسبب الرضوض والتشوهات التي كانت على وجهي وعلى كامل جسدي. ومحتمل أني عدتُ إلى زمردة وفاتحتها من جديد

بموضوع روزالي. فلما رفضت الخوض فيه، لعنتُ أصلها وفصلها الشيء الذي اضطرها إلى الإستنجاد برجال أشدّاء طردوني من شقتها شرّ طردة، فإذا بي أجد نفسي مُلْقى على الرصيف والدم يسيلُ غزيراً من فمي، ومن حولي فضوليون شامتون. وجائز أني عدتُ إلى بار "النجريسكو" ونفسي تغلي غضباً ورغبة في الإنتقام من رأس الفتنة. أعني بذلك الجرسون رشيد، إلاّ أنهم منعوني من الدخول. ويبدو أني التقيتُ بالكاتب العاري في مكان ما، فنصحني بالعودة حالاً إلى مدينة غربتي لعرض نفسي على طبيب، إذْ أنّ حالتي النفسية ليست على ما يرام، حسب رأيه. وقد أكون فعلت أشياء أخرى، وتعرضت لمصائب كثيرة من هذا القبيل غير أني لا أتذكّرُ لا تفاصيلها ولا حتى الصورة العامة لها. ما أتذكره الآن جيداً هو أن صاحب الفندق أبلغني أمس صباحاً أنه يتحتّم عليّ مغادرة الفندق، وأعطاني مهلة يومين فقط للقيام بذلك. سألته عن السبب، فصاح بي بحدّة ولعابه يتطايرُ:

– "إسمع يا سيد ميلود..قلت إنه عليكَ أن تغادر الفندق بعد يومين على أقصى تقدير..أما السبب فأنتَ ادرى به!"

الآن، أنا أمشي على غير هدى في المدينة. الناس قليلون، وأغلب المحلات مغلقة، ولا باخرة واحدة في الميناء. ما الذي حدث يا تُرى؟! قادتني رجلاي إلى شارع قرطبة، وجدته فارغاً تماماً. باب العمارة البشعة مغلق. حانوت الحاج ميمون أيضاً. ظللتُ واقفاً أنصت إلى الصمت الموحش الجاثم على الشارع وعلى المدينة بأسرها. فجأة طلعتْ عليّ صبية في حوالي الثامنة من عمرها، ترتدي فستاناً وردياً، وينزل شَعَرُها الأسود ظفيرتين جميلتين على كتفيها، وفي وجهها القمري وعينيها العسليتين براءة الملائكة وألق الطفولة السعيدة. ابتسمت لي فابتسمتُ لها أنا أيضاً، ثم اقتربت منها:

– هل تعرفين روزالي؟! سألتها.

– "نعم..أعرفها جيداً!" قالت.

– تعرفينها جيداً؟! صحتُ فيها مدهوشاً.

– نعم..أعرفها جيداً! كررت هي.

بدأ جسدي يرجفُ ودقات قلبي تتسارع.

– هل يمكنك يا صغيرتي أن تأخذيني إليها؟!

– "طبعاً..بإمكاني ذلك!" ردّت الصبيّة.

اشتهيتُ أن أحتضنها وأقبلها جزاء ذلك، غير أنني اقتصرت على المسك بيدها الحارة والصغيرة، وقلتُ لها:

– "هيّا بنا إليها!"

سرنا بعض الخطوات، وإذا بالشارع يسودّ برجال الأمن. وكان الرئيس في مقدمتهم. أبعدوا عنّي الصبية. وبسرعة فائقة وَضَعوا القيد في يدي، ثم دفعوا بي داخل سيارة سوداء. وفي هذه اللحظة بالذات خرج الناس في كل حدب وصوب وهم في حالة من الهيجان والغضب الشديد، وبدأوا يصيحون ملوّحين بقبضاتهم:

– الموت للقاتل! الموت للقاتل! الموت للقاتل!

شقت السيارة السوداء طريقها بصعوبة بالغة وسط الجموع الغاضبة. عند وصولنا إلى دائرة الأمن العامّ، قادوني إلى نفس المكتب الذي استجوبوني فيه سابقاً. جلس الرئيس ثم قال بهدوئه المعتاد:

– الأفضل لكَ ان تعترفَ يا سيد ميلود حتى لا تتعبنا وتتعب نفسك!

– "أعترف بماذا؟" قلتُ.

– بانّكَ قتلتَ ستّ صبيات قاصرات، بعد أن اغتصبتهنّ ومثّلتَ بهنّ!

تذكرتُ الخبر الذي ذكره لي الكاتب العاري يوم التقيت به في مطعم "فوانتاس."

في الخارج كانت الجموع لا تزال تهدر غاضبةً:

– الموت للقاتل! الموت للقاتل! الموت للقاتل!

فجأةً، ولسبب لا أدريه، استبدت بي نوبة من الضحك، فرحتُ أهتزّ ضارباً الأرض بقدمي، في حين كان رجال الأمن ينظرون إليّ صامتين، وفي ملامحهم اختلط الغضب بالدهشة والإستغراب. ولمّا أراد أحدهم أن يؤدّبني، منعه الرئيس من ذلك بإشارة حازمة.

هدأت نوبة الضحك، فقال لي الرئيس:

– لقد وجدناكَ متلبساً بجريمتكَ يا سيد ميلود..لذا لا سبيل للإنكار!

لم أرُدّ على ما قال. مرت ساعة أو أكثر أو أقلّ، لا أدري، وأنا صامت أتسلّى بصراخ الجموع الغاضبة، بينما رجال الأمن من حولي جامدون. لا نأمة ولا حركة.

ثم نهضوا جميعاً وفي نفس الوقت، وصاح الرئيس وقد بدا منفعلاً لأول مرّة:

– خذوه!

أخذوا مني حزامي الجلدي، وساعتي اليدوية، ثم رموا بي في زنزانة ضيقة معتّمة.

– "إذا أردتَ أن تعترفَ فاضرب على الباب بقوّة أربع مرات متتالية!" قالوا، ثم أغلقوا علي باب الزنزانة وانصرفوا...

الصمت والعتمة. صمت القبر وعتمته. دائماً كنت أشتهي موتاً عبثياً. وها قد أتى سهلاً وسريعاً مثل قصيد يولدُ في لحظة انفعال رائعة. فعلى الدنيا السلام! ولأن الزمن كان قد توقف وأصبح بلا معنى بالنسبة لي، فأنا لم أحس بآلام الإنتظار ولا بحرقته. مرتان، تفتح الكوّة التي في الباب الحديدي ويرمى لي بساندويتش بارد ونتن فألتهمه بسرعة ليس لأني متشبث بالحياة، وإنما لأني لا أريد أن أموت مشنوقاً أمام الجموع الغاضبة، تحت الشمس، وأمام البحر، وليس مثل جرذ في العتمة. ثم تعالى وقع أحذية غليظة. ها هم قادمون. الموت أصبح جدّ قريب الآن. وأكيد أنه سيكون موتاً جميلاً لأنه من أجل روزالي. وعلى الخط الفاصل بين الشرق الذي طردني والغرب الذي رفضني. فتحوا الباب. فكوا القيد ثم أمروني أن أتبعهم ففعلتُ. من النظرة الأولى، لاحظتُ أنهم أقلّ توتراً من اليوم الذي ألقوا عليّ القبض فيه.

أمام دائرة الأمن العام، كانت هناك سيارة سوداء في انتظارنا. ركبناها فوضعتنا أمام فندق "أطلس." نزل شرطي. غاب قليلاً ثم عاد ومعه حقيبتي. انطلقت بنا السيارة السوداء من جديد. اجتازت البولوفار واتجهت نحو الميناء. الليل ينجلي ببطء. البحر هادئ. الشوارع فارغة. والمدينة تختلج بيضاء، مثل نورس هائل في انتظار طلوع الشمس. في الميناء، رافقوني حتى مدخل الباخرة التي كانت تستعد للإبحار. وبعد أن ختمت شرطة الحدود جوازي، سلموني حقيبتي ثم قالوا:

– لا تعد إلى هنا أبداً!

أبحرت الباخرة. وعندما اختفت المدينة في الضباب الصباحي، همست:

– وداعا روزالي!

ثم انكفأت

فكأني

ما

عشت

وما

كنتُ

أبداً!

الخميس ٣ فبراير/ شباط ٢٠٠٠

مكتبة نوميديا 215
Telegram@Numidia_Library

هذا الكتاب

تدور أحداث هذه الرواية في مدن ثلاث: مدينة «قاف» التي قد تكون مدينة القيروان التونسية، ومدينة الغربة، التي قد تكون مدينة ميونيخ الألمانية، ومدينة روزالي، التي قد تكون مدينة طنجة المغربية. انها سيرة شخص اختار حياة المنفى بهدف تحقيق ذاته، غير أنه يفشل وتتحول حياتُه الى كابوس مرعب، فإذا به معلق بين الشرق الذي طرده والغرب الذي رفضه... حالماً بلقاء امرأة تدعى روزالي... معتقداً انها الوحيدة القادرة على أن تعيد له توازنه.

منشورات الجمل